صُعُودُ الأَقْوَالِ وَرَفْعُ الأَعْمَالِ

إِلَى

الكَبِيرِ المُتَعَالِ ذِي العِزَّةِ وَالجَلَالِ

بِقَلَم

عبد الله سراج الدين

يُطْلَبُ مِنْ مَكْتَبَةِ دَارِ الفَلَاحِ
حلب أقيول - أمام جامع أسامة

بسم الله الرحمن الرحيم

مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ

صُعُودُ الأَقْوَالِ وَرَفْعُ الأَعْمَالِ

إلى

الكَبِيرِ المُتَعَالِ ذِي العِزَّةِ وَالجَلَالِ

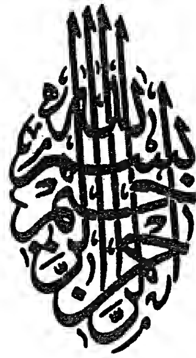
بقلم

عَبْدُ اللهِ سِرَاجُ الدِّين

يطلب من :

مكتبة دار الفلاح

حلب - أقيول



أيها القارئ الكريم :

اقرأ سورة الفاتحة كلما قرأت في كتاب من كتبي ، واهدِ ثوابها إلى العلامة الشهير ، والعارف الكبير ، حامل لواء الحجة بالكتاب والسنة ، المفسّر والمحدث بالأسانيد المتصلة ، عن كبار المحدثين - في حلب ودمشق والمغرب وغيرها من البلاد الإسلامية - بإجازات عالية الأسانيد - محفوظة عندي - سيدي وشيخي والدي الكريم ، الشيخ محمد نجيب سراج الدين الحسيني ، رحمه الله تعالى ، وجزاه عن المسلمين خيرًا ، إنه هو السميع العليم

آمين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأفضل الصلاة وأَكمل التسليم على سيدنا محمد إِمام الأَنبياءِ والمرسلين ، وعلى آله وصحبه والتابعين إِلى يوم الدين.

وبعد: فإني قد تناولتُ في هذا الكتاب البحثَ حول صعود الكَلِمِ الطَّيِّب ، ورَفْع العملِ الصالح الوارِدِ ذكرُهما في قول الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥۚ﴾ الآية.

وتكلمتُ كلاماً موجَزاً حول الآية الكريمة ، وبَيَّنتُ معنى الكَلِمِ الطيب ، والعمل الصالح ، كما بينت مراتبَ رفعِ الأَعمال ، وأَنواعَ الرفعِ ، وذكرتُ وجُوهاً من الحكمة في رفعها ، وما يترتبُ على ذلكَ الرفعِ مِنْ مكرماتٍ وفضائلَ تعود على قائل الكَلم الطيب ، وفاعِلِ العمَل الصالح.

ثم أَرْدَفتُ ذلك بذكر بَعْض الفضائل والمناقب ، التي أَكرم الله تعالى بها عباده المؤمنين الذين يعملون الصالحات ، وحاولتُ الإِيجاز والاختصار؛ خشيةَ أن يَمَلَّ القارئُ أَو يسأَم.

والمقصود من ذلك كله ـ ونسأل الله تعالى حسن إخلاص النية

وصدق القصد ـ أَن يعرفَ المسلم فضلَ الله تعالى عليه بالإيمان ، وإِكرامَ الله تعالى إِياه بتوفيقه للكلم الطيب والعمل الصالح ، وأَن يعرفَ كرامتَهما عند الله تعالى ، وعلوَّ شأْنهما في الملإِ الأَعلى ، وما يترتب عليهما من مراتبَ وفضائلَ ، ورفعةِ درجاتٍ ، وتكفيرِ سيئات ، وكثرة حسنات ، وثناءِ ربِّ العالمين على أُولئك الذين تقرَّبوا إِليه بالكلم الطيب والعمل الصالح ، وذِكْرِه سبحانه لهم بالمدح والتكريم ، ومباهاتِه بهم ملائكتَه في الملإِ الأَعلى ، وإِعلامِهم بمحبته لهم ، ورضوانه عليهم ، وإِعلانِ ذلك في العوالم العلوية ، وتحبيبهم إِلى ملائكته سبحانه ، وأَمْرِهم بالدعاءِ لهم والاستغفار لهم ، وغيرِ ذلك مما سوف يمرُّ عليك في هذا الكتاب إِنْ شاءَ الله تعالى ، مُفصلاً ومرتباً مع بيان دليله من الكتاب والسنة .

ولا شك في أَنَّ مَنْ عرف تلك النتائج الحميدةَ ، والآثار المجيدة ـ للكلمِ الطيب والعمل الصالح ، وعرفَ العزة والكرامة والفضائل المترتبة عليهما ـ فإِنه يزدادُ نشاطه ، وتنهضُ همته مسارعاً ، وتَقْوى عزيمتُه مسابقاً في مَيدان الكلم الطيب والعمل الصالح ، ليرقىٰ تلك الدرجاتِ ، وينالَ تلك المكرمات والخصوصيات من الرحماتِ ، وعظيمِ الفضل من الخيرات ، فإِنه سبحانه قال : ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ .

وإِنَّ مَن حَصَل على الرِّبح الكثير في بيعه وشرائه بادر مبكراً للتجارة ، وهان عليه كلُّ صعب ، وسَهُل عليه كلُّ عسير ، حتى ربما لا يَشعرُ بأَلم جوعه وعطشه لسروره وفرحه بما يطمع فيه من أَرباح ، وما يطمح إِليه من كثرة أَموال ، ولكن التجارة الناجحة والرابحة التي تَدُرُّ على صاحبها أَضعافاً مضاعفة ، على وجه

الاستمرار بلا بَوَار تلك التجارة هي في الإكثار من الكَلِم الطيب والعمل الصالح .

وقد نَبَّه الله تعالى عباده المؤمنين أُولي الهمم العالية ، وأَربابَ العزائم السامية ، إلى صَرْف هِممهم وعزائمهم نحوَ هذه التجارة الكبرى ، قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ .

وقد وصف سبحانه أَهل التجارة الرابحة فقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ .

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

فإِذا كانت تجارةُ الدنيا تُعطي أَرباحاً في المائة كذا وكذا ، فإِن الربحَ في الكلم الطيب والعمل الصالح هو أَن يضاعَفَ الواحدُ بعشْرِ أَمثاله ، إِلى سبعمائةِ ضعفٍ ، إِلى أَضعافٍ كثيرة بغير حساب.

جاءَ في (الصحيحين) عن أَبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «كلُّ عملِ ابنِ آدمَ الحسنةُ بعشرِ أَمثالِها إِلى سبعمائةِ ضعفٍ ، قال الله تعالى: إلا الصيامَ ؛ فإِنَّهُ لي وأَنَا أَجزي به ، يَدَعُ شهوتَه وطعامَه وشرابَه من أَجْلِي».

وفي روايةٍ لمسلم: «كلُّ عملِ ابنِ آدم يضاعَفُ: الحسنةُ بعشر

أَمثالها إِلى سبعمائة ضعف ، إِلى ما يشاءُ الله» أَي: من المضاعفات فوقَ السبعِمائةِ ضعف.

وخرَّج ابنُ حبانَ في (صحيحه) من حديث عيسى بن المسيب ، عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: لما نزلتْ هذه الآية: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ﴾.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ربِّ زِدْ أُمتي».

فأَنزل الله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ربِّ زِدْ أُمتي».

فأَنزل الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[1].

وروى الإمام أَحمد ، عن أَبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إِنَّ الله لَيضاعفُ الحسنةَ أَلْفَيْ أَلف حسنة» ، ثم تلا أبو هريرة رضي الله عنه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

قال أبو هريرة رضي الله عنه: إِذا قال الله تعالى: ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ فمَنْ يَقْدِر قَدْرَهُ[2]؟!.

---

(١) انظر (جامع العلوم والحكم).

(٢) قال الحافظ ابن رجب رحمه الله تعالى بعد ما أورد هذا الحديث: وورد عن أبي هريرة رضي الله عنه موقوفاً. اهـ ، وقد ذكر ابن كثير لهذا الحديث طرقاً متعددة مرفوعة في تفسيره.

فعلى العاقل أَن يصرِفَ رأسَ ماله في هذه التجارات الرابحة ، وهِي الأَقوال الطيبة والأَعمال الصالحة ، وإِنَّ رأْس مال الإنسان الذي لا يُعوَّض إِذا فاته هو عُمُره المقدَّر له ، وإِن أَعظم الخَسَارات وأَشدَّها حَسرةً وندامة هي خسارةُ الإنسان عُمُرَه .

وقد نبّهنا الله تعالى في قوله سبحانه : ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ .

فالله تعالى يُقسم بالعصر ـ أي : الدهر ـ المشتمِلِ على عُمُر كُلِّ ذي عُمُر ، يُقسم بذلك على أَن الإنسان لفي خُسر ـ أي : لفي خُسر لِعُمرِهِ المطويِّ في العصر ـ ثم يخبر جلَّ وعزَّ أَنه لم يَسلَم من تلك الخسارة الكبرى ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ .

وقد تكلمتُ على بعض معاني هذه السورة في بعض كتبي ، وربما أُفصِّل الكلام عليها في غير هذا الموضع إن شاءَ الله تعالى .

ويرحم الله تعالى القائل :

إِذا كان رأْسَ المال عُمْرُكَ فاحترزْ ... عليه من الإِنفاق في غير واجب

هذا وإِني أَسأَل الله تعالى الصدق في القول ، والإِخلاص في العمل ، إنه سميع الدعاء .

* * *

الكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ «لا إِلَهَ إِلاَّ ٱللهُ» هِيَ فِي القلبِ كالشَّجَرَةِ الطَّيِّبَةِ فِي الأرْضِ وَثَمرَاتُها الأَقْوالُ الطَّيِّبَةُ وَالأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾.

وجوه الكلام حول هذه الآية الكريمة:

الأول: قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا ﴾ فيه التنبيه إلى عَظمة هذا المَثَل وروعتِه، وأنه المثل الأفضل والأكمل، والأدلُّ على المراد الذي سِيقَ له، وذلك مما يُوجب على العاقل أن يُلقِيَ اهتمامه إليه، فيعقلَ ما فيه ويتذكره، ويفكِّر في مراميه ويتدبر، فإنَّ في ضرب الأَمثال إبرازاً للمعاني بصور المباني، وتصويراً للمعقولات والمعلومات بصور المشهودات والمرئيات، وبذلك تتجلى حقائق المعاني المخبر عنها، والمقصود بيانها، حتى يصير الخبر عنها كالعيان، ولذا قال سبحانه في آخر الآية الكريمة: ﴿ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾.

الثاني: قوله تعالى: ﴿ كَلِمَةً طَيِّبَةً ﴾ هذه الكلمة الطيبة هي:

لا إلٰه إلا الله ، كما جاءَ ذلك عن السلف الصالح من الصحابة والتابعين.

روى ابن جرير وابن المنذر وابن أَبي حاتم ، والبيهقي في (الأسماءِ والصفات) عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ قال: (هي شهادة أَن لا إِلٰه إِلَّا الله ﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ وهو المؤمن ﴿ أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ يقول: لا إِلٰه إِلَّا الله ثابتة في قلب المؤمن ﴿ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ يقول سبحانه: يرفع بها عمل المؤمن إِلى السماءِ).

وإِنما وُصفتْ بأَنها طيبة لأَن مدلولَها وموضوعها والمخبَرَ بها عنه هو الله الواحد الأَحد ، الفرد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كُفُواً أَحد ، المتصفُ بما لا يتناهَى من الكمالات ، المنزَّهُ عن العيوب والنقائص والآفات ، فهو الملِك القدُّوس ، وهو الله تعالى الطَّيبُ ، قال صلى الله عليه وآله وسلم: «إِنَّ الله تعالى طيِّبٌ لا يقبلُ إِلا طيباً» الحديث.

فهذه الكلمة هيِ طيبةٌ بذاتها ، مطيِّبة للقلب الذي اعتقدها ، ومطهِّرة له من نَجَسِ الشرك والكفر ، فهي كلمة طيبة ولا أَطيبَ منها ، ولا أَطهر ولا أَقوى منها ولا أَظهر ، ولا أَكمل منها ولا أَفضل ، ولا أَقدس منها ولا أَنفس ، إِنها: لا إِلٰهَ إِلا الله ، التي لا تتناهى معانيها.

قال تعالى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فمهما علم العلماءُ من علوم لا إِلٰهَ إِلَّا الله ، فإِن الله تعالى يقول: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

ولما كانت لاَ إلٰه إلاَّ الله عظيمةَ القدر ، كبيرةَ الشأْنِ ، كثيرة

الفضل ، لا تُعادَل ولا تُقابَل ، كانت أَوصافُها الواردةُ في الكتاب والسنة كثيرةً وكبيرة نذكر موجزاً منها :

١ ـ فهي الكلمة الطيبة ـ كما تقدم ـ .

٢ ـ وهي كلمة التقوى ، قال تعالى : ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ الآية .

روى الترمذي ، وعبد الله بن أَحمد في الزوائد ، والبيهقي عن أُبيٍّ بن كعب رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قوله تعالى : ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ قال : «لا إِلٰه إِلاَّ الله» .

٣ ـ وهي كلمة الله العليا ، قال تعالى : ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا﴾ .

روى ابن المنذر وابن أَبي حاتم ، والبيهقي في (الأسماءِ والصفات) عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ﴾ قال : هي الشرك ، ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا﴾ قال : هي لا إِلٰه إِلاَّ الله .

فلا إِلٰه إِلاَّ الله هي العليا ولا أَعلى منها ولا أَشرف منها ولا أَعز منها ، فلها الرفعة والعزة والصدارة على ما سواها .

روى الإمام البغويُّ من طريق إسحاق بن بِشْر ، أَخبرني مقاتل وابن جُريج ، عن مجاهد ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (إن صدر اللوح المحفوظ لا إِلٰه إِلاَّ الله وحده ، دينه الإسلام ، ومحمد عبده ورسوله ، فمن آمن بالله وصَدَّق بوعده واتَّبع رسله ؛ أَدخله الله تعالى الجنة) .

٤ ـ وهي الكلمة الباقية ، قال تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ .

فقد نقل الحافظ ابن كثير عن كثير من السلف أَنها: لا إِله إِلَّا الله ، المفهومة من الآيات المتقدمة عليها.

٥ ـ وهي كلمة التوحيد ، روى مسلم ، عن طارق الأَشجعي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «من قال لا إِله إِلَّا الله ، وَكَفَرَ بما يُعبد مِن دون الله: حَرُمَ مالُه ودمُه ، وحسابُه على الله تعالى».

وفي رواية: «مَنْ وَحَّدَ الله» وذكر مثله[١].

٦ ـ هي كلمة الإِخلاص ، روىٰ أَبُو داود ، وابن حبان في (صحيحه) عن عبد الرحمن بن أَبْزَى ، عن أَبيه ، أَن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يقول إذا أَصبح: «أَصبحنا على فِطْرة الإِسلام ، وكلمة الإِخلاص ، وعلى دين نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وعلى ملة إِبراهيم حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين»[٢].

قال ابن الأَثير: الفِطْرة هي ابتداءُ الخِلْقة ، وهي إِشارة إِلى كلمة التوحيد حين أَخذ الله تعالى العهدَ بها على ذرية آدم ، فقال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ وقيل: الفطرة ها هنا السنة . . ، قال: وكلمة الإِخلاص: قول: لا إِله إِلا الله . ا هـ.

---

(١) كما في (جامع الأصول).
(٢) انظر (جامع الأصول).

٧ ـ هي كلمة كريمة على الله تعالى ، روى البزار في (مسنده) عن عياض الأنصاري رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إنَّ لا إلٰه إلاَّ الله كلمة على الله كريمة ، لها عند الله مكان ، وهي كلمة مَنْ قالها صادقاً أَدخله الله بها الجنة ، ومن قالها كاذباً حَقَنَتْ ماله ودمه ، ولقي الله غداً فحاسبه» أَورده الحافظ ابن رجب في شرحه.

٨ ـ هي كلمة عظيمة كريمة على الله تعالىٰ ، روىٰ ابن النجار ، عن أَنس رضي الله عنه مرفوعاً: «لا إلٰه إلا الله كلمة عظيمة كريمة على الله تعالى ، مَنْ قالها مخلصاً استوجَبَ الجنة».

ومِنْ كرامتها على الله تعالى أَنَّ من جاءَ بها صادقاً أَكرمه الله تعالى.

وهي كلمة عظيمة لا تُقاومُها السماوات ولا الأَرضون.

روى النسائي ، وابن حبان في (صحيحه) عن أَبي سعيد رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أَنَّه قال: «قال موسى صلى الله عليه وسلم: يا ربِّ عَلِّمْني شَيئاً أَذكُرُك به وأَدعوك به.

قال: قل: لا إلٰه إلا الله.

قال: يا ربِّ كُلُّ عبادك يقول هذا.

قال: قل: لا إلٰه إلا الله.

قال موسى: إِنَّما أُريد شيئاً تَخصُّني به.

فقال ـ سبحانه ـ: يا موسى لو أَن السَّماواتِ السبعَ ، والأَرضينَ

السبعَ في كِفَّة ، ولا إِلٰه إلا الله في كِفَّة ، مالت بهن لا إِلٰه إلاَّ الله» أي: لعظمتها وقوتها وهيبتها[١].

والآن نرجع إلى الآية الكريمة:

الثالث: قوله تعالى: ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ والمراد بالشجرة الطيبة هنا النخلة، كما جاءَ في الحديث الصحيح، عن أَنس رضي الله عنه قال: أُتِيَ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقِناع من بُسْر، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «مَثَلَ ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ ـ حتى بلغ ـ ﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾، فقال: هي النخلة.

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ ـ حتى بلغ ـ: ﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ فقال: هي الحنظلة»[٢]. والقِناع: الطَّبَق الذي يؤكل عليه.

الرابع: ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: أَصلها ثابت: قول لا إِلٰه إلا الله في قلب المؤمن، وفرعها في السماء، يُرفع بها عمل المؤمن إلى السماءِ.

والمعنى: أَنَّ لا إِلٰه إلاَّ الله هي ثابتة راسخة في القلب، وفروعها التي تتفرع عنها من الكلم الطيب والعمل الصالح صاعدة

---

(١) وتفصيل الكلام على بقية أسماء هذه الكلمة الطيبة وأوصافها تجده في كتابنا (شهادة لا إلّه إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم).

(٢) رواه الترمذي والنسائي، والبزار وأبو يعلى وابن جرير وابن أبي حاتم، وابن حبان، والحاكم وصححه، وابن مردويه، كما في (الدر المنثور).

إلى السماءِ ، وكما أَنَّ شجرة النخلة دائمة النفع متواصلة الخير ، لا ينقطع خيرها وثمرها طول السنة ، ما بين بُسْرٍ ورُطَب وتمر جاف يابس؛ كذلك شجرة الإيمان في القلب وهي: لا إلّه إلا الله ، لا ينقطع خيرها ولا يفنى بِرُّها ، فهي لا تزال تؤتي ثمراتها كل حين في الليل والنهار ، والغدوة والعشيِّ ، كلاماً طيباً ، وأَعمالاً صالحة ، تُرفع إلى رب العالمين.

وفي هذا المثل العظيم الذي ضربه الله تعالى لعباده تنبيهات إلّهية إلى أُمور هامة يجب على المؤمن أَن ينتبه لها ، وَيَرعاها حقَّها ، ليكمل له الإيمان ، ويحفظه من النقصان.

الأمر الأول: أَن الشجرة لا تبقىٰ فيها حياة النمو إلا بمادة تَسقيها وتُنَمِّيها ، فإذا انقطع عنها السقي جَفتْ ويبست ، وهكذا شجرة الإيمان في القلب: إنْ لم يتعاهدْها صاحبُها بالسقيا ، أَوشك أَن تيبس ، وإذا تمكن فيها اليبس طويلاً ماتت والعياذ بالله تعالى.

فالماءُ الذي يُسقَىٰ به شجر الأَرض ليحيا وينمو هو ماءُ المطر والنهر والينابيع ، فيه غيثه وقوَّته ونموُّه ، وأَما الغيث الذي يحيي الله تعالى به شجرةَ الإيمان في القلب وينمِّيها ويقوِّيها فهو ماءُ الوحي الإلٰهيِّ ، النازل من عند الله تعالى على سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، الوحي القرآني ، والوحي النبويِّ: كتابُ الله تعالى وسنةُ رسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

والدليل على ذلك قول الله تعالى: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ

ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ .

فقد ضرب الله تعالى في هذه الآية مثلين :

الأول : المثل المائي ، شبَّه فيه الوحي الذي أَنزله سبحانه على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم لإحياءِ القلوب بالإيمان ، وإِحياءِ شجرة الإيمان ، وتنميتها وتقويتها في القلوب ، شَبَّه ذلك بالماءِ الذي أَنزله من السماءِ لحياة الأَرض ، وإِحياءِ النباتِ من الزروع والأَشجارِ فيها ، وشبَّه القلوب الحاملة له بالأَودية الحاملةِ للسيل .

فهناك قلبٌ كبير يَسَعُ إيماناً عظيماً وعلماً كثيراً ، كالوادي الكبير الذي يسع الماءَ الكثير ، وهناك قلب صغير كالوادي الصغير يسعُ القليل من ذلك ، فَحَملتِ القلوبُ من الإيمان والعلم بقدَرها ، كما سالتِ الأَودية بقدَرها .

وكما أَنَّ السيل إِذا مرَّ بالوادي يحمِل غُثاءً وزَبَداً ، ويطفو ذلك على وجه الماءِ ، ولكن تحته الماءُ الفُرات الذي به حياة الأَرض والنبات ، فيقذِف السيلُ ذلك الغُثاءَ إلى الخارج حتى لا يبقىٰ منه شيءٌ ، ويبقى الماءُ الصافي ، فيحيي به الله تعالى العبادَ والبلاد ، والشجر والدواب ، فكذلك الإِيمان والعلم الذي أَنزله الله تعالى في القلوب ، فإنها احتملته فأَثار ما فيها من غثاءِ الشهوات الضارة ، وزَبَد الشبهات الضالة ، فيطفو ذلك ، ولكنْ سرعان ما يزول ويذهب جُفاءً ، ويطرحه القلب ، ويبقى الإِيمان الخالص ، والعلم النافع في ذلك القلب .

الثاني : هو المثل الناري : ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ﴾ وهو الخَبَث الذي يَخرج عند سبك الذهب والفضة ،

والنحاس والحديد ، فتخرجه النار وتفصله من الجوهر الذي يُنتفع به فيرمى ويطرح ، وكذلك الشهوات المحرمة والشبهات الباطلة ، فإن الإيمان إذا دخل القلب طرحها بعيدةً عنه ، ويبقى الإيمان الصادق والعلم النافع مستقراً متمكناً في أرض القلوب ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾.

وقد ضرب النبي صلى الله عليه وآله وسلم مثلاً لما جاءَ به من الهُدى الرباني ، والعلم الإيماني ، واختلاف قبول القلوب لهما:

ففي (الصحيحين) عن أَبي موسى الأَشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إِنَّ مَثَلَ ما بعثني الله تعالى به من الهُدَى والعلم كمثلِ غيثٍ أَصاب أَرضاً ، فكان منها طائفةٌ قبلتِ الماءَ: فأَنبتتِ الكلأَ والعشب الكثير ، وكان منها طائفة أَجادب أَمسكت الماءَ: فسقى الناسُ وزرعوا ، وَأصاب منها طائفة أُخرى إِنما هي قِيعانٌ لا تُمسكُ ماءً ولا تُنبتُ كلأً: فذلك مَثَل مَنْ فَقُه في دين الله تعالى ، ونفعه ما بعثني الله به فَعَلِمَ وَعَلَّم ، ومَثَل مَنْ لَمْ يَرفعْ بذلك رأْساً ، ولم يَقبلْ هُدى الله الذي أُرسلتُ به».

فبيَّن صلى الله عليه وآله وسلم في هذا الحديث الغيثَ الحقيقي الذي يُغيث الله تعالى به القلوب فتحيا ، وذلك هو الهدى والعلم اللذان جاءَ بهما صلى الله عليه وآله وسلم ، فلا غيثَ تحيا به القلوب إلا فيما جاءَ به النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وإِن حاجةَ الناس إِليه أَشدُّ من حاجتهم إِلى غيث المطر.

كما بيَّن صلى الله عليه وآله وسلم أَقسام الناس بالنسبة لأَخذهم بما جاءَهم ، وقبولهم ذلك وأَنهم على ثلاثة أَقسام:

القسم الأول: العالم العامل المعلِّم للناس ، وهؤلاءِ هم العلماءُ ورثة الأَنبياءِ عليهم الصلاة والسلام ، قاموا بالدين وأَقاموه: علماً وعملاً ، ودَعَوْا إِلى الله تعالى على منهج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فهم كالأَرض الطيبة: شربتِ الماءَ النازل من السماءِ وقبلته ؛ فانتفعت في نفسها ، وأَنبتت الكلأَ والعشب الكثير ؛ فنفعت الناس.

وهؤلاءِ هم الذين أَعطاهم الله تعالى قوةً في الحفظ والفهم في وحي الله تعالى ، المنقول عن رسوله الكريم صلى الله عليه وآله وسلم ، فاستنبطوا من ذلك الأحكام الواسعة ، واستخرجوا من ذلك العلوم النافعة ، والحجج القاطعة ، فنفع الله تعالى بها العباد والبلاد ، كما قال أَمير المؤمنين علي بن أَبي طالب رضي الله عنه ، وكرم الله تعالى وجهه لما سئل: هل خصَّكم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بشيءٍ دون الناس؟.

فقال: (لا والذي فَلَقَ الحبة وبَرَأَ النَّسمة إِلا فهماً مُؤْتيه الله عبداً في كتابه).

فنصوص الكتاب والسنة بالنسبة لجميع الناس هم على حدٍّ سواءٍ فيها ، ولكن تختلف مراتبهم حسب اختلاف مراتبهم في الفهم ، وهذا فضل من الله تعالى يؤتيه من يشاءُ.

القسم الثاني: العالم العامل الذي أعطاه الله تعالى قوة حفظ النصوص وضبطها ، وكان فهمه منها ليس في تلك المرتبة الأُولى في قوة الاستنباط واستخراج الأَحكام ، فانتفع بها على حسب ما أُعطي من الفهم ، ولكنه أَدَّاها لغيره وبلَّغها للناس ، فانتفعوا بها

واستخرجوا منها علوماً ، واستنبطوا من تلك النصوص التي بلَّغها لهم أَحكاماً ، كما أَشار إلى ذلك سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقوله : «نضَّر الله امرءاً سَمِع منَّا شيئاً فبلَّغه كما سمعه ، فَرُبَّ مبلَّغٍ أَوْعَى من سامع» رواه أبو داود والترمذي .

وفي رواية لأَحمد ، وابن ماجه ، والطبراني : «نضَّر الله عبداً سمع مقالتي فحفظها وَوعاها وبلَّغها مَن لم يَسمعْها ، فربَّ حاملِ فقهٍ لا فِقْهَ له ، وربَّ حاملِ فقـهٍ إلى مَنْ هو أَفْقهُ منه» الحديث[1] .

وفي رواية لأَصحاب (السنن) : «نضَّر الله امرءاً سمع منا حديثاً فبلَّغه غيره ، فربَّ حاملِ فقهٍ إلى مَن هو أَفقهُ منه ، وربَّ حاملِ فقهٍ ليس بفقيه» الحديث[2] .

فهذان القسمان من الناس هما أَسعد خلق الله تعالى بما جاءَ به سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فإنهم الذين قبلوه وشربوه ، وامتلأَت به قلوبهم وأَرواحهم ، وأَسماعهم وأَبصارهم وعقولهم ، ورفعوا به رأْساً ، ونالوا به عزَّ الدنيا والآخرة .

اللهم اجعلنا منهم بفضلك وكرمك يا ذا الفضل العظيم .

القسم الثالث : هم أَشقى الخلق ، الذين لم يقبلوا هُدى الله تعالى الذي بُعِث به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ولم يرفعوا بذلك رأْساً ، فلا حِفْظَ ولا فَهمَ ، ولا عملَ بهَدْي الله

---

(١) انظر (ترغيب) المنذري .

(٢) انظر (ترغيب) المنذري ، و(جامع الأصول) .

تعالى ، ولا تمسكَ بشريعته ، فهم كالأرضِ السَّبْخة أَو الملساءِ التي لا تَقبل الماءَ ولا تُمسكه لينتفع به الناس.

فحياة الشجرة الإيمانية في القلب إنما هي بماءِ الوحي النازل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فإنه جاءَ بالهدى الساطع والعلم النافع ، فإذا سُقِي القلبُ بهذا الماءِ نَمَتْ شجرة الإيمان وقويت ، وشَعَّبت شُعَباً ، وفرّعته فروعاً ، وبذلك يصير قلب المؤمن كَرْماً ، كما قال الصادق المصدوق صلى الله عليه وآله وسلم: «لا تُسَمُّوا العنب الكرمَ ، إنَّما الكرْمُ قلبُ المؤمن»[1].

وقد نَدَبنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ورغَّبنا في أن نسأَل الله تعالى أَنْ يجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا :

فعن ابن مسعود رضي الله عنه ، أَن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «ما أَصاب أَحداً قَطُّ هَمٌّ ولا حَزَنٌ فقال: اللهم إني عبدك ، وابنُ عبدِك ، وابنُ أَمَتِكَ ، وفي قبضتك ، ناصِيتي بيدك ، ماضٍ فيَّ حُكْمُك ، عَدْلٌ فيَّ قضاؤك ، أَسأَلك بكل اسم هو لك ، سميتَ به نفسك ، أَو أَنزلتَه في كتَابك ، أَوْ علَّمتَه أَحداً من خلقك ، أَو استأْثرتَ به في علم الغيب عندك: أَن تَجعلَ القرآنَ العظيم ربيعَ قلبي ، ونور صدري - وفي رواية: «بصري» - وجلاءَ حُزْني ، وذَهابَ همي وغمي ، إلا أَذهب الله عز وجل همَّه وأَبدله مكان حزنه فرحاً».

---

(١) رواه الشيخان واللفظ للبخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه. قال الزبيدي: يقال: رجل كرم وامرأة كرم ونسوة كرم ، كله بفتح الراء وإسكانها بمعنى كريم ، وصف بالمصدر كعدل وضيف. ا هـ.

قالوا: يا رسول الله ينبغي لنا أَن نتعلم هذه الكلمات.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «أَجل، ينبغي لمن سمعهن أَن يتعلمهن».

قال المنذري: رواه أَحمد والبزار وأَبو يعلى، وابن حبان في (صحيحه) والحاكم.

فإذا صار القرآنُ العظيمُ ربيعَ القلب: أَخصبَ وأَعشبَ، وأَثمر كَلِماً طيباً وعملاً صالحاً.

الأمر الثاني: الذي يشير إليه ضَرْب مثلِ الكلمة الطيبة في القلب كمثل الشجرة في الأَرض، هو أَن الزروع والأَشجار قد يَجتمع حولها عُشب فيه دغل ونبات غريب عنها، ليس من جنسها، فإِنْ تعاهدها صاحبُها وَقَلع تلك النباتات الغريبة، والحشائش الضارة، وأَبعدها عنها، قويت الشجرة وتمَّ نباتها، واستوت على سوقها، وكان ذلك أَوفر لثمرتها وطيبها، وإِنْ ترك الحشائش والنباتات الضارة أَوشك أَن تتغلَّب على الشجرة فتحيطَ بها، وتتشبَّكَ بأَغصانها فتُضعفَ من نموها، وتُفسدَ ثمراتها، وتُلحق بها أَضراراً كبيرة، وذلك نتيجة إِهمال صاحبها.

وكذلك شجرةُ الإيمان في القلب إذا لم يتعهدْها صاحبها فيحافظ عليها منَ الأَهواءِ الضالة، والشهوات الضارةِ، فإن شجرة الإِيمان تضعف وتنقص ثمراتها، وربمَا يَبِسَتْ على تمادي الزمان.

وقد نبَّه الله تعالى عباده إلى خطر هذين الداءَين: داءِ الأَهواءِ الضالة التي تنشأُ عنها الشبهات الباطلة، وداءِ الشهوات الضارة المجاوزة حدودَ الشريعة، فقال سبحانه: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ

كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

ففي هذا تحذيرٌ لهذه الأُمة مما هلكتْ فيه الأُمم السابقة: الشهواتِ المفرطة الضارة التي استمتعوا بها ، ومخاضات الشبهاتِ والأَهواءِ التي خاضوها.

روى الإمام أَحمد والبزار ، والطبراني في (الثلاثة) عن أَبي بَرْزَةَ رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إنما أَخشى عليكم شهواتِ الغَيِّ من بطونكم وفروجكم ، ومُضِلاَّتِ الهوى».

الأمر الثالث: هو الذي يشير إِليه قوله تعالى: ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ ففي هذا تنبيه إِلى أَن فروعَ شجرةِ الإيمان في القلب وثمراتها هي على حسب ثبوت أَصلها في أَرض القلب ، ورسوخها وتمكُّنِها فيه ، فكلما ثبتَ أَصلُها ورَسَخ ؛ كلما عَلا فرعُها ونما ثمرها وكثر . فعلى المؤمن أَن يتعهد شجرة الإِيمان فيما يمكِّنها ويقوِّيها دائماً ، وذلك بالمواظبة على أَوامر الله تعالى ، والبعد عن ما نهى عنه ، والإِكثار من ذكره سبحانه.

روى الإِمام أَحمد بإِسناد حسن ، عن أَبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «جَدِّدوا إِيمانكم».

قيل: يا رسول الله وكيف نجدد إيماننا؟.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «أَكْثِروا من قول: لا إِلٰه إلا الله»(١).

الأمر الرابع: وهو الذي يشير إليه قوله تعالى: ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ وهذا فيه البشارة وفيه النِّذارة.

فيه البشارة لمن كَثُرت أَقواله الطيبة وأَعماله الصالحة، وتوالت مستمرة، يؤدي كل وقت حقَّه الذي يطالبه به شرع الله تعالى في الليل وفي النهار، فكلامه الطيب يصعد إلى الله تعالى، وأَعماله الصالحة تُرفع إلى الله تعالى دائماً؛ وبذلك يُذْكَر في الملإ الأَعلى ويُثني الله تعالى عليه، ويُباهي به الملائكة الكرام، وينال الرضوان من الرحمن، وتسجل تلك الكلمات الطيبة والأَعمال الصالحة في كتاب الأَبرار، قال الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾، فالهناءَة والبشارة العظمىٰ والفرحة الكبرىٰ لمن فاز بذلك.

والنِّذارة والخيبة لمن ضَعُفَتْ شجرة إيمانه، فضعفتْ ثمراتُها، فليس له من الكلم الطيب والعمل الصالح إلا النزر القليل، لأَنَّه آثر الدنيا على الآخرة، وصَرَف نشاطَه الأَكبر وقوةَ عزائمه وهممِه في جمع حُطام الدنيا الفانية، وشَغَل عقله ومداركه في الإكثار من أَموال الدنيا والمكاثرة بها، وأَغفل جانبَ الدين والآخرة، ولم يُقدِّم لتلك الحياة الأَبدية ما يُسعده فيها من أَقوال طيبة وأَعمال صالحة، قال الله تعالى: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ

---

(١) ورواه الطبراني كما في (ترغيب) المنذري.

﴿ ... حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾
وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ
يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴾ الآيات الكريمة.

يتمنىٰ في ذلك اليوم أن يكون قَدَّم لحياته في تلك الدار الآخرة الباقية الأبدية، كما قدَّم في الدار الدنيا المؤقتة الفانية.

فاعتبرْ أَيها العاقل، وأَعِدَّ العُدَّة، وتزوَّدْ لدار البقاءِ، قال تعالى: ﴿ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾.

اللهم اجعلنا منهم.

وفي هذا المثل الوارد في الآية الكريمة من المعاني والمفاهيم والتنبيهات، ما يعجِز الإنسان عن استقصائه، فثمراتُ شجرةِ الإيمان في القلب هي الكلم الطيب والعمل الصالح، وهما كريمان على الله تعالى، ولهما كرامتهما عنده في الملإِ الأَعلى، ولذلك يُرفعان إلى الله تعالى.

قال الله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ الآية.

وإِليك بيانَ بعض معاني هذه الآية الكريمة، مستعيناً بالله تعالى، وراجياً منه السداد في القول، والإخلاص في النية، والتوفيق للصواب الذي يحبه سبحانه ويرضاه.

* * *

حول آية:

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ الآية الكريمة

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ﴾ هذا بيان مِنَ الله تعالى وإعلان لجميع العقلاءِ ذوي الإِرادات السامية ، وأُولي الهمم العالية ، الطامِحين إلى العزة والكرامة ، والمترفعين عن المذلة والمهانة ، يَعرِض الله تعالى في هذا الإعلان عَرْضاً فيه تحريض وتشويق ، للمسارعة إلى هذه العروض ، والمسابقة في مَيْدان الظَّفَر به ، فيقول سبحانه: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾ فيُنَشِّط الهمم ويحرك العزائم نحو إرادة العزة والسعي في تحصيلها ، ويُبيِّن لهم أَنهم مهما بذلوا جهودهم للحصول عليها عند غير الله تعالى لا يجدونها ، فإِنَّ العزة لله جميعاً ، فَلا يظفرون بِها ، ولا يَحْصُلون عليها إلا بِحُبِّه والتقرب إليه ، فإذا تقربوا لرب العزة أَظَلَّهم بظلال العزة ، وحفاهم بحفاوة الكرامة.

ثم بيَّن لهم طريق التقرُّبِ إليه فقال: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ والمعنى: أَنَّ مَنْ أَراد العزة حقاً فليطلبها مِمَّنْ له العزة جميعاً ، وهو الله رب العزة والجلال ، فإذا سأَل عن السبيل الموصلة إلى العزة ، فالسبيلُ إلى ذلك هو التقرُّب إليه سبحانه ، بما شرع من الكلم الطيب والعمل الصالح ، فَإِنَّ الكلم

الطيب والعمل الصالح يُقَرِّبان العبدَ إلى الله القوي العزيز ، وَهُمَا كريمان عند الله تعالى ، لهما شأن كبير ومقام عزيز ، يُرْفَعانِ إلى ديوان عِلِّيين للرَّقْم والتسجيل ، وبذلك ينالون الكرامة والشرف؛ لتسجيلهم في سجلِّ الشرف.

وكتابُ عليين هو عند سِدرة المنتهى التي تنتهي إليها أَعمال العباد ، التي ترفعها الملائكة عليهم السلام ، كما جاءَ ذلك عن السلف الصالح ، وقد دلَّ على ذلك عموم ما جاءَ في الحديث الذي رواه الإمام أحمد وغيره ، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: لما أُسْرِيَ برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم انتُهِيَ به إلى سِدرة المنتهىٰ ، وهي في السماءِ السابعةَ ، ينتهي إليها ما يَعرُج من الأَرض ، فيقبض منها ، وإليها ينتهي ما يهبط من فوقها ، فيقبض منها.

ثم إنَّ الأَقوال الطيبة والأَعمال الصالحة تجتمع وهي متمثلة بأَمثلة نورانية ، ويتعاطَفْنَ عند عرش الرحمن ، يُذكِّرن بصاحبهن ويَشفَعْنَ به ، ويدلُّ على ذلك ما رواه ابن ماجه ، عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنَّ مما تذكرون من جلال الله: التسبيحَ والتهليلَ والتحميد ، ينْعَطِفْنَ حول العرش ، لهنَّ دويٌّ كدويِّ النحل تُذكِّر بصاحبها ، أَما يُحبُّ أَحدكم أَن يكون له ـ أو لا يزال له ـ مَن يذكِّر به».

ورواه الإمام أَحمد بلفظ: «أَلا يحبُّ أَحدكم أَن لا يزال له عند الله شيءٌ يذكِّر به».

قال المنذري: ورواه ابن أَبي الدنيا ، والحاكم وقال: صحيح

على شرط مسلم . وسيأتي الكلام عليه إنْ شاءَ الله تعالى .

والآن نعود إلى قوله تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ .

العز : مضاد للذل ، قال تعالى : ﴿ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ، فلا سبيل لنيل العز الحقيقي الدائم في الدنيا وفي الآخرة إلا بالتقرب إلى الله تعالى الذي هو رب العزة ، ولا يُتقرب إليه إلا بما شرع من الأقوال والأعمال على لسان رسوله الكريم صلى الله عليه وآله وسلم .

قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

روى الحاكم في (التاريخ) والديلمي ، وابن عساكر ، عن أَنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنَّ الله تعالى يقول كل يوم: أَنا ربكم العزيز ، فَمن أَراد عِزَّ الدارين فليُطِعِ العزيز»[1] .

وروىٰ الحاكم وقال: صحيح على شرطهما ، عن طارق قال: خرج عمر رضي الله عنه إلى الشام ومعنا أبو عبيدة رضي الله عنه ، فأَتَوْا على مخاضة ـ أَي: مجتمع ماءٍ ـ وعمر على ناقة له ، فنزل وخلع خفيه فوضعهما على عاتقه ، وأَخذ بزمام ناقته فخاض ، فقال أَبو عبيدة: يا أَمير المؤمنين أَنت تفعل هذا! ما يَسُرُّني أَن أَهل البلد استشرفوك ـ أي: هم ينظرون إليك ـ .

فقال عمر: أَوَّه ، ولو يقول ذا غيرك يا أَبا عبيدة لجعلتُه نكالاً

---

(١) انظر (الدر المنثور).

لأُمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، إِنَّا كنا أَذَّل قومٍ فأَعزنا الله بالإسلام ، فمهما نطلبُ العز بغير ما أَعزنا به أَذلنا الله».

وعن ابن عمر رضي الله عنهما ، أَن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «بُعِثْتُ بين يَدَيِ الساعةِ بالسيف[1] ، حتى يُعبد الله تعالى وحده لا شريك له ، وجُعل رزقي تحت ظلِّ رُمْحي ، وجُعِل الذلُّ والصَّغار على من خالف أَمري ، ومن تشبَّه بقوم فهو منهم». رواه أَحمد ، والطبراني ، وابن أَبي شيبة ، والبيهقي وغيرهم.

فمن ابتغى العزة من عند غير الله تعالى أذله الله تعالى ، قال تعالى: ﴿ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ .

روى الحكيم الترمذي ، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرفوعاً: «من اعتز بالعبيد أَذله الله تعالى».

وقال تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ .

وأَمَّا العزة التي يتصف بها أَعْداءُ الله تعالى فهي خيال العزة الموهومة المزعومة عندهم ، فإِنهم يَتَعَزَّزون بذلك الخيال الذي لا حقيقة له ، قال تعالى: ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ أَي: في تعزُّز ومشاقَّة للمؤمنين ، ومن هذا قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ

---

(١) وهذا بعد دعوتهم إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجدالهم بالتي هي أحسن ، حتى لا يبقى لهم حجة ، لأنهم وَضَحَت لهم المحجة ، وقامت عليهم الحجة ، فبقاؤهم على كفرهم ما هو إلا جحود للحق بعد ما عرفوه؛ تكبراً وعناداً وظلماً وفساداً ، وفي قطع العضو الفاسد الذي لا فائدة في معالجته سلامة لبقية الأعضاء.

﴿أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾ أي: راح يتعزَّز بالإثم الذي هو باطل وهو ضارٌّ له، غير نافع ﴿كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً﴾، فيسعى إليه ظاناً أنه ماءٌ نافع وعذب فرات ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ لا شَيْئِيَّة له في الخارج، وإنما هو الخيال الموصل إلى الخيال.

ولا ريب أن العزة الحقيقية تستلزم القوة والغلبة.

قال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ فقَرن بين العزة والقوة، ومن هذا قوله صلى الله عليه وآله وسلم لخالد بن الوليد رضي الله عنه لما شكى إليه وَجَعاً في جسده قال له: «ضَعْ يدَك على ما تَألَمُ من جسدك وقل: بسم الله ـ ثلاثاً ـ ثم قل: أعوذُ بعزةِ الله وقدرته من شرِّ ما أَجِدُ وأُحاذِرُ ـ سبع مرات ـ».

فكما أَنَّ العزة كلها لله تعالى، كذلك القوة كلُّها لله تعالى، ومَنْ كانت عزتُه بالله فقوته بالله تعالى، قال تعالى: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾.

وقد يَقترن اسم العزيز بالرحيم، ليبيِّن لعباده سبحانه أَنه عزيز رحيم، وليس بعزيز ظالم، كما أَنه سبحانه كثيراً ما يَقرن اسم العزيز بالحكيم، ليبين لعباده أن عزته سبحانه المستلزمة لقوته وغالِبيَّتِـهِ على غيره ـ في تصرفاته في خلقه ـ فإن ذلك كله بالحكمة لا بالعبث ولا الباطل، بل هو الحكيم الذي يضع الأُمور في مواضعها اللائقة بها.

فبعزته يقهر وينتقم ممن يستحق ذلك، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾، وبعزته يرحم كُلَّ

من هو أَهل لذلك ، قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فَمَنْ توكل على الله تعالى فقد اعتمد واستند إلى عزيز غالب قوي لا يُغلَب ، ورحيم بمن توكل عليه ، بل هو أَرحمُ بنفسه من نفسه ، وإن العبد إذا توكَّل على ربه سبحانه فقد أَيقن أَن ربه رحيم به ، ولذلك فوَّض إليه ، بل أَيقن أَنه سبحانه أَرحم به من نفسه ، ولذلك خرج مِن اعتماده على نفسه واعتمد واتكل على ربه ، فلابد وأَن يرحمه الله تعالى.

والكلام على اسم الله العزيز وما يدل عليه أَيضاً من معاني التنزيه والتقديس إلى ما وراءَ ذلك ـ الكلام على ذلك واسع ، ولعل الله تعالى يجعل لنا عودة إلى البحث فيه ، وفي بقية الأسماءِ الإلَهية.

ولنرجع الآن إلى الآية الكريمة:

قال الله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ أَي: يرفعه الله تعالى إليه ، كما جاءَ في (صحيح) مسلم ، عن أَبي موسى رضي الله عنه قال: قام فينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بخمس كلمات فقال: «إنَّ الله تعالى لا ينام ولا ينبغي له أَن ينام ، يَخْفِضُ القِسْطَ ويَرفعه ، يُرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار ، وعمل النهار قبل عمل الليل ، حِجابُه النورُ ، لو كشفه لأَحْرَقَتْ سُبُحاتُ وجهِهِ ما انتهى إليه بصرُه مِن خلقه».

فإليه يصعد الكلم الطيب ، وإليه ترفع الأَعمال الصالحة ، وذلك بواسطة الملائكة عليهم السلام كما سيأْتي تفصيله.

وقد قال كثير من السلف في معنى الآية: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ

يَرۡفَعُهُۥ﴾: إن العمل الصالح يَرفعُ الكلمَ الطيب ، فهذا المعنى داخل في المعنى الأول ، وهو أن الله تعالى يرفع العمل الصالح إليه ، كما دلت على ذلك الأحاديث النبوية الصحيحة الصريحة التي ستأتي معنا في بيان مراتب رفع الأعمال إن شاءَ الله تعالى.

فليس العملُ الصالح أَدَاةَ رفعٍ للكلم الطيب فحسبُ ـ كما قد يُتَوهم ـ بل العمل الصالح مرفوعٌ بالذات أَيضاً ، يرفعه الله تعالى إليه بواسطة الملائكة عليهم السلام ، ويرفع به الكلم الطيب الذي فيه تعبيرٌ عن ذلك العمل الصالح ، ليدل عمله الصالح على صدق قوله ، فيكون من الذين يقولون ويفعلون مقتضى ما يقولون ، ولا يكونَ من الذين يقولون ما لا يفعلون.

والآن ننتقل إلى البحث في الكلم الطيب وصعوده ، ثم البحث في العمل الصالح ورفعه.



الكَلِمُ الطَّيِّبُ

أَما الكلم الطيب: فهو ما أَثمرته الكلمة الطيبة التي غَرَسها الله تعالى في قلب عبده المؤمن ، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ الآية.

وهذه الكلمة الطيبة هي: **لا إلَه إلا الله فَمَثَلُها** في القلب كمثل شجرة النخلة في الأَرض ، ومِنْ ثمراتها الكَلِمُ الطيب ، وهذا يشمل: تلاوة القرآن الكريم ، والتسبيحَ والتحميد والتهليل والتكبير ، والصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، والاستغفار ، وسائر الأَذكار الإلَهية والدعوات ، فإنها ثمرات شجرة الإيمان التي نواتُها وأَصلُها لا إلٰه إلا الله المغروسة في قلب المؤمن ، وبذلك صار القلب كَرْماً مثمراً مُخْصِباً.

كما جاءَ في (الصحيحين) عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لا تُسَمُّوا العِنَبَ الكَرْمَ ، إِنَّما الكَرْم قلبُ المؤمن» ، **وإنَّما وصفت هذه الكلمة لا إلٰه إلا الله بأَنَّها الكلمة الطيبة:**

لأَن مدلولها والموصوف بها هو الله تعالى الملك القدوس الطيب ، قال صلى الله عليه وآله وسلم: «إِن الله تعالى طيِّبٌ لا يقبل إلا طيباً» الحديث ، رواه مسلم.

والمعنى: أَنَّ الله سبحانه وتعالى متصف بالمحامد والكمالات

المطلقة على وجه لا يشاركه فيها أَحد ، كما أَنه سبحانه مُقَدَّس في ذاته وصفاته وأَسمائه عن العيوب والنقائص كلها ، وفي الحديث الذي رواه الترمذي ، عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إِنَّ الله طيبٌ يُحبُ الطِّيب ، نظيف يحب النظافة ، جَواد يحب الجود».

فهو سبحانه طيب وكلامه طيب ، كما في الحديث الذي رواه أَبو داود ، أَن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لبلال رضي الله عنه: «وقد سمعتُك يا بلالُ وأَنت تقرأُ من هذه السورة ، ومن هذه السورة».

فقال بلال رضي الله عنه: كلامٌ طيِّب يجمع الله بعضَه إلى بعض.... الحديث.

وقد وعد الله تعالى المؤمنين الذين يعملون الصالحات بالحياة الطيبة ، فقال: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ ، فهم الطيبون على الحقيقة ، وإِنما نالوا ذلك بسبب أَنهم طابوا اعتقاداً وعملاً وقولاً ، وطابتْ قلوبهم وعقولهم وأَرواحهم وأَشباحهم ، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ﴾.

وتقول لهم الملائكة عند الموت: أُخْرُجِي أَيتُها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب:

كما جاءَ في (مسند) أَحمد ، عن أَبي هريرة رضي الله عنه أَن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن الميت تَحْضُره الملائكة ، فإِذا كان الرجل الصالح قالوا: أخرجي أَيتها النفس الطيبة كانت في

الجسد الطيب، اُخرجي حميدةً، وأَبْشِري برَوْحٍ وريحان، وربٍّ غير غضبان، قال: فلا يزال يُقال لها حتى تَخرج، ثم يُعْرَجُ بها إلى السماء، فيُسْتَفْتَح لها فيقال: مَنْ هذا؟ فيقال: فلان، فيقال: مرحباً بالروح الطيبة كانت في الجسد الطيب، اُدخُلي ـ أي: اُدخُلي السماءَ ـ حميدةً، وأَبشري برَوْحٍ وريحان، وربٍّ غير غضبان، قال: فلا يـزالُ يُقال لها ذلك» وفي روايـة في (المسند) عن البراءِ بن عازب رضي الله عنه: «حتى يُنتَهَى بها إلى السماء السابعة».

فإذا كان يوم القيامة، وأَقبلوا على أَبواب الجنة تلَقَّتْهُمُ الملائكة الكرام عليهم السلام بالتحية والترحيب، بأَوصاف كمال الطيب.

قال تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾.

فيدخلون جنةً طيبـةَ التربـةِ عذبـةَ الماءِ:

كمـا جـاءَ فـي الحـديـث الـذي رواه الترمـذي وغيـره، عـن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لقيتُ ليلة أُسْرِيَ بي إبراهيمَ عليه السلام فقال لي: يا محمد، أَقْرِىءْ أُمتَكَ مني السلام، وبشِّرْهُمْ أَن الجنة طيبةُ التُّربةِ عذبةُ الماءِ، وأَنها قِيعانٌ، وأَنَّ غِراسَها: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أَكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم».

ثم إنهم يُنْزَلون في مساكنَ طيبةٍ، قال تعالى: ﴿وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

وينعمون في ظلال أشجار طُوبى:

روى ابن حبان في (صحيحه) عن أَبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أَنه قال له رجل: يا رسول الله ما طُوبى؟

قال: «شجرة مسيرةُ مائة سنة، ثيابُ أَهلِ الجنة تخرج من أَكمامها».

ولا يزالون يزدادون حُسناً وطيباً:

روى ابن أَبي الدنيا، عن أَبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «أَرض الجنة بيضاءُ، عَرْصتُها ـ ساحتها الواسعة ـ صخور الكافور، وقد أَحاط به المسك مِثل كُثْبانِ الرمل، أَنهارٌ مُطَّرِدَةٌ، فيجتمع فيها أَهل الجنة أَدناهم وآخِرُهم فيتعارفون، فيبعث الله ريح الرحمة، فتُهيِّج عليهم ريح المسك، فيرجع الرجلُ إِلى زوجته وقد ازداد حسناً وطيباً، فتقول له: لقد خرجتَ من عندي وأَنا بك معجَبة، وأَنا بك الآن أَشدُّ إِعجاباً».

وهكذا حال المؤمنين يتقلبون في أَنواع الطيب والطيبات، لأَنهم طابوا قلوباً وأَرواحاً وأَشباحاً، وظاهراً وباطناً، وخَلْقاً وخُلُقاً، اللهم اجعلنا منهم برحمتك يا أَرحم الراحمين.

فالطِّيب توصف به: الاعتقادات، والأَعمال، والأَقوال والأَموال، والأَرواح والأَشباح.

فهناك كلام طيب وهناك كلام خبيث، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ﴾ ثم قال تعالى: ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ﴾.

وقال تعالى في عباده المؤمنين: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ أَي: القول الطيب المتفرِّع عن الكلمة الطيبة لا إِلٰه إِلا الله من تسبيح وتحميد وتكبير، وثناءٍ علىَ الله تعالى بأَسمائه وصفاته إِلى غير ذلك.

وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وآله وسلم أَنه قال: «فاتَّقُوا النارَ ولو بِشِقٍّ تمرة، فمَنْ لم يَستطعْ فبكلمة طيبة».

وهناك **أَعمال طيبة**، وفي الحديث: «اللهم إِني أَسألك فعل الخيرات» وفي رواية: «اللهم إِني أَسأَلك فعل الطيبات»، كما سيأْتي بيانه إِن شاءَ الله تعالى.

وعن أَبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «مَن عاد مريضاً ناداه منادٍ من السماءِ: طِبْتَ وطابَ مَمْشاك، وتَبَوَّأْتَ من الجنة منزلاً» رواه الترمذي وحسنه، وابن ماجه واللفظ له، وابن حبان في (صحيحه) ولفظه: عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إِذا عاد الرجل أَخاه أَو زاره قال الله تعالى: طِبْتَ وطابَ مَمْشَاكَ، وَتَبَوَّأْتَ منزلاً في الجنة».

وفي حديث التشهد: «التحيات لله والصلَوات والطيبات» أي: طيبات الأَقوال والأَعمال.

وهناك **الأَموال الطيبة** والأَموال الخبيثة، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ الآية.

فالمؤمن كله طيِّب، طاب قلبه بما كُتِب فيه من الإِيمان والتصديق، وطاب لسانه بالكلمة الطيبة، والكلماتِ الطيبات المتفرعة عنها من الأَذكار الإِلَهية، وطابت جوارحه بالأَعمال

الصالحة المتفرعة عن شجرة الإيمان.

أَلا وإِنَّ أَطيبَ الطَّيبين ، وأَطهرَ الطاهرين هو إِمام الأَنبياءِ والمرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم أَبو الطيب ، فهو صلى الله عليه وآله وسلم أَطيبُ مِنْ كل طَيِّب ، ومطيِّبٌ لكل طيِّب بهديه وكتابه الذي جاءَ به ، وهو أَبو الطيب صلى الله عليه وآله وسلم ، ومدينته طيبة وطابة.

اللهم طيِّبنا بطِيبه ، واهدنا بهديه ، واسلك بنا سبيله ، ووفقنا لاتباعه حتى نكون من زمرة: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ ﴾ اللهم آمين.

* * *

العَمَلُ الصَّالِحُ

والعمل الصالح هو ما تَصلُح به النفس ، فيكون صاحبها عبداً صالحاً غيرَ فاسد ، وبه يصلُح العبد لأَنْ يُعرَض على ربه وهو عنه راضٍ ، وبالعمل الصالح يصلح العبد لمراتب القرب والحبِّ الإلٰهي ، والودِّ والمباهاة والثناءِ عليه في الملإِ الأَعلى.

قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ .

وفي الحديث عن عمر رضي الله عنه مرفوعاً وموقوفاً: «حاسِبوا أنفسَكم قبل أَن تُحاسَبوا ، وَزِنُوا أنفسَكم قبل أن تُوزَنوا ، وتَزَيَّنوا للعرض الأَكبر: يومئذ تُعْرَضون لا تخفى منكم خافية» أي: تزينوا بالأَقوال الصالحة والأَعمال الطيبة ، فإِن العمل الصالح يصلُح به الإِنسان: ظاهره وباطنه ، وسريرته وعلانيته.

روى الترمذي ، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أَنه قال: علَّمني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «قل: اللهم اجعلْ سريرتي خيراً من علانيتي؛ واجعلْ علانيتي صالحة ، اللهم إني أَسأَلك من صالح ما تؤتي الناس من الأَهل والمال والولد غيرِ الضَّالِّ ولا المُضِلِّ».

كما أن العمل الصالح يَجعل صاحبه صالحاً ، وأَهلاً للمراتب العالية والدرجات الرفيعة عند رب العزة والجلال ، فبالعمل

الصالح يصلح العبد لمنزلة القرب من حضرة الرب ، فيكون صالحاً أَهلاً للحب والودِّ ، قال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ وسيأْتي بيانه قريباً إِن شاءَ الله تعالى.

الصلاح ضد الفساد:

والصلاح في الأَصل هو ضدُّ الفساد ، قال تعالى : ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾ ، والمعنىٰ: لا تُفسدوا في الأَرض بالإِصرار على المعاصي ، والتمادي في مخالفة أوامر الله ، ومجاوزة الحدود التي حدَّها الله تعالى ، بعد أَن أَصلح الله تعالى الأَرضَ بِبَعْثهِ الرسلَ ، وإِنزالهِ الكتبَ الإِلٰهية التي فيها بيان سُبُل الصلاح والفلاح ، والفوز والنجاح.

ومن المعلوم الذي لا شك فيه أَن صلاح المَصْنَع هو العمل فيه حسبَ تعاليم الذي صَنَعه واخترعه ، ومَنْ تصرَّف فيه خلافَ ذلك وعَبَثَ فيه فقد أَفسد المصنع ، وهذا العالَمُ الكبير هو خَلْقُ الله تعالى ، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾ ، وصُنْعُهُ ، قال تعالى: ﴿صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ﴾ الآية ، وقد هدانا لنظام العمل فيه ، وذلك بما شَرَعه لنا ؛ ففيه الصلاح والإِصلاح ، وبذلك تكون الأَرض صالحةً وأَهلها مصلحون.

قال تعالى : ﴿أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ﴾ ، والمعنى: أَن الله تعالى هو الحَكَم العَدْل العليم الحكيم ، فمِنْ شأْنه أَن لا يساوي بين الأَضداد ، فلا يساوي بين الصالحين والمفسدين ، ولا بين الفجار والمتقين ، قال

سبحانه: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ .

إذن لا بد من يوم آخِر ، أَلا وهو يوم القيامة ، ليَجْزِيَ الذين أَساؤُوا بما عملوا ، ويَجْزي الذين أَحسنوا بالحسنىٰ ، ويَجزي الصالح ويُكرمَه ، وينتقمَ من المفسد ويُعاقبَه ، لأَنه سبحانه هو الملِكُ الحق ويقضي بالحق ، فلا بدَّ أَن يحكم بين عباده بالحق ويقضي بالحقِ ، قال تعالى: ﴿ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ ، ففي جميع الآيات السابقة قوبل الصلاح بالفساد.

وفي (الصحيحين) عن النعمان بن بَشير رضي الله عنه ، أَن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال في الحديث: «أَلا إنَّ في الجسدِ مُضغةً إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الجسدُ كلُّه ، وإِذَا فَسَدَتْ فسد الجسدُ كلُّه أَلا وهي القلب».

فإذا صلح القلب بالإيمان بالله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، ومحبته اللهَ تعالى ورسولَهُ صلى الله عليه وآله وسلم: صَلَح الجسد بأَعضائه وجوارحه في تحرُّكاتها وتقلُّباتها نحو طاعة الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، ونَهَضَتْ ونَشِطت إلى الأَعمال الصالحة التي فيها رضا الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

وإذا فَسَدَ القلب بالكفر والشُّبَه والشكوك ، استولى عليه الهوى والميلُ نحو المحرمات والمفاسد ، وبذلك تَفْسُد الجوارح والأَعضاءُ ، وتتحرك نحو المعاصي والفواحش والمنكرات.

ومن ثَم تظهر لك وجوه الحكم في اقتران الأعمال الصالحة بالإيمان في كثير من الآيات القرآنية ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ ، وقال سبحانه : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ . . . . ﴾ إلى آيات كثيرة في هذا الشأن ، وذلك لأن الأعمال الصالحة دليل على صلاح القلب ، وهي الشاهد على صحة الإيمان في القلب ، فاقتران الأعمال الصالحة بالإيمان كاقتران الدليل والمدلول ، والبينة والدعوى ، وكاقتران الفروع بالأُصول ، فإذا رأينا فروع الشجرة أيقنَّا بوجود أُصولها ، ولو كانت مغيبة في بطن الأرض .

فالأعمال الصالحة هي حججٌ وبراهينُ على صدق إيمان صاحبها ، يدل على ذلك ما جاءَ في (مسند) أحمد وغيره ، عن ابن عمر رضي الله عنهما ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه ذكر الصلاة يوماً فقال : «مَنْ حافظ عليها كانت له نوراً وبرهاناً ونجاةً يوم القيامة ، ومن لم يحافِظ عليها لم يكن له نورٌ ولا برهان ولا نجاة» الحديث .

وقد جاء في حديث مسلم ، عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال في حديثه : «والصلاةُ نورٌ ، والصدقة برهانٌ ، والصبر ضياءٌ ، والقرآن حجةٌ لك أو عليك» الحديث ، فالزكاة برهان على صدق إيمانِ المزكِّي .

محتويات الصالحات :

ثم إن قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ وبقية الآيات التي يَذكُرُ الله تعالى فيها الصالحات بعد الإيمان هي أنَّ

الصالحات جمع صالحة ، وهي في الأَصل مؤنث الصالح ، اسم فاعِل مِنْ صَلَح ، وأُجريت مُجرَى الأَسماءِ الجامدة في عدمِ جَريها على الموصوف وغيره ، وتأْنيثُها على تقدير الخِلال أَو الخِصال الصالحات ، وللغلبة تُرِكَ الموصوف المقدَّر(١) .

وبهذا يُعلم أَنَّ الصالحات تَشملُ الأَعمالَ الصالحةَ على مختلِف أَنواعها: الأَعمال الصالحة فيما بين العبد وربه: كما قال صلى الله عليه وآله وسلم في خطبته: «فأَكْثِروا ذِكْرَ الله ، واعْمَلوا لِما بعد الموت ، فَإِنَّه مَن أَصلحَ ما بينه وبين الله تعالى يَكْفِه الله ما بينه وبين الناس ، وذلك بأن الله يقضي على الناس ولا يقضون عليه ؛ ويَملِكُ من الناس ولا يَملِكون منه ، والله أَكبر ولا قوةِ إِلا بالله العلي العظيم» .

وتشمل الأَعمالَ الصالحة فيما بين العباد ، قال تعالى : ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ ﴾ .

ما يصلح به العمل:

إِنَّ صلاح العمل قائم على ركنين عظيمين:

أَحدهما: أَن يكون صواباً على هُدى ، وذلك بأَن يكون تابعاً لِما شرعه الله تعالى ، على لسان رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، قال تعالى : ﴿ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴾ ، والمعنى: إِنْ كنتم تَرجون الهدى إلى صواب العمل رجاءً محقَّقاً صحيحاً: فعليكم باتباع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وليس هناك سبيلٌ آخر

---

(١) انظر تفسير الآلوسي ١ : ٢٠١ .

تهتدون فيه لصواب العمل ، فكل عمل موافق لما جاءَ به صلى الله عليه وآله وسلم فهو صوابٌ ذو هدىً ، وكلُّ عمل مخالفٍ فهو جهل وضلال.

وقال سبحانه: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾.

ثانيهما: أَن يكون العمل خالصاً لوجه الله تعالى ، لا رياءَ فيه ولا سُمعَة ، قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ ، فمن راءَى بعمله فقد أَفسده بالشرك الخفي ، كما جاءَ في الحديث: عن زيد بن أَسلم ، أَنَّ عمر رضي الله عنه خرج إِلى المسجد فوجد معاذاً رضي الله عنه عند قبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يبكي.

فقال: ما يبكيك؟

فقال معاذ رضي الله عنه: حديثٌ سمعته من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «اليسيرُ من الرياءِ شِركٌ ، ومَنْ عادىٰ أَولياءَ الله فقد بارز الله بالمحاربة ، إِنَّ الله يُحبُّ الأَبرار الأَتقياءَ الأَخفياءَ ، الذين إِنْ غابوا لم يُفْتَقَدوا ، وإِنْ حَضَروا لم يُعرفوا ، قلوبُهم مصابيح الهدىٰ ، يَخرجون من كلِّ غَبراءَ مُظْلِمةٍ»(١).

وعن محمود بن لَبِيْد رضي الله عنه قال: خرج النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «يا أَيُّهَا النَّـاسُ إِيَّـاكُمْ وشِركَ السرائرِ».

قالوا: يا رسول الله وما شركُ السرائر؟

---

(١) قال المنذري: رواه ابن ماجه ، والحاكم ، والبيهقي في كتاب (الزهد) له ، وغيره ، وقال الحاكم: صحيح ولا علة له. ا هـ.

قال: «يقومُ الرجلُ فيصلي فيزيِّنُ صلاته جاهداً؛ لِمَا يَرى من نظر الناس إليه، فذلك شركُ السرائر»[1].

وعن محمود بن لَبِيْد رضي الله عنه، أَنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إِنَّ أَخوفَ ما أَخافُ عليكم الشركُ الأَصغر».

قالوا: وما الشركُ الأَصغر يا رسول الله؟

قال: «الرياءُ، يقول الله عز وجل إذا جزى الناس بأَعمالهم: اذهبوا إلى الذي كنتم تُراؤُون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاءً»[2].

وهذان الركنان اللذان ذكرناهما في صلاح العمل قد نبَّه الله تعالى إليهما عباده في قوله: ﴿ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾.

فإسلام الوجه إلى الله تعالى هو: الإخلاص له، وإحسان العمل هو: موافقته لشرع الله تعالى، النازل على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم. فإِنَّ الشرع الإلٓهي هو الذي يبيِّن للعاقل الحسن والقبيح، ويُنبِّهه إلى محاسن الحسن وقبائح القبيح، وَيُميز للعقلاءِ الخبيثَ من الطيب، فإِنَّ نور العقل وحده لا يَكشفُ للإِنسان عن حقائق الأُمور، وما هي عليه من الحُسن والقبح إلا إذا مشىٰ نورُ العقل على ضياءِ نور الشرع الإلٓهي، فهناك يَهتدي لمعرفة حقائق الأُمور، كما أَنَّ نور البصر لا يكفي صاحبه في رؤية الظاهرات

(١) قال المنذري: رواه ابن خزيمة في (صحيحه).
(٢) قال المنذري: رواه أحمد بإسناد جيد، وابن أبي الدنيا، والبيهقي.

المشهودة من الماديات؛ إلاَّ إذا مشى على ضياءِ نورٍ خارجي آخرَ كضوءِ الشمس أَو القمر ونحوهما من المنيرات.

فإذا عمل الإنسان عملاً مشروعاً يقال له: مُحسن، أي: لأنه عمل عملاً حسناً، قال تعالى: ﴿ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾ الآية.

وقد سئل العارف الكبير الفُضَيل بن عياض رحمه الله تعالى فقيل له: ما هو أَحسنُ العمل في قوله تعالى: ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾؟

فقال: أَخلَصُه وأَصْوَبُه.

قالوا: فما أَخلصه وما أَصوبه؟

قال: إنَّ العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يُقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل حتى يكون خالصاً صواباً. اهـ. كما نقله الحافظ ابن رجب الحنبلي.

والخالص هو ما كان لله تعالى وحده، والصواب هو أَن يكون موافقاً لما جاءَ به النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ومتى كان العمل كذلك فهو الصالح المقبول، قال سبحانه: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ قال ابن كثير: أَي: ممن اتقى الله في فعله ذلك. اهـ. وهذا بإِخلاص العمل وموافقته لما شرع الله تعالى.

ثم ذكر ما رواه ابن أَبي حاتم بإِسناده، عن ميمون بن حمزة قال: كنت جالساً عند أَبي وائل فدخل علينا رجل يقال له أَبو عفيف من أَصحاب معاذ بن جبل رضي الله عنه، فقال له شقيق بن سلمة: يا أَبا عفيف أَلا تحدثُنا عن معاذ بن جبل رضي الله عنه.

قال: بلى ، سمعت معاذاً رضي الله عنه يقول: يُحبس الناس ـ يوم القيامة ـ في بقيع واحد ، فينادي مناد: أَين المتقون؟ فيقومون في كَنَفٍ من الرحمن عز وجل لا يَحتجب الله تعالى منهم.

قلت: مَن المتقون؟

فقال: قوم اتَّقَوُا الشركَ وعبادةَ الأَوثان ، وأَخلصوا العبادة ـ أي: لله تعالى ـ فيمرُّون إلى الجنة ـ أي: سابقين سالمين ـ. اللهم اجعلنا منهم بفضلك ورحمتك آمين.

ومن أَجل ذلك كان هَمُّ عبادِ الله الصالحين ، ومنتهى رغبة المقربين السابقين أن يَتَقَبَّل الله تعالى منهم عملَهم ، كما أَخبرنا الله تعالى عنهم في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾.

وقد بيَّن صلى الله عليه وآله وسلم معنى هذه الآية ، حين سألته السيدة عائشة رضي الله عنها ، كما جاءَ في (سنن) الترمذي عن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: قلت يا رسول الله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ أَهم الذين يَشْربون الخمر ويَسرقون؟

قال: «لا يا بنت الصديق ، ولكنْ هُمُ الذين يصومون ويصلون ويتصدَّقون ويخافون أَن لا يُقْبَل منهم».

وهؤلاء هم السابقون كما أخبر الله تعالى ، فهم يخافون أن لا تُقبل منهم أعمالهم لتقصيرهم في أَداءِ الأَعمال ، أو لتقصيرهم في إخلاصهم الأَعمال ، لِعِلْمِهِم وإيمانِهم الحقيقيِّ بأَن الناقد بصير ، وأن المحاسِب هو العليم الخبير ، الذي يعلم السرَّ

وأَخفى ، والذي يعلم خائنةَ الأَعين ، وما تُخفي الصدور ، والذي يعلم ما في خفايا النفوس وسرائرها ومكنوناتها ، كما قال تعالى: ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ﴾ .

روى ابن أبي حاتم بإسناده ، عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه كان يقول: لَأَنْ أستَيْقنَ أن الله تعالى قد تقبَّل لي صلاةً واحِدة أحبُّ إليّ من الدنيا وما فيها(١) .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن فَضالةَ بن عُبَيد رضي الله عنه قال: لأن أكونَ أعلمُ أن الله تقبَّل مني مثقالَ حبّة من خردل أحبُّ إليّ من الدنيا وما فيها ، فإن الله تعالى يقول: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ .

وأخرج ابن أَبي شيبة عن ثابت قال: كان مُطرِّف يقول: اللهم تقبلْ مني صيام يوم ، اللهم اكتب لي حسنة ، ثم يقول: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ .

وأخرج ابن عساكر عن هشام بن يحيى ، عن أبيه قال: دخل سائلٌ على ابن عمر رضي الله عنهما فقال لابنه: أَعطه ديناراً ، فأعطاه ، فلما انصرف قال ابنه: تقبل الله منك يا أَبتاه.

فقال ابن عمر: لو علمتُ أَن الله تقبَّل مني سجدةً واحدة ، أو صدقةَ درهمٍ لم يكن غائبٌ أحبَّ إليّ من الموت ، تدري ممنْ يتقبّل الله يا بنيّ؟ ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾(٢) .

وأخبار السلف الصالح رضي الله عنهم في ذلك كثيرة وشهيرة.

---

(١) انظر تفسير ابن كثير.

(٢) انظر ذلك في (الدر المنثور) وغيره.

وينبغي أن يُعلَم أن هذا القبول الذي يبغونه ويخافون فواته هو القبول الصادر عن محبةِ الله ، ورضاه عن العامل ، ورضاه بعمله المستلزِمِ مدحَ الله تعالى والثناءَ عليه في الملإِ الأعلى ، ومباهاةَ الملائكةَ عليهم السلام به ، وذلك يستلزم لزوماً أوّلياً رفعَ ذلك العمل إلى الله تعالى ، ونيلَ صاحبِه الأجرَ والثوابَ المضاعفَ عليه ، وهو القبول الكامل الذي يرجوه من الله تعالى عباده الصالحون.

والقبول بهذا المعنى هو المشار إليه في الحديث الذي رواه ابن أبي شيبة ، عن الحسن قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله لا يقبلُ عملَ عبدٍ حتى يَرضَى عنه»[١].

وقد يُطلق القبول ويراد به سقوط الفرض والواجب من الذمة فحسب ، فالقبول له معنيان[٢] كما قلنا.

يدلنا على المعنى الأول ما رواه أبو داود وابن ماجه ، عن ابن عمر رضي الله عنهما ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «ثلاثة لاَ يقبلُ الله منهم صلاةً: الرجل يؤمُّ قوماً وهم له كارهون ، والرجلُ لا يأْتى الصلاة إلا دِباراً - أي: بعد فوات الوقت أو آخره ، واتخذ ذلك عادة له ، كما في (فيض القدير) - ورجلٌ اعتبد محرَّراً» فلا تُقْبل صلاة هؤلاء ذلك القبول الكامل.

ويدلنا على المعنى الثاني ما رواه مسلم ، عن ابن عمر رضي الله

---

(١) انظر (الدر المنثور).
(٢) انظر كلام الحافظ ابن رجب الحنبلي في (جامع العلوم) وغيره من المحققين.

عنهما ، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لا يقبل الله صلاةً بغير طَهور ، ولا صدقة من غُلول».

فصلاةٌ بغير وضوءٍ غير صحيحة بل فاسدة ، لا يسقط بها الفرض ، أو الواجب من الذمة أصلاً . فالقبول المنفي في هذا الحديث هو غير المنفي في الحديث السابق.

فقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ يشير إلى القبول بالمعنى الأول ، ولهذا كان يشتدُّ خوفُ السلف على نفوسهم من هذه الآية ، فهم يخافون ألا يكونوا من المتقين الذين يتقبل الله منهم.

وسئل الإمام أحمد رضي الله عنه عن المتقين في الآية الكريمة فقال: يتقي الأَشياءَ فلا يقعُ فيما لا يحل له. ا هـ.

أقوى ما يحمل المسلم على إصلاح العمل والإخلاص فيه هو مراقبة الله تعالى:

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾.

إنَّ صلاح العمل وقبوله يقومان على أساسين عظيمين كما أَسلفنا: موافقتِه لما جاءَ به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، والإخلاص فيه؛ وأَقوى ما يحمل المسلم على ذلك هو مراقبة الله تعالى في أعماله وأقواله ، ولذا ترى أن الله تعالى لما أمر عباده بالتقوى المشتملة على امتثال أوامره واجتناب ما نهى عنه ، قرن ذلك بمراقبته عليهم لينتبهوا إلى ذلك ، قال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾.

والمعنى: فراقِبوا مراقبتَه عليكم في جميع ما تفعلونه وما تذرونه، وفي سائر ما تعملونه وما تتركونه، فإنَّه يعلم ما تُكِنُّون في أَنفسكم وما تقصدونه فاحذروه، قال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾ الآية.

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾.

كما أنه سبحانه وتعالى يسمع السرَّ والجهرَ على حدٍّ سواءٍ، ويرى المُسْتَتِرَ والباديَ على حد سواءٍ، قال تعالى: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾، فيرى المستخفيَ بظلمات الليل وفي المغارات المظلمة في جوف الليل، كما يرى الساربَ في ضوءِ النهار المتظاهرَ في مشيه.

كما أنه سبحانه يعلم خائنة الأعينِ وإشاراتها الخفية، وما تُخفي الصدور؛ كما يعلم ما بدا وظهر من مختلف الأُمور.

قال سبحانه: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

فبين سبحانه أَنه ما يتناجىٰ ثلاثةٌ ويُسِرُّون إلى بعضهم حديثاً بينهم إلا هو سبحانه رابعهم، ولا خمسةٌ إلا هو سادسهم، ولا أَدنى من ذلك: بأنْ كانتِ النجوى بين اثنين، ولا أكثرَ من خمسة فصاعداً إلا هو معهم أَينما كانوا، مَعِيَّةً تليق به سبحانه

وتعالى ، منزهةً عن شَبَه المخلوقات لأنه ليس كمثله شيءٌ جل وعز.

وإنما ذكر ذلك في كتابه العزيز ليكون العبادُ على يقين بذلك ، وَلِيُراعُوا تلك الآياتِ الكريمةَ حقوقَها ، فيكونوا منها على حذر وعلى مراقبة لله تعالى فيما يقولون ويفعلون.

روى الطبراني عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن أَفضلَ الإيمان أن تَعْلمَ أنَّ الله معك حيثما كنت»[1].

وروى الطبراني أيضاً عن أبي أُمامة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «ثلاثةٌ في ظل الله عز وجل يومَ لا ظِلَّ إلا ظلُّه: رجلٌ حيث توجَّه علم أن الله تعالى معه ، ورجلٌ دعتْه امرأة إلى نفسها فتركها من خشية الله ، ورجلٌ أَحَبَّ لجلال الله تعالى»[2].

وروى البزار في (مسنده) من حديث عبد الله بن معاوية العامري عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «ثلاثٌ مَن فَعلهُنَّ فقد طَعِمَ طَعْمَ الإيمان: مَنْ عَبَدَ الله وحده ، وعلم أَنَّه لا إله إلا الله ، وأَعطى زكاةَ ماله طيبةً بها نفسُه في كلِّ عام ، ولم يُعْطِ الهَرِمة ولا الدَّرِنة ـ أي: الجرباءَ ـ ولا المريضة ، ولا الشَّرَطَ اللئيمة ـ أي: خسيس المال ـ ولكن من وَسَط أموالكم ، فإن الله تعالى لم يسأَلكم خيرَه ، ولم يأْمُرْكم بشرِّه؛ وزكَّى نفسه».

---

(١) انظر (جامع العلوم والحكم) وتفسير ابن كثير.

(٢) انظر شرح ابن رجب و(الجامع الصغير).

فقال رجل: فما تزكيةُ المرءِ نفسَه يا رسول الله؟ ـ أي: ما هو سبيل تطهيرِ النفس وإبعادها من مقارفة الذنوب ـ.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «أَن يَعلم أن الله معه حيثما كان»[1].

فَمَنْ عَلِم علماً جازماً أن الله تعالى معه حيثما كان، وأَنه يراه حيثما كان، حَمَلَه ذلك على طاعة الله تعالى وعلى ترك معصيته.

فهذا معاذ بن جبل رضي الله عنه كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد بعثه على عمل، فقَدِم وليس معه شيءٌ ـ أي: من الهدايا والأَموال ـ فعاتبته امرأَته في ذلك، فقال لها معاذ رضي الله عنه: كان معي ضاغط ـ يعني مَن يراقبه ويمنعه من أخذ شيءٍ ـ وأراد معاذ رضي الله عنه بذلك الرقيبِ ربَّ العالمين، فظنت امرأَته أَن عمر رضي الله عنه بعث معه رقيباً عليه، فقامت تشكو عمر رضي الله عنه للناس.

ونقل الحافظ ابن رجب الحنبلي في (شرحه الأربعين) أنه سُئل الجُنَيد: بماذا يُستعان على غضِّ البصر؟

فقال: بعلمك أَنَّ نظر الله تعالى إليك هو أَسبقُ إلى ما تنظره.

قال ابن رجب: وكان الإمام ينشد:

إذا ما خلوتَ الدهرَ يوماً فلا تَقُلْ ... خَلَوتُ ولكنْ قُلْ عليَّ رقيبُ
ولا تَحْسَبنَّ الله يَغفُل ساعةً ... ولا أَنَّ ما يَخفى عليه يَغيبُ

---

(١) قال الحافظ ابن رجب رحمه الله تعالى بعدما أورده: وخرج أبو داود أول الحديث دون آخره. اهـ.

قال ابن رجب: وكتب ابن السمَّاك الواعظُ إلى أَخ له:

أما بعدِ: أُوصيك بتقوى الله الذي هو نجيُّك في سريرتك، ورقيبُك في علانيتك، فاجْعلِ الله تعالى من بالك على كل حال في ليلك ونهارك، وَخَفِ الله بقَدْر قربه منك، وقدرته عليك، واعلمْ أنك ليس تَخرج عن سلطانه إلى سلطان غيره، ولا مِن ملكه إلى ملك غيره، فليعظُمْ منه حَذُرك، وليكْثُر منه وَجَلُك، والسلام.

وقال أيضاً: كان وُهيب بن الورد يقول: خَفِ الله تعالى على قَدْر قدرته عليك، واستحي منه على قَدْر قربه منك.

وقال له رجل: عِظْني.

فقال له: اتَّقِ الله أَن يكون أَهَونَ الناظرين إليك. ا هـ.

يعني: لا تكن من الذين يستحيون من الناس إذا نظروا إليهم أن يفعلوا سوءاً؛ ولا يستحيون من الله تعالى وهو ناظرٌ إليهم ويفعلون ما نهى عنه، فهذا يدل على أَنهم جعلوا الله أهونَ الناظرين إليهم.

وقد ذمَّ الله تعالى وعنَّف الذين لا يراقبون الله تعالى ولا يستحيون منه، قال تعالى: ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾، والمعنى: أن هذه المعيَّة المقتضيةَ علمَه سبحانه واطِّلاعَه ومراقبتَه لأَعمالهم تُوجب عليهم أن يخافوه ويستحيوا منه، فيتباعدون عما يُغضبه جل وعز.

وجاءَ في وصايا بعض السلف: إذا أَردت أن تعصيَ الله تعالى فاعصه حيث لا يراك، أو ٱخرج من داره وكُلْ من غير رزقه. ا هـ.

يعني: لأن من الوقاحة كل الوقاحة، والقباحة كل القباحة أن

تعصيَ ربك الذي يربِّيك، ويطعمك ويسقيك، ويُغْدِق عليك من النِّعم مالا يُحصى، من نِعَم تَعلمها ومن نِعَم كثيرة لا تعلمها، فتعصيه على مرأى منه ومشهد، وأنت في أرضه وتحت سقف سمائه.

وقد راود بعض الأعراب أعرابية وقال لها: نحن في ظلمة الليل ما يرانا إلا الكواكب.

فقالت له: أين مُكَوْكِبُها؟!

أي: فالله تعالى الذي خلق الكواكب يرانا فلنستَح منه ولنخفْ عقابه.

وعن زيد بن أسلم، أن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما مرَّ يوماً براعي غنم، فأَراد أن يختبر إيمانه بالله تعالى فقال له: أيها الراعي أَلا تبيعُني شاةً؟

فقال له الراعي: ما هاهنا ربها ـ أي: لستُ أَنا مالك الغنم ـ إنما أَرعاها لرجل من أَهل مكة.

فقال له ابن عمر: بِعْني شاةً وخُذْ ثمنها، وإذا سأَلك مالكها فقل له: أَخذها الذئب!

فقال الراعي: فأَين الله؟

فقال ابن عمر: فأَنا والله أَحقُّ أن أقول أين الله.

فانطلق ابن عمر وقد أَخذ هذا الجوابُ من قلبه مأْخذاً قوياً، فجعل يمشي ويقول: فأين الله فأين الله جلَّ وعلا، ثم اشترى ابن

عمر الراعي واشترى الغنم فأَعتقه وأعطاه الغنم[1].

كرامة الكلم الطيب والعمل الصالح وفضلهما عند الله تعالى:

وقد دلت هذه الآية الكريمة وهي قوله تعالى: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ دلت هذه الآية على عظيم فضل الكلم الطيب والعمل الصالح، وعلوِّ منزلتهما عند الله تعالى، وأنهما لَجديران بذلك الصعود والرفع إليه سبحانه، كما سيتضح ذلك قريباً.

ولكن موضع الاعتبار في ذلك هو أَنه إذا كان الكلم الطيب والعمل الصالح بهذه المنزلة من الشرف والكرامةَ على الله تعالى، فحقيقٌ بمن تمسَّك بهما أن يعلوَ بهما ويشرُفَ، وينال المقام الأَسمى والدرجة العليا، معتزاً بالله تعالى، مُكرماً بقربه وحبِّه.

وإذا كان الكلم الطيب والعمل الصالح الصادران عن هذا المؤمن الطيب هما في تلك المنزلة من العزة والرفعة، فما ظنُّك بنفس المؤمن الذي صدر عنه ذلك الكلم الطيب والعمل الصالح، وماذا تتصوَّر من رفعة مقامه وعزة كرامته عند رب العالمين ذي العزة والجبروت والملك والملكوت؟!

نعم إنه لا يعلم حقيقةَ ما هو عليه إلا الله تعالى، قال سبحانه: ﴿ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَـٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴾.

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴾.

---

(١) رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غَيْـرَ عبد الله بن الحارث الحاطبي وهو ثقة كما في (مجمع الزوائد) وقد أوردته بالمعنى.

وفي (الصحيحين) عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن الله تعالى قال: أعددتُ لعباديَ الصالحين ما لا عينٌ رأتْ، ولا أُذنٌ سمعت، ولا خَطَر على قلب بشر، ثم قرأ: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾».

فإذا كان العمل صالحاً والكلم طيباً على الوجه الذي ذكرنا فإن ذلك ينفع صاحبه في الدنيا وينفعه في الآخرة، فيُرفعُ العمل الصالح إلى الله تعالى، ويُذكر صاحبُه عند الله تعالى، ويُشْكَر ويُبَاهَى به، ويُرضى عنه، وينشر له الثناءُ والمحبة في الملإ الأَعلى.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾. وقد بيَّن ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فروى الترمذي وغيره، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا أَحبَّ الله عبداً نادى جبريل، يا جبريلُ إني أُحبُّ فلاناً فأَحِبَّه، فيحبُّه جبريل، ثم ينادي جبريل في أَهل السماء: إن الله يحب فلاناً فأَحِبُّوه، فيحبه أَهل السماءِ، ثم تَنزل له المحبة في الأرض، وإذا أَبغض عبداً نادى جبريل إني أُبغضُ فلاناً فأَبْغِضْه، فيبغضه جبريل، ثم ينادي في أَهل السماء: إن الله يبغض فلاناً، فيبغضونه، ثم تَنزل له البغضاءُ في الأرض» ثم قرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾. وروى الشيخان نحو هذا.

وهكذا المؤمن الصالح فإن له في الدنيا المحبة من الله تعالى وإلقاءَ محبته في القلوب ـ كما تقدم ـ وله القبول الحسن والثناءُ

الحسن والذكر الحسن عند الله تعالى ، وله الأَجر العظيم الذي لا يعلم قدره إلا الله تعالى ، وله من الله تعالى الرضا والرحمة.

روى الإمام أحمد في (مسنده) عن ثوبان رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إنَّ العبد لَيلتمسُ مرضاةَ الله عز وجل ـ أي: بأَعماله الصالحة ـ فلا يزال كذلك فيقول الله عز وجل لجبريل: إن فلاناً عبدي يلتمس أن يُرضيَني ، ألا وإنَّ رحمتي عليه ، فيقول جبريل: رحمة الله على فلان ، ويقولها حملة العرش ، ويقولها من حولَهُم حتى يقولها أهل السموات السبع ، ثم يهبط إلى الأرض».

وروى الإمام أحمد بإسناده ، عن أبي أُمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن المِقَةَ ـ أي: المحبة ـ من الله ، والصِّيتَ من السماء ، فإذا أَحب الله عبداً قال لجبريلَ عليه السلام: إني أُحبُّ فلاناً ، فينادي جبريل: إن ربكم يَمِقُ ـ أي: يُحبُّ ـ فلاناً فأَحِبُّوه ، فتنزل له المحبة في الأَرض ، وإذا أبغض عبداً قال لجبريل: إني أُبغِض فلاناً فأَبغضه ، قال: فينادي جبريل: إن ربكم يبغض فلاناً فأَبغضوه ، فيجرِي له البغض في الأرض».

فالذين آمنوا وعملوا الصالحات يجعل لهم الرحمن وداً ، وحباً ثابتاً في قلوب الملإ الأَعلى والأَدنى ، ويجعل لهم القبول الحسن ، ويجعل لهم الصيت والثناءَ الحسن في الملإِ الأَعلى والأَدنى. جعلنا الله تعالى منهم بفضله وكرمه سبحانه.

وهكذا يُحْيِيه الله تعالى حياة طيبة ، كما جاءَ في الآية الكريمة: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ أي

في الدنيا ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: في الآخرة.

وأما إذا لم يَصلح العمل: بأنْ كان فيه نفاق، أو لم يَشْرعه الله تعالى، فإنَّ ذلك لا ينفعه لا في الدنيا ولا في الآخرة، قال تعالى في المنافقين: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

فإن قيل: حبوط العمل الديني إن كان عبارة عن بطلان ثوابه فذلكِ يكون في الآخرة، وإن كان عبارة عن بطلان منفعته فإنَّ أعمال المنافقين في الدنيا نفعتهم فحقنتْ دماءَهم وحفظت أَموالهم، وأَجرتْ عليهم أَحكام المسلمين في الدنيا، فكيف والآية الكريمة تقول فيهم: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

فالجواب: أنَّ المراد بحبوطها في الدنيا هو عدمُ قبولها، لأن الله تعالى يَقبلُ العبادة في الدنيا، ثم يُثيب عليها في الآخرة، فالمراد بحبوطها: عدمُ قبولها، وعدمُ إطلاق الأَسماءِ الشريفة الكريمة عليها، فلا يُطلق عليها أوصافُ العبادة أو القُرْبة أو الحسنة أو الطاعة، ونحو ذلك من الصفات التي يوصف بها المخلِصون العابدون المحسنون الطائعون.

* * *

صُعُوْدُ الكَلِمِ الطَّيِّبِ إلى الله عزَّ وجل

قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ الآية ، وقد جاءَ بيان ذلك في الأحاديث الشريفة ، ومنها:

ما جاء في الحديث عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنَّ مما تَذْكُرون من جلال الله التسبيحَ والتهليلَ والتحميدَ ، ينعطفن ـ أي: يجتمعن ـ حول العرش ، لهنَّ دويٌّ كدويِّ النحل تذكِّر بصاحبها ، أما يُحِبُّ أحدُكم أَن يكون له ـ «أَو لا يزال له» ـ مَن يُذكِّر به»[1]. أي: يشفع به.

ورواه الإمام أحمد بلفظ: «الذين يذكرون الله من جلال الله من تسبيحه وتكبيره وتحميده وتهليله...» الحديثَ ، كما في تفسير ابن كثير.

وروى الطبراني عن أَبي الدرداءِ رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «ليس من عبدٍ يقول: لا إلَه إلا الله مائةَ مرة ، إلا بَعَثه الله تعالى يوم القيامة وجهُه كالقمر ليلةَ البدر ، ولم

---

(١) قال المنذري: رواه ابن أبي الدنيا وابن ماجه ـ واللفظ له ـ والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم. وقال الهيثمي في (مجمع الزوائد): إسناده صحيح ورجاله ثقات.

يُرفعْ لأَحدٍ يومئذ عملٌ أَفضلُ مِن عمله إلا مَن قال مثل قوله أَو زاد» كما في (الفتح الكبير).

وروى الإمام أَحمد ، والطبراني ، والحاكم عن أُم هانئ رضي الله عنها ، أَن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لها: «سَبِّحي الله مائةَ تسبيحة ؛ فإنها تَعْدِلُ لك مائة رقبة من ولد إسماعيل ، واحْمَدي الله مائةَ تحميدة ؛ فإنها تعدِل لك مائة فرسٍ مُسرَجَةٍ ملجَمةٍ تَحْمِلين عليها في سبيل الله ، وكبِّري الله مائة تكبيرة ؛ فإنها تعدل لك مائة بَدَنةٍ مقلَّدة مُتَقَبَّلة ، وهلِّلي الله مائة تهليلة ؛ فإنها تملأُ ما بين السماء والأَرضِ ، ولا يُرَفع يومئذٍ لأَحدٍ عملٌ أفضلُ منها إلا أَن يأْتيَ بمثلِ ما أَتيتِ».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما قال عبد: لا إلّه إلا الله قطُّ مخلِصاً إلا فُتِحتْ له أبواب السماءِ حتى يُفضي إلى العرش ما اجْتُنِبَتِ الكبائر».

قال المنذري: رواه الترمذي وقال: حديث حسن غريب.

وروى الترمذي عن ابن عمر رضي الله عنهما ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «التسبيح نصفُ الميزان ، والحمد لله تملأُه ، ولا إلّه إلا الله ليس لها دون الله حجاب حتى تَخْلُص إليه».

ومِنَ الكلم الطيِّب: الدعاءُ ، فإنه يُرفع ويَصعد مالم يَحجبه حجاب.

وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم في دعوة المظلوم: «تُفْتَح لها أبواب السماءِ ، ويقول الله تعالي: وعزَّتي وجلالي لأَنصرنَّكِ ولو بَعَد حين».

روى الترمذي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «إن الدعاءَ موقوف بين السماء والأرض لا يصعد منه شيءٌ حتى تُصلِّي على نبيِّك» ﷺ.

ومن ذلك: الدعاءُ عقب الوُضوء كما جاءَ عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «مَن قرأَ سورة الكهف كانت له نوراً يوم القيامة من مقامه إلى مكة، ومن قرأَ عشرة آياتٍ من آخرها ثم خرج الدجال لم يَضُرَّه، ومن توضأَ فقال: سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إلّه إلا أنت أَستغفرك وأَتوب إليك: كُتِب في رقِّه ثم جُعل في طابَع فلم يُكسر إلى يوم القيامة»[1].

صعود الملائكة بالكلم الطيب

إن لله ملائكة تصعد بالكلم الطيب بأَمر الله تعالى.

ورد عن ابن مسعود رضي الله عنه أَنه قال: إذا حدّثْناكم بحديث أَتيناكم بتصديق ذلك من كتاب الله تعالى؛ إنّ العبد إذا قال: سبحان الله والحمد لله ولا إلّه إلا الله والله أكبر، وتبارك الله: قَبَضَ عليهنَّ ملك فضمَّهن تحت جناحه وصَعِد بها، لا يمرُّ بهن على جَمْع من

---

(١) قال المنذري: رواه الطبراني في (الأوسط) ورواته رواة الصحيح واللفظ له، ورواه النسائي وقال في آخره: «ثم ختم عليهن بخاتم فوضعت تحت العرش فلم يكسر إلى يوم القيامة» وصوَّب وقفه على أبي سعيد رضي الله عنه. اهـ، قلت: والموقوف في مثل هذا له حكم المرفوع لأنه لا مجال للرأي فيه.

الملائكة إلا استغفروا لقائلهن حتى يُحَيّا بهنَّ وجه الرحمن ، ثم تلا ابن مسعود قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾(١) .

وروى الإمام مسلم عن أَنس رضي الله عنه قال: بينما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يصلي إذ جَاءَ رجل قد حَفَزَهُ النَّفَس ـ أي: اشتد عليه ـ فقال: الله أكبر. الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه.

فلما قضَى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الصلاة قال: «أَيُّكُمُ المتكلمُ بالكلمات»؟

فأرَمَّ ـ أي: سكت ـ القوم.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إنه لم يقل بأْساً».

فقال الرجل: أَنا يا رسول الله .

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «لقد رأَيتُ اثني عَشَرَ ملكاً يبتدرونها أَيُّهم يرفعُها».

وروى مسلم أيضاً ، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: بينما نحن نصلي مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذ قال رجل من القوم: الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً وسبحانَ الله بكرةً وأصيلاً.

---

(١) قال المنذري: كذا في نسختي ، يُحيا بالحاء المهملة وتشديد المثناة ، ورواه الطبراني فقال: حتى يجيء بالجيم ، ولعله الصواب. ا هـ ، وأورده في (مجمع الزوائد) بلفظ: «حتى يجيء بهن وجه الرحمن تبارك وتعالى» وقال: رواه الطبراني وفيه المسعودي وهو ثقة ولكنه اختلط ، وبقية رجاله ثقات. ا هـ.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «مَنِ القائلُ الكلمة كذا وكذا»؟.

فقال الرجل: أَنا يا رسول الله.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «عجبت لها! فُتحتْ لها أبواب السماء».

وفي رواية للنسائي: «لقد رأيتُ ابتدرها اثنا عشر ملكاً».

قال ابن عمر رضي الله عنهما: فما تركتُهنَّ منذ سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول ذلك.

* * *

رفعُ الأعْمَال الصَّالِحَة

الكلام على رفع الأَعمال الصالحة يشتمل على أُمور متعددة:

الأول: الكلام على أَوقات الرفع وتعددها.

الثاني: الكلام على واسطة الرفع.

الثالث: الكلام على بعض موانع الرفع.

الرابع: الكلام على وجوه الحِكَمِ في رفع الأَعمال الصالحة وصعود الأَقوال الطيبة.

الكلامُ على أوقاتِ الرَّفعِ وتَعَدّدهَا

جاءَ في الأَحاديث الشريفة ما يدلُّ على تعدُّد رفع الأَعمال في أَوقات مختلفة ، ولا تَنافِيَ بينها ، فإن لكل رفع حِكَماً تتعلق به .

فهناك رفع في النهار ورفع في الليل:

كما ورد في (صحيح) مسلم ، عن أَبي موسى رضي الله عنه قال: قام فينا رسول الله صلى الله عليه وآلِه وسلم بخمس كلمات فقال: «إن الله تعالى لا ينام ولا ينبغي له أَن ينام ، يخفض القِسْط ويرفعه ، يُرفع إليه عملُ الليل قبل عملِ النهار ، وعمل النهار قبل عمل الليل ، حجابه النور ، لو كشفه لأَحْرَقَتْ سُبُحاتُ وجهه ما انتهى إليه بصرُه من خَلقه» .

قال العلامة المُنَاوي رحمه الله تعالى: ومعناه ـ أي: معنى رفع العمل الوارد في هذا الحديث ـ يُرفع إليه عملُ النهار في أَول الليل الذي بعده ، وعملُ الليل في أول النهار الذي بعده ، فإنَّ الحَفَظَة يصعدون بأَعمال الليل بعد انقضائه في أَول النهار ، ويصعدون بأَعمال النهار بعد انقضائه في أَول الليل . اهـ.

وأشار بذلك إلى الحديث الوارد في (الصحيحين) عن أَبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يَتَعَاقبون فيكم ـ أي : يتناوبون ـ ملائكةٌ بالليل وملائكة

بالنهار ، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر ، ثم يَعرج الذين باتوا فيكم ، فيسأَلُهم ربُّهم ـ وهو أَعلم بهم ـ: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون ، وأَتيناهم وهم يصلون».

قال المنذري في (الترغيب): ورواه ابن خزيمة في (صحيحه) ولفظه في إحدى رواياته قال: «تجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر وصلاة العصر ، فيجتمعون في صلاة الفجر ، فتصعد ملائكة الليل وتبيت ملائكة النهار ، ويجتمعون في صلاة العصر ، فتصعد ملائكة النهار وتبيت ملائكة الليل ، فيسأَلهم ربهم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: أَتيناهم وهم يصلُّون ، وتركناهم وهم يصلون ، فاغفرْ لهم يومَ الدين».

فكُنْ أيها المؤمن على علم قاطع بأَنّ معك ملائكةً بالليل وملائكة بالنهار ، يرقُبون أَعمالك ويرفعونها إلى ربِّ العزة والجلال.

الرفع الفوري:

روى الترمذي وأَحمد ، عن عبد الله بن السائب رضي الله عنه ، أَن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يُصلي أَربعاً بعد أَن تَزول الشمس قبل الظهر ـ أي: قبل فرض الظهر ـ وقال: «إنها ساعة تُفتح فيها أبواب السماءِ فأُحبُّ أن يَصعد لي فيها عمل صالح».

وفي هذا الحديث بيانُ فضل سنة الظهر القبلية.

وعن أبي أيوبَ الأَنْصَاريِّ رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «أَربعٌ قبل الظهر ليس فيهنَّ تسليمٌ ؛ تُفتح لهنَّ أبوابُ السماءِ».

قال المنذري: رواه أبو داود واللفظ له وابن ماجه، وفي إسنادهما احتمال للتحسين، ورواه الطبراني في (الكبير والأوسط) ولفظه قال: لما نزل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عليٍّ - أي: حين هاجر صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة - رأَيْتُه صلى الله عليه وآله وسلم يُديمُ أَرْبَعاً - أي: يداوم على صلاة أربع ركعات - قبل الظهر وقال: «إنه إذا زالتِ الشمسُ فُتِحت أبوابُ السماءِ فلا يُغلَق فيها باب حتى تُصَلَّىٰ الظهر، فأَنا أُحبُّ أَن يُرفع لي في تلك الساعة خير» أي: عمل صالح.

قال عبد الله: فينبغي للمسلم أن يَحرِص كلَّ الحرص على صلاة سنة الظهر القبلية عقب الزوال، وأن يَغتنم الدعاء في تلك الساعة، فإنه مجابٌ، لأَن أبواب السماء تفتح فيها، ولا ينبغي للمؤمن أن ينشغل عن ذلك في الدنيا وحُطامها الفاني، ويُضيِّع على نفسه خيرات ودعوات ونفحات وبركات؛ تنفعه في الحياة وبعد الممات.

الرفع الأسبوعي وعرض الأعمال على الله تبارك وتعالى:

روى الإمام مسلم والترمذي، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «تُعرضُ الأَعمال على الله تعالى في كل يوم خميس واثنين، فيغفر الله تعالى لكل امرئ لا يشرك بالله شيئاً، إلا مَن كانت بينه وبين أخيه شحناءُ، فيقول الله تعالى: اتركوا هذين حتى يَصطلحا».

وفي رواية لمسلم: «تُفتح أبواب الجنة يوم الاثنين والخميس، فيُغْفَر لكل عبدٍ لا يُشرك بالله شيئاً إلا رجلاً كان بينه وبين أخيه

شحناءُ» ـ أي: بغضاءُ ـ الحديث.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «تُعرض الأعمال يوم الاثنين والخميس فأُحِبُّ أَن يُعرض عملي وأَنا صائم» رواه الترمذي وقال: حسن غريب.

وعن أُسامة بن زيد رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله: إنك تصوم حتى لا تكاد تفطر، وتفطر حتى لا تكاد تصوم ـ أي: متنفلاً ـ إلا يومين إنْ دَخَلا في صيامك[1] وإلا صمتَهما؟

قال: «أَيُّ يومين»؟.

قلت: يوم الاثنين والخميس.

قال: «ذلك يومان تُعرض فيهما الأعمال على ربِّ العالمين، فأُحبُّ أن يعرض عملي وأنا صائم»[2].

وعن جابر رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «تُعرض الأعمال يوم الاثنين والخميس، فمِنْ مستغفرٍ أغفرُ له، ومن تائب فأَتوبُ عليه، ويُردُّ أَهلُ الضغائن ـ أي: الحقد والبغض ـ حتى يتوبوا»[3].

ومن هذه الأحاديث الشريفة يعلم المسلم فضل هذين اليومين

---

(١) أي: إنْ وافقا أيام صيامك رمضان أو غيره، وإلا خَصَّصْتهما بالصيام.
(٢) قال المنذري: رواه أبو داود والنسائي وفي إسناده مجهولان، قال: ورواه ابن خزيمة في (صحيحه) عن شرحبيل بن سعد، عن أسامة قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يصوم الاثنين والخميس، ويقول: «إن هذين اليومين تعرض فيهما الأعمال».
(٣) رواه الطبراني ورواته ثقات كما في (ترغيب) المنذري.

الاثنين والخميس ، فلْيباعدِ المسلمُ نفسَه من الحقد والبغض لئلا يحجبا رفعَ أَعماله الصالحة ، ولْيُكْثر فيهما من صالح العمل وطيب الكلام ، فإنّ الأيام لها أحكامها وخصائصها ، وإنها ظروف لما يَجري فيها ، فلا تملأْ ظروف أَيامك أيها العاقل إلا بما يقربك إلى ربك عز وجل ، فسوف يأْتي عليك يوم تفتح هذه الظروف بعدما خُتم عليها عند موتك ، ويظهر ويتدفق جميع ما حوته تلك الظروف من أقوالك وأَعمالك وأَحوالك ، فإنْ كانت طيبةً صالحة فاحتْ روائحها الطيبة وانتشر عَبيقها ، وسُررت بها وفرحت وأمنت واستبشرت ، وإن كانت خبيثة سيئة خَبُثَتْ روائحها وخيَّمت عليك ظلماتها ، وفُضحتَ في ذلك الجمع العظيم ، وحزنت وكربت ، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ .

الرفع السنوي:

روى النسائي بإسناد حسن ، عن أُسامة بن زيد رضي الله تعالى عنهما قال: قلتُ: يا رسول الله لمْ أَرَكَ تصوم من شهر من الشهور ما تصوم من شعبان؟ .

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ذاك شهرٌ يَغْفُل الناسُ عنه ما بين رجبٍ ورمضانَ ، وهو شهر تُرفع فيه الأَعمال إلى ربِّ العالمين ، فأُحبُّ أَن يُرفع عملي وأَنا صائم» .

قال العلامة المُناوي رحمه الله تعالى في (التيسير): وتُعرض الأعمال ليلة النصف من شعبان ، وليلة القدر ، فالأَول ـ أي: فالعرض في كل اثنين وخميس ـ عرضٌ إجمالي باعتبار الأُسبوع ، والثاني ـ أي: ليلة النصف من شعبان وليلة القدر ـ تفصيليٌّ باعتبار

العامِ ، وفائدة تكرير العرضِ إظهارُ شرفِ العاملين في الملكوت ، قال: وأَما عرضها تفصيلاً فترفعها الملائكة بالليل مرة ، وبالنهار أُخرى. ا هـ.

قال عبد الله: ولاشك في أن لكل رفع حِكَماً عالية ، فمنها ما ظهر ، ومنها ما لم يظهر ، ولكن سوف تظهر جميعاً للعباد يوم القيامة ، والله تعالى أعلم بجميع ما هناك.

الكلام على وَاسِطَةِ الرَّفع

الباب الذي يصعد منه العمل الصالح يبكي على صاحبه إذا مات

قال الله تعالى في الكفار بعد موتهم: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾ ، وقد بيّن النبي صلى الله عليه وآله وسلم الذي آتاه الله تعالى البيان عن القرآن ـ بيّن المراد بهذه الآية:

فقد روى الترمذي وأبو يعلى ، وأبو نعيم ، بروايات متعددة ، عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «مامن عبدٍ إلاّ وله بابان: بابٌ يَصعد منه عمله ، وبابٌ ينزل منه رزقه ، فإذا مات فَقَداه وبكيا عليه» وتلا هذه الآية: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾.

يعني: فما بكت السماءُ والأرض على موت الكافر ، وإنما تبكي الأرض على موت المؤمن الصالح ، لأَنَّه كان يعمل عليها صالحاً ، وتبكي عليه السماءُ ، لأنه كان يصعد له فيها عمل صالح.

وروى ابن أَبي الدنيا وابن المنذر وغيرهما ، عن أَمير المؤمنين علي رضي الله عنه ، أنه قال: إن المؤمن إذا مات بكى عليه مُصَلاَّه

من الأَرض، ومَصعدُ عمله من السماءِ، ثم قرأَ: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ أي: فما بكت على الكفار بعد موتهم.

وقد نقل الحافظ ابن كثير عن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وغير واحد أنه كان يقال: تبكي الأَرض على المؤمن أربعين صباحاً.

وروى عبد بن حميد وأبو الشيخ في (العظمة) عن مجاهد رحمه الله أَنه قال: ما مات مؤمن إلا وبكت عليه السماءُ والأرض أربعين صباحاً.

فقيل له: أَتبكي؟

فقال: أتعجبون؟! وما للأَرض لا تبكي على عبد كان يعمرها بالركوع والسجود، وما للسماء لا تبكي على عبد كان لتكبيره وتسبيحه دويٌّ كدويِّ النحل. اهـ.

وروى ابن جرير وابن المنذر، والبيهقي في (شُعب الإيمان) عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سئل عن قوله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ هل تبكي السماء والأَرض على أحد؟

فقال: (نعم إنه ليس أحد من الخلائق إلا له بابٌ في السماء ينزل منه رزقه، وبابٌ يصعد فيه عمله، فإذا مات المؤمن فأُغلِق بابه من السماءِ فَقَدَه؛ فبكى عليه، وإذا فَقَدَه مُصَلَّاهُ من الأَرْض التي كان يصلي فيها ويذكر الله تعالى فيها؛ بكت عليه، وإنّ قوم فرعون لم يكن لهم في الأَرض آثار صالحة، ولم يكن يَصعد إلى الله منهم خير، فلم تبكِ عليهم السماء والأرض) كما في (الدر المنثور) وغيره.

وروى أَبو داود الطيالسي ، عن أَبي موسى الأَشعري رضي الله عنه قال: (تَخرج روح المؤمن أَطيبَ من ريح المسك ، فتنطلق بها الملائكة من دون السماءِ ، فيقولون: ما هذا؟ فيقولون: هذا فلان بن فلان ، كان يعمل كَيْتَ وكَيْتَ ـ لمحاسن عمله ـ فيقولون: مرحباً بكم وبه ، فيقبِضونها منهم ، فيُصعَد بها مِنَ الباب الذي كان يَصعد منه عمله ، فتشرق في السموات ولها ـ أي: للروح ـ بُرهان ـ أي: نور ـ كبرهان الشمس ، حتى يُنتهىٰ بها إلى العرش.

وأَما الكافر فإِذا قُبض انطلِق بروحه ، فيقولون: ما هذا؟ فيقولون: هذا فلان بن فلان ، كان يعمل كَيْتَ وكَيْتَ ـ لمساوىء عمله ـ فيقولون: لا مرحباً ، رُدُّوه ، فيردُّ إلى أَسفل الأَرض: إلى الثَّرَى)[1].

وإنما تبكي الأَرض على العبد الذي يذكر الله تعالى وَيُسَبِّحه ويحمده على ظهرها ؛ لأَنها كانت تفرح بذلك وتستبشر ، كما جاء في الحديث الذي رواه أبو الشيخ وغيره ، عن أَنس رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أَنه قال: «مامن بُقْعَةٍ يُذْكَرُ اسم اللهِ فيها إلا استبشرتْ بذكر الله تعالى إلى منتهاها من سبعِ أَرَضين ، وإلا فَخَرَتْ على ما حولها من بقاع الأَرض ، وإن المؤمن إذا أَراد الصلاةَ من الأَرض تزخرفتْ له الأَرْض».

وعن أَنس رضي الله عنه مرفوعاً: «مامن صباحٍ ولا رواح إلاّ وبقاع الأَرض ينادي بعضُها بعضاً: يا جارةُ هَل مرّ بكِ اليومَ عبدٌ

---

(١) انظر كتاب (الروح) للعلامة ابن القيم.

صالحٌ صَلَّىٰ عليكِ ، أَو ذكر الله تعالى؟ فإنْ قالتْ: نعم ، رأتْ أَن لها بذلك فضلاً»[١] .

فكل مؤمن له أَنوار إيمانية ، وبركات من قرباته وطاعته ، تَدرُّ عليه من العزيز الغفار ، وعلى بقعته ومكان عبادته ، فإذا فَقَدت السموات والأَرض أَنوار تلك الطاعات الصاعدة إلى الله تعالى ، وافتقدت تلك الرحمات والبركات النازلة بسبب عباداته وطاعاته: بكتِ السماءُ وبكتِ الأَرض أَسىً وحزناً ، لأن السموات والأرض يعتريها التأثر مما يعمل العباد على وجه الأرض، فإنهما يعتريهما الفرح والسرور والاستبشار بما يَعمل في الأَرض من الطاعات والعبادات والقربات ، ويعتريهما الغضب والتغيظ من الكفر والفسوق والعصيان .

قال تعالى: ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴾ .

فقد أَثبت الله تعالى للأرض غَضَباً وتغيُّظاً شديداً على مَن نَسَبَ لله تعالى الولد ، كما أَثبت سبحانه للأَرض أداءَ الشهادة والتحدُّثَ يوم القيامة بما عُمل على ظهرها في الدنيا من خير وشر ، ومِنْ طاعة ومعصية ، قال تعالى: ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾ .

---

(١) رواه الطبراني في (الأوسط) وأبو نعيم في (الحلية) .

وقد بيَّن ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما جاءَ في (سنن) الترمذي ، عن أَبي هريرة رضي الله عنه قال: قرأَ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذه الآية: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ قال: «أَتدرون ما أَخْبَارُها»؟.

قالوا: اللهُ ورسوله أعلم.

قال: «هو أَن تشهد على كل عبد وأَمَةٍ بما عَمِل على ظهرها ، تقول: عَمِلْتَ يوم كذا: كذا وكذا ، فهذه أخبارها» قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب ، ورواه أحمد والنسائي.

وروى الطبراني عن ربيعة الحبشي ، أَن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «تَحَفَّظوا من الأَرض فإنها أُمّكم ، وإنه ليس من أَحدٍ عاملٍ عليها خيراً أو شراً إلا وهي مخبرة عنه».

فما أَخبرنا الله تعالى عنه في القرآن الكريم من أَن الأَرض لا تبكي على موت الكفار على ظهرها ، بل تبكي على موت الصالحين الذين كانوا يعبدون الله تعالى ، ويعملون الصالحات على ظهرها ، وأَنَّ الأرض تغضب ؛ وتكادُ تنشقُّ من غيظها على من دعا للرحمن ولداً ، وأَن الأرض تشهد على العاملين على ظهرها يوم القيامة ، وَتُخبر عما جرى عليها ، لأن الله تعالى أمرها بذلك ، فإن جميع هذه الأَخبار القرآنية هي حقٌّ وحقيقة واقعية ، فلا تُنكرْ شيئاً من ذلك ، ولا تظنَّ أَنها من باب ضرب المثال أَو نوع من الخيال ، بل جميع ذلك محقَّقُ الوقوع بلا ريب ، لأن الله تعالى يخبر عن الحق والحقيقة ، قال سبحانه: ﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ﴾.

الكلامُ على بَعْضِ مَوَانعِ رَفْعِ العَمَلِ الصَّالحِ

روى الإمام أَحمد في (مسنده) عن أَنس رضي الله عنه ، أَن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يقول: «اللهم إني أعوذُ بك من قول لا يُسمع، وعمل لا يُرفع ، وقلب لا يَخشع ، وعلم لا يَنفع».

فالعمل الذي لا يُرفعُ يُستعاذ منه ، لأَن عدمَ رفعه دليلُ عدمِ قبوله أَو تمامه.

روى البزار والطبراني ، عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا توضأَ العبدُ فأَحسنَ الوضوءَ ، ثم قام إلى الصلاة فأتمّ ركوعها وسجودها والقراءةَ فيها ، قالت: حفظكَ الله كما حفظتَني ، ثم صُعِد بها إلى السماء ولها ضَوءٌ ونور ، وفتحت لها أَبواب السماء.

وإذا لم يحسنِ العبد الوضوءَ ، ولم يتمّ الركوع والسجود والقراءَة قالت: ضيعكَ الله كما ضَيَّعْتَنِيْ ، ثم صُعِد بها إلى السماءِ وعليها ظلمة ، وغلِّقت أبواب السماء ، ثم تلفُّ كما يُلَفُّ الثوب الخَلَق ، ثم يُضرب بها وجه صاحبها»[1].

وقد جاءَ في الأَحاديث الشريفة بيان ما يَمنع رفع العمل ومن ذلك:

---

(1) انظر (الدر المنثور) ١: ٢٩٦ ، وهذه رواية البزار ، أما لفظ الطبراني فسيأتي إن شاء الله تعالى.

الرياء في العمل، فإنه يمنع رفعه إلى الله تعالى:

روى الطبراني، عن أَنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا كان آخر الزمان صارت أُمتي ثلاثَ فِرَق، فرقة يعبدون الله خالصاً، وفرقة يعبدون الله رياءً، وفرقة يعبدون الله ليستأكلوا به الناس.

فإذا جمعهم الله تعالى يوم القيامة، قال للذي يستأْكل الناس: بعزتي وجلالي ما أَردتَ بعبادتي؟

فيقول: وعزتك وجلالك أَستأْكل به الناس.

قال ـ سبحانه ـ: لم ينفعْك ما جمعت، انطلقوا به إلى النار.

ثم يقول للذي كان يعبده رياءً: بعزتي وجلالي ما أَردت بعبادتي؟

قال: بعزتك وجلالك رياءَ الناس.

قال ـ سبحانه ـ: لم يصعد إليَّ منه شيءٌ، انطلقوا به إلى النار.

ثم يقول للذي كان يعبده خالصاً: بعزتي وجلالي ما أَردت بعبادتي؟

فقال: بعزتك وجلالك أَنتَ أعلم بذلك مَنْ أَردتُ به، أَردتُ به ذكرك ووجهك.

قال ـ سبحانه ـ: صدق عبدي انطلقوا به إلى الجنة»[1].

---

(١) قال الحافظ المنذري: رواه الطبراني في (الأوسط) من رواية عبيد بن إسحاق العطار، وبقية رواته ثقات، ورواه البيهقي عن مولى أنس رضي الله عنه ولم يسمه.

ومما يمنع رفع العمل إلى الله تعالى: قطيعةُ الرحم ، وعصيانُ المرأَة زوجَها ، والرجل يؤمُّ القومَ وهم له كارهون وغير ذلك:

روى الإمام أَحمد بسند جيد ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أَن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «ثلاثة لا تُرفع صلاتهم فوق رؤوسهم شِبراً: رجلٌ أَمَّ قوماً وهم له كارهون، وامرأةٌ باتت وزوجها عليها ساخطٌ، وأَخوان متصارمان» أي: متقاطعان ومتهاجران.

قال المنذري: ورواه ابن حبان في (صحيحه) ولفظه: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ثلاثة لا يَقبل الله منهم صلاة: إمامُ قومٍ وهم له كارهون ، وامرأَة باتت وزوجها عليها غضبان ، وأَخوانِ متصارمان».

ومن هذه الرواية يُفهم أن عدم رفع العمل سببه عدم القبول الكامل ، فإن روايات الحديث تفسِّر بعضَها بعضاً.

وروى الترمذي عن أَبي أُمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ثلاثة لا تُجاوز صلاتهم آذانَهم ـ أي: لا ترفع إلى السماء ـ: العبدُ الآبِق حتى يرجع ، وامرأَة باتت وزوجها عليها ساخط ، وإمامُ قومٍ وهم له كارهون».

وعن جابر رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «ثلاثة لا يُقبلُ لهم صلاة ، ولا ترفع لهم إلى السماء حسنة: العبدُ الآبق حتى يَرجع إلى مواليه ، والمرأةُ الساخط عليها زوجها حتى يرضىٰ ، والسكران حتى يَصحو»[١].

---

(١) رواه ابن خزيمة وابن حبان ، والبيهقي كما في (الفتح الكبير).

وعن عطاءِ بن دينار الهذلي رضي الله عنه ، أَنْ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «ثلاثة لا يُقبل منهم صلاة ، ولا تَصْعد إلى السماء ، ولا تُجاوز رؤوسهم: رجل أَمَّ قوماً وهم له كارهون ، ورجل صلَّى على جنازة ولم يؤمر ـ أي: من جانب وليِّ الميت ـ وامرأَة دعاها زوجها في الليل فأَبت عليه»[1].

الكلامُ على وُجُوهِ الحِكم في رَفْعِ الأَعْمَالِ إلى الله تعالى

إنّ في صعود الكلم الطيب ورفع الأَعمال الصالحة ـ كما أخبر الله تعالى ـ حِكَماً عظيمة ، ومنافعَ لصاحبها جسيمة ؛ وقد جاءَ بيان ذلك في كثير من الآيات القرآنية والأَحاديث النبوية ، يعلم ذلك من تدبَّر وتبصَّر ، وذلك مما ينبغي للمؤمن أن يّطلع عليه ويسعى إليه ، لِتَقْوَى عزيمتُه ، وتنشط همته ، فيسارعَ إلى الأَعمال الصالحة ، فإن مَن أَيقن بربِح التجارة بكَّر مسرعاً إليها دون كسل ولا ملل ، وقد ذكرتُ جوانبَ من حكمةِ رفع الأَعمال ظاهرةً صريحةً من الآيات القرآنية والأَحاديث النبوية ، تُنبِّـه الغافل وتنهض بهمة العاقل.

الحكمة الأولى: إن الأَقوال الطيبة والأَعمال الصالحة تُرفع لتَشْفعَ بصاحبها عند الله تعالى : كما تقدم في الحديث ، عن النعمان بن بشير رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وآله

(١) قال المنذري: رواه ابن خزيمة في (صحيحه) هكذا مرسلاً ، وَرَوَىٰ له سند آخر إلى أنس رضي الله عنه يرفعه. ا هـ.

وسلم: «إن مما تَذْكرون من جلال الله التسبيحَ والتهليل والتحميد، يَنْعَطِفْنَ حول العرش يذكِّرنَ بصاحبهنَّ. .» أي: يشفعن بصاحبهن. الحديث كما تقدم برواية ابن ماجه وغيره.

فهذا الكَلِمُ الطيب له شفاعة بصاحبه، وإن أَطيب الكلام كلام الله تعالى، فله شفاعة بالقارئ في الدنيا والبرزخ والآخرة.

وقد وردت الأَحاديث في قارىءِ سورة المُلك ـ تبارك ـ أنها تشفع بصاحبها في قبره:

فعن أَبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «إنّ سورةً من القرآن ثلاثون آيةً، شَفَعَتْ لرجل حتى غَفَر الله له، وهي تبارك الذي بيده المُلك»[1].

وروى ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال في سورة تبارك: «هي المانعة، هي المُنْجِية، تُنْجيه من عذاب القبر».

وقد روى الإمام أحمد، وابن أبي شيبة، عن أُبيٍّ بن كعب رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أَنه قال في آية الكرسي: «والذي نفسي بيده، إنَّ لِهذه الآية لساناً وشفتين تقدِّس المَلِكَ عند ساق العرش».

وإن الكلمة الطيبة التي هي مصدر الطِّيب كلِّه، هي لا إلَه إلا الله، لها شفاعة بقائلها عند الله تعالى:

---

(١) رواه أبو داود والترمذي وحسنه واللفظ له، والنسائي وابن ماجه، وابن حبان في (صحيحه) والحاكم وقال: صحيح الإسناد. اهـ من (ترغيب المنذري).

روى الترمذي وحسَّنه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما قال عبد لا إلّه إلا الله قطُّ مخلصاً إلاَّ فُتحت لها أَبواب السماء حتى تُفضي ـ أي: تنتهي ـ إلى العرش ما اجتُنِبَت الكبائر».

وروى البزار ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن لله تبارك وتعالى عموداً من نور بين يدي العرش ، فإذا قال العبد لا إلّه إلا الله: اهتزَّ ذلك العمود.

فيقول الله تبارك وتعالى: اسكُنْ.

فيقول: كيف أَسْكُنُ ولم تغْفر لقائلها.

فيقول الله تعالى: إني قد غفرت له ، فيسكن عند ذلك»[1].

فهذه الأَحاديث تدل على أن للكلم الطيب والأعمال الصالحة شفاعةً بصاحبها في الدنيا ، كما أن لها شفاعة في الآخرة.

وقد روى ابن أبي شيبة ـ الحديث السابق ـ عن النعمان بن بشير رضي الله عنه بلفظ: قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «الذين يذكرون من جلال الله: من تسبيحه وتحميده وتكبيره وتهليله ، يتَعاطَفْنَ حول العرش ، لهنَّ دويٌّ كدويِّ النحل ، يذكِّرنَ بصاحبهن ، أَوَلا يُحبُّ أَحدُكم أن لا يزال عند الرحمن شيءٌ يذكِّر به»[2].

---

(١) انظر (ترغيب) المنذري.

(٢) انظر (الدر المنثور) ٤: ٢٢٥ ورواه ابن حبان في (صحيحه) والإمام أحمد في (مسنده).

وروى الطبراني عن عبادةِ بن الصامت رضي الله عنه مرفوعاً: «إذا حافظ العبد على صلاته ، فأقام وُضوءَها وركوعها وسجودها ، والقراءة فيها قالت له: حفظك الله كما حفظتَني ، وصُعِد بها إلى السماءِ ولها نور تنتهي إلى الله عز وجل ، فتشفع لصاحيها»[1]. الحديث.

الحكمة الثانية: ومن الحكمة في رفع الكلم الطيب والعمل الصالح: هي مباهاة رب العزة ملائكتَه بتلك الأَعمال والأَقوال الطيبة ، فقد وردت مباهاة الحق بأَعمال الصالحين وأَقوالهم الطيبة في أَحاديث متعددة:

فمن ذلك ما رواه الإمام مسلم وغيره ، أَن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خرج على حَلْقة من أَصحابه فقال: «ما أَجْلَسَكم»؟

قالوا: جلسنا نذكر الله تعالى ، ونحمده على ما هدانا للإسلام وَمَنَّ به علينا ـ أي: يتحدثون بنعمة الإسلام ويشكرون الله تعالى ـ.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «آللهِ ما أَجلسكم إلا ذلك»؟

قالوا: آللهِ ما أَجلسنا إلا ذلك.

فقال: «أما إني لم أَستَحْلِفْكُمْ تُهْمَةً لكم ، ولكنه أَتاني جبرائيل فأَخبرني أن الله عز وجل يُباهي بكم الملائكة».

ومن ذلك مباهاة رب العزة بصُوَّام رمضان وقُوّامه:

فعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه ، أَن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال يوماً وقد حضر رمضان: «أَتاكم رمضانُ شهرُ

---

(١) انظر (جامع العلوم والحكم) للحافظ ابن رجب الحنبلي.

بركة ، يغشاكم الله تعالى فيه ـ أي: يتغشاكم بالرحمة والبركة منه ـ فينزِّلُ الرحمة ، ويَحُطُّ الخطايا ، ويستجيب فيه الدعاءَ ، وينظر الله تعالى إلى تنافُسِكم ، ويباهي بكم ملائكته ، فأَرُوا الله مِن أنفسكم خيراً ، فإنَّ الشقي من حُرم فيه رحمةَ الله عز وجل»[1].

ومن ذلك مباهاة رب العزة بأهل عرفات:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن الله تعالى يباهي بأَهل عرفات ملائكة السماءِ ، فيقول: انظُروا إلى عبادي هؤلاء جاؤُوني شُعْثاً غُبْراً»[2].

ومن ذلك مباهاة رب العزة بِقُـوّام الليل:

فعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «الرجل من أُمتي يقوم من الليل يعالج نفسه إلى الطُّهور ـ أي: الوضوءَ ـ وعليه عُقَد ، فإذا وضَّأَ يديه انحلت عقدة ، وإذا وضَّأَ وجهه انحلت عقدة ، وإذا مسح رأْسه انحلت عقدة ، وإذا وضَّأَ رجليه انحلت عقدة ، فيقول الله عز وجل للذين وراءَ الحجاب ـ أي: الملائكة كما جاءَ في رواية أُخرى ـ: انظروا إلى عبدي هذا يعالج نفسه يسأَلني ، ما سأَلني عبدي هذا فهو له»[3].

---

(١) قال المنذري: رواه الطبراني ورواته ثقات إلا أنَّ محمد بن قيس لم أقف فيه على جرح ولا تعديل. ا هـ.

(٢) قال المنذري في (ترغيبه): رواه أحمد وابن حبان في (صحيحه) والحاكم وقال: صحيح على شرطهما. ا هـ.

(٣) قال المنذري في (ترغيبه): رواه أحمد وابن حبان في (صحيحه) واللفظ له. ا هـ.

ومن ذلك مباهاة رب العزة بأصوات الأذان والتكبير والتلبية:

رُوِيَ عن جابر رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «ثلاثة أصوات يباهي الله بهن الملائكة: الأذان، والتكبير في سبيل الله، ورفع الصوت بالتلبية»[1].

ومن ذلك مباهاة رب العزة بالذين يحمدون الله تعالى ويذكرونه ويَدْعُوْنه:

عن معاوية رضي الله عنه، أَن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خرج على حَلْقة من أَصحابه فقال: «ما أَجْلَسَكم»؟

قالوا: جلسنا نذكر الله، ونحمده على ما هدانا للإسلام، وَمَنَّ به علينا.

قال: «آللهِ ما أَجلسكم إلا ذلك»؟

قالوا: آللهِ ما أَجلسنا إلا ذلك.

قال: «أما إني لم أستحلفكم تُهْمَةً لكم، ولكنه أتاني جبريل فأَخبرني أن الله عز وجل يباهي بكم الملائكة»[2] وتقدم الحديث.

وعن أَنس رضي الله عنه قال: كان عبد الله بن رواحة رضي الله عنه إذا لقي الرجلَ من أَصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: تعالَ نؤْمنْ بربنا ساعة.

فقال ذات يوم لرجل، فغضب الرجل، فجاءَ إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله أَلَا ترى إلى ابن رواحة

---

(١) رواه ابن النجار والديلمي في (الفردوس)، كما في (الجامع الصغير).
(٢) رواه مسلم والترمذي وغيرهما.

يَرغب عن إيمانك إلى إيمان ساعة؟

فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «يَرحم الله ابنَ رواحةَ إنه يُحبُّ المجالس التي تتباهىٰ بها الملائكة»[1].

وروى مسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنَّ لله تبارك وتعالى ملائكةً سَيّارةً فُضلاءَ، يبتغون مجالس الذكر، فإذا وجدوا مَجلساً فيه ذكر قعدوا معهم، وحَفَّ بعضُهم بعضاً بأَجنحتهم حتى يملأُوا ما بينهم وبين السماءِ، فإذا تفرقوا -أي: الذاكرون- عرجوا -أي: الملائكة- وصَعِدوا إلى السماء».

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «فيسأَلهم الله عز وجل -وهو أعلم، يعني: أنَّ سؤاله سبحانه ليس استعلاماً، لأَنه أَعلم بكل شيء؛ ولكنه سؤال مدح ومباهاة- فيقول: من أَين جئتم؟

فيقولون: من عند عبادك من الأَرض يسبحونك ويكبرونك ويهللونك ويحمدونك ويسأَلونك؟

قال: فما يسأَلوني؟

قالوا: يسألونك جنتك.

قال: وهل رأَوا جنتي؟

قالوا: لا يا رب.

قال: وكيف لو رأَوا جنتي؟

(١) رواه أحمد بإسناد حسن، كما في (ترغيب) المنذري.

قالوا: ويستجيرونك.

قال: وممَّ يستجيروني؟

قالوا: من نارك يا رب.

قال: وهل رأوا ناري؟

قالوا: لا يا رب.

قال: فكيف لو رأوا ناري؟

قالوا: ويستغفرونك؛ قال: قد غفرت لهم، وأَعطيتهم ما سأَلوا، وأَجرْتُهم مما استجاروا». قال: «يقولون ـ أي: الملائكة تقول ـ: يا رب فيهم فلان عبد خَطَّاءٌ، إنما مَرّ فجلس معهم» ـ لحاجة له لا للذكر ـ.

قال: «فيقول: وله قد غفرت، هم القوم لا يشقى بهم جليسهم» وقد روى البخاري هذا الحديث أَطولَ من ذلك.

فالله تعالى يباهي ملائكته بعباده المسبِّحين الحامدين المهلِّلين، والمستغفرين والسائلين.

روى البزار عن أنس رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن لله سيَّارةً من الملائكة يطلبون حِلَق الذِّكر، فإذا أَتوا عليهم حَفُّوا بهم، ثم يقفون وأَيْدِيَهم إلى السماء إلى رب العزة تبارك وتعالى فيقولون: ربنا أَتينا على عبادٍ من عبادك يُعظِّمون آلاءَك، ويتلون كتابك، وَيُصَلُّون على نبيك محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ويسأَلونك لآخرتهم ودنياهم.

فيقـول الله تبـارك وتعـالى: غَشُّـوهـم رحمتي ، فهمُ الجُلَسـاءِ لا يَشقى بهم جليسُهم»[1].

وروى الطبراني في (المعجم الصغير) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: مرَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعبد الله بن رواحة رضي الله عنه وهو يُذكِّر أَصحابه ـ يعني: يذكرهم بالله تعالى وبأيام الله تعالى وبالآخرة ـ.

فقـال رسول الله صلى الله عليه وآله وسـلم: «أما إنكم المـلأُ الذين أَمرني الله تعالى أَنْ أصبرَ نفسي معكم» ثم تلا هذه الآية: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ إلى قوله ﴿وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾.

«أما إنّه ما جلس عِدَّتُكم إلا جلس معهم عِدَّتُهُم من الملائكة ، إنْ سبَّحوا الله تعالى سَبَّحُوه ، وإِنْ حَمِدوا الله تعالى حمدوه ، وإن كَبروا الله تعالى كبروه ، ثم يصعدون إلى الرب جل ثناؤه ـ وهو أَعلم بهم ـ فيقولون: يا ربنا عبادك سبحوك فسبَّحْنا ، وكبروك فكبرنا ، وحَمِدوك فحمدنا.

فيقول ربنا جل جلاله: يا ملائكتي أُشهدُكم أَني قد غفرت لهم.

فيقولون: فيهم فلانٌ وفلان الخَطَّاءُ.

فيقول: هم القوم لا يشقىٰ بهم جليسهم».

ومن ذلك مباهاة رب العزة بالذين ينتظرون الصلاة بعد الصلاة:

فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: صلينا مع رسول الله

---

(١) انظر (ترغيب) المنذري.

صلى الله عليه وآله وسلم المغرب ، فَرَجع مَنْ رجع ، وعقَّب مَنْ عقَّب ـ أي: وجلس من جلس ينتظر الصلاة الأُخرى ـ فجاءَ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مسرعاً قد حَفَزَه النَّفَس ، فقال: «أَبشِروا ، هذا ربكم قد فتح باباً من أَبواب السماءِ يباهي بكم الملائكة يقول: انظروا إلى عبادي قد قضوا فريضةً وهم ينتظرون أُخرى»[1] .

ومن ذلك مباهاته سبحانه بالمُطْعِمين الطعام:

رُوي عن جعفر العبديِّ والحسن قالا: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله عز وجل يباهي ملائكته بالذين يطعمون الطعام من عبيده»[2] .

الحكمة الثالثة: في رفع الأَعمال والكلم الطيب هي: أَن يُـذْكَر أَصحاب الأَعمال والأَقوال الطيبة بالمدح والثناءِ عليهم في الملإِ الأَعلى ، وفي ذلك إعلان بِـرِفعة شأْنهم وعلوِّ مقامهم:

روى الإمام مسلم، عن أَبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله تعـالى ، يَـتْلون كتابَ الله تعالى ، وَيتَدارسونـه بينهـم: إلا نزلتْ عليهم السكينة ، وغَشِيَتْهم الرحمة ، وذَكَرَهم الله فيمن عنده. . . .» الحديث.

---

(١) قال في (الترغيب): رواه ابن ماجه. ا هـ ، وقال البوصيري في (زوائد ابن ماجه): إسناده صحيح ورجاله ثقات. ا هـ. كما في (الفتح الرباني) قلت: رواه الإمام أحمد في (مسنده) من طريقين.

(٢) رواه أبو الشيخ في (الثواب) مرسلاً ، كما في (ترغيب) المنذري.

الحكمة الرابعة: تُرفع الأَقوال وَالأَعمال الصالحة لِتُسجلَ في الدواوين العالية، وليشهدَها المقربون في تلك العوالم العلوية، قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ﴿٢٠﴾ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾، فكتاب الأَبرار وما حواه من عمل الأَبرار في عليين، وهو عَلَم لديوان الخير الذي دُوِّن فيه كل ما عملته الأَبـرار وصلحاء الثقـلين، وهو اسم منقـول من جمـع عِلِّـيّ، على وزن فِعِّيـل من العـلو ـ أي: العـالي جـداً ـ أبلـغ من العالي.

واختلف في المراد به:

فقال قتادة: عليون: قائمة العرش اليُمْنى.

روى عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ قال: عِلِّيُّـوْن: فوق السماء السابعة عند قائمة العرش اليمنى ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ﴾ قال: رقم لهم بخير، ﴿يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ قال: يَشهده المقربون من ملائكة الله تعالى.

وورد نحو ذلك عن مجاهد وغيره.

وقال بعض التابعين: عليون عند سدرة المنتهى ـ أي: لأنها تنتهي إليها أَعمال العباد ـ.

وقال بعضهم: عليون: أي: السماء السابعة.

روى ابن المنذر عن ابن جريج في قوله تعالى: ﴿يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ قال: هُم مقربو أَهلِ كل سماءٍ، إذا مرّ بهم عمل المؤمن شيَّعه مقربو أهل كل سماءٍ، حتى ينتهي العمل إلى السماء السابعة،

فيشهدون حتى يثبت في السماء السابعة.

والظاهر أن عليين تشمل ذلك كلَّه، لأَنه مأْخوذ من العلو، وكلما علا الشيءُ وارتفع، عَظُم واتسع، ولهذا قال تعالى معظِّماً أَمرَه ومفخِّماً شأْنه: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝١٩ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٢٠ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ أي: يشهده المقربون في تلك العوالم العلوية.

ومعنى يشهده المقربون: أي: يحضرونه ـ من الشهود بمعنى الحضور ـ وفي ذلك دليل على حفاوة المقربين واحتفالهم بأَعمال الأَبرار، وفرحتهم واغتباطهم بذلك، أو هو مأْخوذ من الشهادة بمعنى: أَنهم يشهدون بما فيه يوم القيامة ـ ولا تَنافي بين القولين، والكلُّ واقع.

روى الطبراني، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «تُنْسَخُ دواوين أَهلِ الأَرضِ في دواوين أَهل السماءِ في كل اثنين وخميس، فيغفر الله عز وجل لكل مسلم لا يشرك بالله شيئاً؛ إلا رجلٌ بينه وبين أخيه شَحْناءُ»(١).

فهذا الحديث دليل واضح على أن ثَمة عدةَ دواوين، فهناك دواوين في جميع العوالم العلوية: عالم السماوات، وعالم السِّدْرة، وعالم العرش، والديوان الأَكبر هو في عالم العرش، ولذلك جاء النبأُ في الآية الكريمة: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾، ولم يقل في عِلِّيّ، وقد تقدم كلام التابعين في ذلك.

---

(١) انظر: (ترغيب) المنذري كتاب الصيام، وقال الحافظ الهيثمي في (مجمع الزوائد): رواه الطبراني في (الأوسط) ورجاله ثقات.

وروى البيهقي، عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «من سمع المؤذن يؤذن فقال كما يقول، ثم قال: رضيتُ بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد صلى الله عليه وآله وسلم نبيّاً، وبالقرآن إماماً، وبالكعبة قِبلةً، أَشهد أَن لا إلَه إلا الله وحده لا شريك له، وأَشهد أن محمداً عبده ورسوله، اللهم اكتب شهادتي هذه في عليين، وأَشهِدْ عليها ملائكتك المقربين، وأنبياءَك والمرسلين، وعبادك الصالحين، واختم عليها بآمين، واجعلها لي عندك عهداً توفِّينيه يوم القيامة، إنَّك لا تخلف الميعاد، بَدَرَتْ له بطاقةٌ من تحت العرش فيها أَمانة من النار».

وروى أبو داود، عن أبي أُمامة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «مَنْ خرج من بيته ـ أي: إلى المسجد ـ مُتطهِّراً إلى صلاةٍ مكتوبة ـ أي: صلاة مفروضة ـ فأَجْرُه كأَجْرِ الحاجِّ المحرم، ومن خرج إلى تسبيح الضحى لا يُنْصِبُه إلا إياه فأَجْره كأَجْر المعتمر، وصلاةٌ على إثْر صلاة لا لغوَ بينهما كتابٌ في عليين».

والمراد بتسبيح الضحى: صلاة الضحى.

ومعنى لا يُنْصِبُهُ إلا إياه: أي: لا يحركه ويتعبه في هذا الخروج من بيته إلى المسجد إلا نيةُ الصلاة في المسجد خالصةً لله تعالى.

الحكمة الخامسة: إعلام حَمَلة العرش ومَن حوله مِنَ الملإِ الأَعلى ليدعوا ربهم لأُولئك المؤمنين الصالحين، ويستغفروا لهم، ويطلبوا لهم ولأُصولهم ولفروعهم، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ

ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ﴾ أي: طريقَ العملِ الصالح والكلم الطيب فإنه السبيلُ الموصل إليك ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٧ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ آمين. اللهم اجعلنا منهم.

فقد أخبر سبحانه عن حَملة العرش وَمَنْ حَوله وهم أهل الملإِ الأَعلى: أن لهم وظائفَ متعددة من التسبيح والتحميد، وأنَّ مِنْ وظائفهم استغفارَهم للمذنبين التائبين حيث يقولون: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ﴾ أي: صراطَ شرعك الذي أقمتَه لهم، وأَمرتهم أن يتبعوه، ويمشوا على منهاجه القويم في أَعمالهم وأَقوالهم.

فقد رُفعتْ أَعمالهم وتوبتهم وأَقوالهم هناك، واطَّلع عليها الملأُ الأَعلى - حملةُ العرش ومن حوله - فراحوا يستغفرون لهم ويدعون لهم بالمغفرة، وأن يَقِيَهم الله تعالى عذاب الجحيم، وأنْ يدخلهم جنات النعيم، ويتم النعمة عليهم، والنعيم لهم، فيُلْحِقَ بهم من صَلَح من آبائِهم وأَزواجهم وذرياتهم، وأن يَقِيَهم الله تعالى ويحفظهم من السيئات في الدنيا والآخرة، فلا يسوءُ لهم الحال، ولا تخيب لهم الآمال، جعلنا الله تعالى منهم بفضله وكرمه.

الحكمة السادسة: هي وضع المقابلات والمكافآت لتلك الأَعمال والأَقوال الطيبة، وتنزيلُها منازلَها، وإعطاؤها أجزيتَها من الدرجات والكفارات، وهناك تُعرض على الدائرة العليا في الملإِ

الأَعلى ، ويجرِي النظر من الملإ الأعلى فيها ، وربما اختلفوا واختصموا فيٰ ذلك بينهم.

قال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ أي: ما كان له صلى الله عليه وآله وسلم من علم باختصام الملإ الأعلى ، وما يجري بينهم من التقاول في قضية آدم عليه السلام ، وقضية اعتبارات أَعمال بني آدم من الكفارات والدرجات ، وتنزيلها منازلها ، وإعطائها مستَحَقاتها ومكافآتها ، لم يكن عنده صلى الله عليه وآله وسلم علم بجميع ذلك قبل أَن يُـنبأَ وينزل عليه القرآن الكريم ، لأنه صلى الله عليه وآله وسلم كان أُمياً لم يقرأ الكتب الماضية ، ولم يَسمعها من أَهلها ، فَمِنْ أين جاءَ بهذه العلوم الوافرة الكثيرة التي من جملتها العلم بالملإ الأَعلى إذ يختصمون.

إذن إنه رسول الله تعالى حقاً ، أَوحى الله تعالى إليه وعلَّمه ذلك كلَّه بلا ريب ، وقد بيَّن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وجه اختصام الملإِ الأَعلى ، وفِيمَ يختصمون ، بيَّن ذلك كما علمه الله تعالى:

فقد روى الترمذي بإسناده ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أَتاني الليلةَ ربي تبارك وتعالى في أحسن صورة ـ قال أي: الراوي: أحسَبه قال: في المنام ـ فقال: يا محمد هل تَدري فيمَ يختصمُ الملأُ الأَعلى؟

قلتُ: لا.

قال: فوضع يده بين كتفيَّ حتى وجدتُ بَـرْدَهـا بين ثَدْيَيَّ[1] ـ أو قال: «في نحري» ـ فعلمت ما في السماوات وما في الأرض.

قال: يا محمد هل تدري فيم يختصم الملأُ الأَعلى؟

قلت: نعم في الكفارات، والكفارات: المكث في المسجد بعد الصلاة، والمشي على الأَقدام إلى الجماعات، وإسباغ الوضوءِ في المكاره[2]، ومن فعل ذلك عاش بخير ومات بخير، وكان من خطيئته كيوم ولدته أُمه[3].

فقال: يا محمد إذا صليت فقل: اللهم إني أَسأَلك فعلَ الخيرات[4] وتَرْكَ المنكرات[5]، وحبَّ المساكين، وإذا أَردتَ بعبادك فتنة[6] فاقْبِضْني إليك غيرَ مفتون.

قال: والدرجات: إفشاءُ السلام، وإطعام الطعام، والصلاة بالليل والناس نيام».

ثم أَورد الحديث من طريق أُخرى، عن ابن عباس رضي الله

---

(١) بالتثنية أو بالإضافة إلى ياء المتكلم ـ أي: قلبي وصدري ـ.
(٢) أي: في الحالات التي تكره وتستثقل النفس فيها الوضوء، كالوضوء في شدة البرد ونحوه.
(٣) أي: كان طاهراً من ذنوبه كطهارة المولود يوم ولادته.
(٤) أي: القربات الشرعية المشار إليها بقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ﴾.
(٥) وهي المنكرة شرعاً من الأقوال القبيحة والأفعال السيئة.
(٦) أي: ضلالة أو عقوبة دنيوية.

عنهما ، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «أَتاني ربي في أَحسن صورة فقال: يا محمد.

فقلت: لبيك ربي وسعديك.

قال: فيم يختصمُ الملأُ الأعلى؟

قلت: ربِّ لا أَدري ، فوضع يده بين كتفيَّ حتى وجدتُ بَرْدَها بين ثَدْيَيَّ: فعلمت ما بين المشرق والمغرب.

فقال: يا محمد.

فقلت: لبيك وسعديك.

قال: فيم يختصم الملأُ الأَعلى؟

قلت: في الدرجات والكفارات ، وفي نقل الأَقْدَام إلى الجُمعات ، وإسباغ الوضوءِ في المكروهات ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، ومن يُحافظ عليهن: عاش بخير ، ومات بخير ، وكان من ذنوبه كيومَ ولدته أُمه».

قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه.

قال: وفي الباب عن معاذ بن جبل رضي الله عنه وعبد الرحمن بن عايش ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

قال الترمذي: وقد رُوِيَ هذا الحديث عن معاذ بن جبل رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بطوله ، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إني نَعَسْتُ فاستثقلت نوماً ، فرأَيت ربي في أحسن صورة ـ أي: صفة ـ قال: فيمَ يختصمُ الملأُ الأعلى..».

ثم أَسند إلى عبد الرحمن بن عايش الحضرمي ، عن مالك بن

يَخامِر السَّكْسكي ، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : احْتَبَسَ[(١)] عَنَّا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذاتَ غَداة في صلاة[(٢)] الصُّبح حتى كِدْنا نتراءَى الشمس ، فخرج سريعاً فثوَّب بالصَّلاة ، فصلَّى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتجوَّز[(٣)] في صلاته ، فلما سلَّم دعا[(٤)] بصوته فقال لنا : «على مصافِّكم كما أَنتم» ثم انتقل إلينا[(٥)] فقال «أما[(٦)] إني سأُحدِّثُكم ما حَبسني عنكم الغداةَ ، إني قمتُ من الليل فتوضأْت فصلَّيت ما قُدِّر لي ، فنَعَسْت في صلاتي ، فاستثقلت[(٧)] ، فإذا أنا بربي تبارك وتعالى في أَحسن صورة ـ أي : صفة ـ فقال : يا محمد .

قلت : رب لبيك .

قال : فِيمَ يختصمُ الملأُ الأَعلى؟

قلت : لا أَدري ربِّ . قالها[(٨)] ثلاثاً .

قال : فرأَيته وضع كفَّه بين كتفيَّ ، وقد وجدت بَـرْدَ أَنَامِلِه بين

---

(١) قال في (تحفة الأحوذي) : بصيغة المعلوم ، وروي مجهولاً . ا هـ .

(٢) كذا في النسخ الموجودة ، وفي رواية أحمد عن صلاة الصبح . ا هـ ، كما في (تحفة الأحوذي) .

(٣) أي : خفف فيها واختصر على خلاف عادته .

(٤) أي : نادى .

(٥) أي : أقبل علينا .

(٦) بالتخفيف وهي أداة تنبيه .

(٧) بصيغة المعلوم أو المجهول ، أي : غلب علي النعاس ، كما في (تحفة الأحوذي) .

(٨) أي : قال الله تعالى هذه المقولة ثلاثاً .

ثدييَّ فتجلَّى لي كلُّ شيءٍ وعرفتُ.

فقال: يا محمد.

قلت: لبيك رب.

قال: فيمَ يختصم الملأُ الأَعلى؟

قلت: في الكفارات.

قال: وما هنَّ؟

قلت: مشْيُ الأَقْدام إلى الجماعات، والجلوس في المساجد بعد الصلوات، وإِسْباغ الوضوءِ في المكروهات.

قال: ثم فيمَ؟

قلت: إطعام الطعام، ولينُ الكلام، والصلاةُ بالليل والناس نِيام.

قال: سَلْ.

قلت: اللَّهم إنِي أَسأَلك فعلَ الخيراتِ، وتركَ المنكرات، وحبَّ المساكين، وأَن تغفرَ لي وترحمَني، وإذا أَردت فتنةً في قوم فتوفَّنِي غير مفتون، وأَسأَلكَ حُبَّك، وحُبَّ مَنْ يُحِبك، وحُبَّ عملٍ يُقربني إلى حبك».

فقال: رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنها حقٌّ فادرسُوها ثم تَعَلَّموها».

قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، سأَلت محمد بن إسماعيل ـ البخاري ـ عن هذا الحديث فقال: هذا صحيح. ا هـ.

وقد أخرج هذا الحديثَ الإمامُ أَحمد في (المسند)،

والدارمي ، والبغوي في (شرح السنة) ، والطبراني ، وأَخرجه عبد الرزاق ، ومحمد بن نصر في كتاب (قيام الليل) ، وابن جرير.

أما الإمام أَحمد: فرواه عن معاذ بن جبل رضي الله عنه ، وهذا لفظه قال: احتَبَسَ علينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذاتَ غداةٍ عن صلاة الصبح ، حتى كِدْنا نتراءَى قربَ الشمس ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سريعاً ، فثوَّب بالصلاة ، فصلى وتجوَّز في صلاته ، فلما سَلَّم قال: «كما أَنتم على مصافِّكم» ثم أَقبل إلينا فقال: «إني سأُحدثكم ما حبسني عنكم الغداة ، إني قمتُ من الليل فَصَلَّيْتُ ما قُدِّر لي ، فنعَسْت في صلاتي حتى استيقظت[1] ، فإذا أنا بربي عز وجل في أَحسن صورة ـ أي: صفة ـ فقال: يا محمدُ أَتدرِي فيم يختصمُ الملأُ الأَعلى؟

قلت: لا أَدري ربِّ.

قال: يا محمد فيم يختصم الملأُ الأَعلى؟

قلت: لا أَدرِي ربِّ.

فرأَيته وضع كفَّه بين كتفيَّ حتى وجدتُ بردَ أَنامِلِه في صدري ، فتجلَّى لي كلُّ شيءٍ وعرفت.

فقال: يا محمد فيم يختصم الملأُ الأَعلى؟

قلت: في الكفارات.

قال: وما الكفارات؟

(١) هكذا يوجد في بعض نسخ (المسند) «حتى استيقظت» ولكن أكثر الروايات الواردة بلفظ: «حتى استثقلت» ، كما في الرواية قبلها.

قلت: نَقْلُ الأَقدام إلى الجُمُعات ، وجلوسٌ في المساجد بعد الصلاة ، وإِسباغُ الوضوءِ عند الكَرِيهات.

قال: وما الدرجات؟

قلت: إِطعامُ الطعام ، ولينُ الكلام ، والصلاة والناس نيام.

قال: سَلْ.

قلت: اللَّهم إني أَسأَلك فعلَ الخيرات ، وتركَ المنكرات ، وحُبَّ المساكين ، وأن تغفرَ لي وترحمني ، وإِذا أَردتَ فتنةً في قوم فتوفَّني غير مفتون ، وأسأَلك حبَّك وحبّ من يُحِبُّك ، وحبَّ عَمَلٍ يقرِّبني إلى حبك».

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنها ـ أي: الكلمات ـ حقٌّ فادرسوها وتَعَلَّموها».

وروى الإمام أحمد في (مسنده) أَيضاً ، عن عبد الرحمن بن عايش ، عن بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، أَن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خَرَج عليهم ذاتَ غداةٍ وهو طَيِّبُ النفس ، مُسْفِرُ الوجه ـ أَو مُشْرق الوجه صلى الله عليه وآله وسلم ـ فقلنا: يا رسول الله إنا نراك طيِّب النفس ومسفر الوجه ـ أو مشرق الوجه ـ أي: ما سبب ذلك؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «وما يمنعني وأتاني ربي عز وجل الليلةَ في أَحسنِ صورة قال: يا محمد.

قلت: لبيك ربي وسَعْديك.

قال: فيمَ يختصمُ الملأُ الأَعلى؟

قلت: لا أدري أيْ ربِّ».

قال ذلك مرتين أو ثلاثاً.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «فوضع كفَّه بين كتفيَّ فوجدتُ بَرْدَها بين ثدييّ، حتى تجلَّىٰ لي مافي السموات ومافي الأرض ثم تلا هذه الآية: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾.

ثم قال: يا محمد، فيم يختصم المَلأُ الأَعلى؟

قال: قلت في الكفارات.

قال: وما الكفارات؟

قلت: المشْيُ على الأقدام إلى الجماعات، والجلوس في المساجد خِلافَ الصلوات ـ أي: خَلْفَ الصلوات ـ وإبلاغُ الوضوء في المكاره ـ أي: في شدة البرد ونحو ذلك ـ.

قال: ومَنْ فعل ذلك: عاش بخير، ومات بخير، وكان من خطيئته كيوم ولدتْهُ أُمه.

ومن الدرجات: طِيبُ الكلام، وبذلُ السلام، وإطعام الطعام، والصلاة بالليل والناس نيام.

قال: يا محمد إذا صليتَ فقل: اللهم إني أَسألك الطيِّبات، وترك المنكرات، وحبَّ المساكين، وأن تتوب عليَّ، وإذا أردتَ فتنةً في الناس فتوفَّني غيرَ مفتون»[١].

---

(١) انظر: (مسند) أحمد.

ومعنى أسألك الطيبات: أي: أَسأَلك فعل الطيبات.

وأما رواية الإمام الدارمي فقد قال في (سننه): باب في رؤية الرب تعالى في النوم، ثم أَسند إلى عبد الرحمن بن عايش أنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «رأَيت ربي في أَحسن صورة ـ أي: صفة ـ فقال: فيمَ يختصم الملأُ الأَعلى؟

فقلت: أَنت أَعلم يا رب».

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «فوضع كفَّه بين كتفيَّ فوجدتُ بردَها بين ثدييَّ، فعلمت مافي السماوات والأرض وتلا: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ﴾».

وأما رواية الحافظ البغوي: فقد روىٰ بإسناده المتصل، إلى عبد الرحمن بن عايش الحضرمي أنه قال: قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «رأَيت ربي تبارك وتعالى في أحسن صورة، فقال: فيم يختصم الملأُ الأَعلى يا محمد.

فقلت: أنت أعلم أيْ ربِّ ـ مرتين ـ».

قال: «فوضع كفه بين كتفيَّ فوجدت بردها بين ثديي، فعلمت مافي السماء والأرض».

قال: ثم تلا هذه الآية: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ﴾.

«ثم قال عز وجل: فيم يختصم الملأُ الأَعْلَى يا مُحمد؟

قلت: في الكفارات؟

قال: وما هنَّ؟

قلت: المشيُ على الأَقدام إلى الجماعات، والجلوس في المساجد خلفَ الصلوات، وإبلاغُ الوضوءِ أماكنَه في المكاره.

قال: ومن يفعلْ ذلك: يَعِشْ بخير ويَمُتْ بخير، ويخرجْ من خطيئته كيومَ ولدته أُمه.

ومن الدرجات: إطعام الطعام، وبذل السلام، وأن يقوم بالليل والناس نيام.

قال سبحانه: قل: اللهم إني أسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحبَّ المساكين، وأن تغفرَ لي وترحمني وتتوب عليَّ، وإذا أَردتَ فتنة في قوم فتوفني غير مفتون».

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «تعلموهنّ فوالذي نفسي بيده إنهنَّ لحقٌّ»[1].

ثم روى بإسناده عن ثوبانَ مولى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: خرج إلينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد صلاة الصبح فقال: «إنّ ربي أَتاني الليلة في أَحسنِ صورة فقال: يا محمد هل تدرِي فيم يختصم الملأُ الأعلى؟

قلت: لا أَعلم يا رب.

فوضع كفه بين كتفيَّ حتى وجدتُ بردَ أَناملِه في صدري».

قال: «فتجلَّى لي ما بين السماء والأرض».

---

(١) قال الحافظ البغوي: هذا حديث حسن.

قال: «قلت: نعم يا رب، يختصمون في الكفارات والدرجات.

قال: وما هنَّ؟

قلت: فأمَا الدرجات: فإطعام الطعام، وبذلُ السلام، وقيام الليل والناس نيام.

وأما الكفارات: فَمَشْيٌ على الأَقدام إلى الجماعات، وإسباغ الوضوءِ في الكراهيات، وجلوس في المساجد خلف الصلوات.

ثم قال لي: يا محمد قلْ تُسْمَعْ، وسلْ تُعْطَ».

قال: «قلت: اللهم إني أسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحب المساكين، وأن تغفر لي وترحمني، وإذا أَردتَ فتنة في قوم فتوفني إليك وأنا غيرُ مفتون، اللهم إنِّي أَسأَلُكَ حُبّك، وحُبّ من يُحِبُّك، وحُبّاً يُبَلِّغُني حُبّك»[1].

وأَخَرج الطبراني في (السنة) وابن مَرْدُوْيَهْ، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «رأيت ربِّي في أحسن صورة، قال: يا محمد.

فقلت: لبيك وسعديك ـ ثلاث مرات ـ.

قال: هل تدري فيم يختصم الملأُ الأَعلى؟

قلت: لا. فوضع يده بين كتفيَّ، فوجدت بردها بين ثديَـيَّ، ففهمت الذي سأَلني عنه، فقلت: نعم يا رب يختصمون في الدرجات والكفارات.

---

(١) انظر (شرح السنة) للبغوي.

قلت: الكفارات: إسباغ الوضوءِ، والمشْيِ على الأقدام إلى الجماعات، وانتظار الصلاة بعد الصلاة.

والدرجات: إطعام الطعام، وإفشاءُ السلام، والصلاة بالليل والناس نيام».

وأَخرج الطبراني أيضاً في (السنة) والشيرازي في (الأَلقاب) وابن مَرْدُوْيَهْ، عن أَنس رضي الله عنه قال: أَصبحنا يوماً، فأَتانا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأَخْبَرَنَا فقال: «أَتاني ربي البارحةَ في منامي في أَحسن صورة، فوضع يده بين ثدييَّ وبين كتفيَّ، فوجدت بردها بين ثديي، فعلَّمني كلَّ شيءٍ، وقال: يا محمد.

قلت: لبيك رب وسعديك.

قال: هل تدري فيم يختصم الملأُ الأَعلى؟

قلت: نعم يا ربِّ في الكفارات والدرجات»[١] الحديث.

وأَخرج الحافظ محمد بن نصر المَرْوَزِيُّ في كتاب (قيام الليل وقيام رمضان) بإسناده المتصل إلى عبد الرحمن بن عايش الحضرمي قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «رأَيت ربي في أَحسن صورة فقال: فيم يختصم الملأُ الأَعلى يا محمد؟

قلت: أَنت أَعلم يا رب».

فوضع كفه بين كتفيه فوجد بردها بين ثدييه[٢].

---

(١) انظر (الدر المنثور).

(٢) هذه الجملة بهذا اللفظ من تعبير الراوي عما وقع له صلى الله عليه وآله وسلم ـ والله أعلم.

قال: «فعَلِمت مافي السماءِ والأَرض».

قال: ثم تلا هذه الآية: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾.

«ثم قال: فيمَ يختصم الملأُ الأَعلى يا محمد؟

قلت: في الكفارات والدرجات.

قال: وما هنَّ؟

قلت: المشي إلى الجماعات، والجلوس في المساجد لانتظار الصلوات، وإسباغ الوضوءِ على المكاره.

فقال الله عز وجل: مَنْ يفعلُ ذلك يعيشُ بخير، ويموتُ بخير، ويكونُ من خطيئته كيومَ ولدته أُمه.

قال: ومِنَ الدرجات: إِطعام الطعام، وطيب الكلام، وأن تقوم بالليل والناس نيام.

قال: قل: اللهم إني أَسأَلك الطيباتِ[1] وترك المنكرات، وحبَّ المساكين، وأَن تتوبَ عليّ وتغفر لي وترحَمَني، وإذا أَردتَ فتنة في قوم فتوفَّني غيرَ مفتون».

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «تَعَلَّموهنّ فوالذي نفسي بيده إِنهنَّ لحقٌّ».

قال: وفي الباب عن ثوبان وابن عباس ومعاذ بن جبل وأبي أُمامة رضي الله عنهم اهـ[2].

---

(١) أي: أسألك فعل الطيبات.

(٢) انظر مختصر العلامة المقريزي لكتاب (قيام الليل).

ومن هذه الأَحاديث النبوية التي ذكرناها بأَسانيدها ورواياتها ، يتضح للمؤمن قوةُ اهتمام الملإِ الأَعلى بالأعمال الصالحة والأَقوال الطيبة التي تُرفع ثَمة ، وأَنها مصنَّفة هناك إلى كفارات ودرجات ، ومن تلك الكفارات والدرجات الكثيرة الشهيرة ما ذُكر في الأَحاديث السالفة ، وهناك تُوضع المكافآت والمقابلات لتلك الأعمال والأَقوال الطيبة ، فلْينهضِ المؤمنُ بهمته إلى الإكثار من الأَعمال الصالحة والأَقوال الطيبة ، ولْيغتنمْ فرصة حياته وفراغ عمره قبل أن تُطْوَى الآجال وتنقضي الأَعمار ، فيرحلَ عن هذه الدار.

وفقنا الله تعالى لصلاح العمل ، وحفظنا من طول الأَمل ، ومن الوقوع في الزلل ـ آمين.

ومن هذه الأَحاديث المتقدمة يَعلم المسلم خصائص الأَعمال الصالحة ، وأَنَّ منها كفارات ، ومنها درجات ، وقد يكون منها درجات وكفارات ، أي: لها اعتباران مختلفان.

جاء في (صحيح) مسلم ، عن أَبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «الصلواتُ الخمس ، والجمعةُ إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان: مكفِّراتٌ لما بينهنَّ ما اجتُنِبَتِ الكبائر».

فباعتبار أَنَّ في ذلك حبسَ النفْس على المواظبة على الفرائض والصبر على ذلك ، وكفّ النفس عما تميل إليه من الهوى ، وما تلقاه من المشقة والتعب ، فذلك مما يَجْعَلُها من الكفارات.

وفي الحديث الذي رواه الشيخان ، عن أَبي هريرة رضي الله

عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «أَرأَيتمْ لو أَن نَهَرَاً بباب أَحَدِكم يغتسلُ منه كلَّ يوم خمسَ مرات، هل يَبقى من دَرَنه شيءٌ».

قالوا: لا يبقى من درنه شيءٌ.

قال: «فكذلك مَثَلُ الصلواتِ الخمسِ يمحو الله بهنَّ الخطايا».

ولكن باعتبار أنَّ في الصلاة والصيام قربةً إلى الله تعالى، وعبادةً وعبودية، وفي الصلاة مناجاةٌ وتسبيحٌ وتحميد وسجود، فإن ذلك مما يرفعُ درجاتِ العبد عند ربه، ويجعله في مقام القرب والحب، وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: «أقربُ ما يكونُ العبدُ من ربه عز وجل وهو ساجد، فأَكْثِروا الدعاءَ»[1].

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «مَن ركع ركعةً أو سجد سجدة رفع الله له بها درجة، وحطَّ عنه خطيئة»[2].

ولما كان إسباغ الوضوءِ في شدة البرد، أَو في حالة يَصْعُبُ على النفس، وتَلَقىٰ فيها شدةً وتعباً، كان هذا الإسباغُ وتحمُّلُ الشدة من الكفارات، وباعتبار أَن أصل الوضوءِ عبادة مقدمة بين يدي الصلاة، فإن فيه رفعةَ الدرجات.

وكذلك المشي إلى الجماعات للعبادة هو قربة وطاعة ويثاب عليه، ولكنْ باعتبار ما يحصلُ فيه للنفس من المشقة والمتاعب والنَّصَب؛ فهو كفارة.

---

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه أحمد عن أبي ذر رضي الله عنه.

وكذلك حبس النفس في المسجد لانتظار الصلاة ، ومنعها عن مألوفاتها من الخروج إلى مواضع تهواها ؛ فهو كفارة.

ولما كانت متاعبُ النفس ومكابدتُها وصبرُها في هذه الثلاثة المتقدمة باديةً قويةً ، أَخذتْ لقب الكفارات ، والثلاثة الباقية ـ وهي: إطعام الطعام ، وإفشاءُ السلام ، والصلاة في الليل والناس نيام ـ أَخذت رتبة الدرجات ، مع أَن لها اعتباراً في الكفارات ، ولكن الأَلقاب تتبع الحكم الغالب؛ كما بينَّ ذلك الحافظ ابن رجب الحنبلي وغيره ، والله تعالى أَعلم بجميع ما هناك.

وقد دلت هذه الأَحاديث على اهتمام الملإِ الأَعلى اهتماماً كبيراً بهذه الاعتبارات ، بدليل اختصام الملإِ الأَعلى وتقاولِهم فيها ، وهذا دليل على اختلاف مراتب الأَعمال في تكفير السيئات ورفعة الدرجات ، والله تعالى بها أَعلم ، وله الحُكْم فيها ، ولا معقِّب لحكمه سبحانه.

وهكذا فالأَعمال تُرفع إلى الملإِ الأَعلى ، وهي ما بين كفارات ودرجات ، أو كفارات ودرجات معاً ، وهناك يجري التقاول بين الملإِ الأَعلى في شأْن تلك الأَعمال والأَقوال على اختلاف أَنواعها ، فيتباحثون في الدرجات ومقتضياتها ومخوِّلاتها ، وأَيِّها أَحبُّ إلى الله تعالى ، وأَيِّها أَعظمُ درجةً وأكثرُ ثواباً ، ويتباحثون في الكفارات ومقدار ما تكفِّره من الذنوب والخطايا ، ومقدار ما تَقِي من العقوبات ، فيجري بينهم التقاول ، وربما اختلفوا في ذلك ، فَيُرْجِعُون الأَمر إلى رب العزة تبارك وتعالى ، وهو أَحكم الحاكمين وأرحم الراحمين ، فيحكم حكمه في ذلك ، ولا معقِّب لحكمه جل وعزَّ.

الحكمـة السـابعة في رفـع الأعمـال:

هـي أن تُقـابل بمكـافآتها، وتظهـرَ آثارهـا من حيـث الأَجـر والجزاءُ، وتأخذَ مواقعها في دار المقامة، **فهناك منها ما يقابل بالغِراس للأشجار الكثيرة والكبيرة تجري من تحتها الأنهار:**

كما جاءَ في الحديث الذي رواه الترمذي، عن أَنس رضي الله عنه، أَن النبي صلى الله عليه وآلـه وسلم قال: «لقيتُ ليلةَ أُسرِيَ بي إبراهيمَ عليه السلام فقـال لي: يا محمد أَقْـرىءْ أُمتك مني السلام وبشِّرهم أن الْجنة طيِّبـة التُّـرْبة، عذبة الماءِ، وأنَها قِيعانٌ، وأَن غِراسها: سبحان الله، والحمد لله، ولا إلَه إلا الله، والله أَكبر».

فَمَنْ قال: «سبحان الله» فقد غَرَس في الْجنة غرسةً، ومن قال: «الحمد لله» فله ذلك، وهكذا. فأرض الجنة واسعة كلَّ السَّعَة، وتُربتها طيبة، وماؤها عذب، فأَكثِرْ من الغرس فيها، فإن الغِراس معك.

وهناك ما يقابل ببناءِ البيوت أو القصور العالية في جنة عالية:

فعن أبي الدرداءِ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «مَن صلَّى الضحى ركعتين لم يُكتب من الغافلين، ومن صلَّى أَربعاً كُتب من العابدين، ومن صلَّى ستاً كُفي ذلك اليوم، ومن صلى ثمانية كتبه الله تعالى من القانتين، ومن صلَّى ثنتيْ عَشْرة ركعة بنى الله له بيتاً في الجنة، وما من يوم ولا ليلة إلا لله مَنٌّ يَمُنُّ به على عباده وصدقة، وما مَنَّ الله على أحد

من عباده أفضلَ من أَن يُلهمَه ذِكْره»[1].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما ، أَن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «من صام الأربعاءَ والخميس والجمعة بنى الله له بيتاً في الجنةِ؛ يُرى ظاهرهُ من باطنه ، وباطنه من ظاهره»[2].

وروى ابن ماجه ، عن عائشة رضي الله عنها: أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «من صلَّى بين المغرب والعشاءِ عشرين ركعةً بنى الله له بيتاً في الجنة».

وروى الإمام أحمد ، عن معاذ بن أَنس رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «من قرأَ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ عشرَ مراتٍ بنى الله له بيتاً في الجنة».

وروى الطبراني ، عن أَبِي أُمامة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «من قرأ ﴿حمٓ﴾ الدُّخَان في ليلةِ جمعةٍ أو يوم جمعة بنى الله له بيتاً في الجنة».

وعن جابر رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «من قال: سبحان الله العظيم وبحمده ، غُرِست له نخلةٌ في الجنة»[3].

---

(١) رواه الطبراني في (الكبير) برواية الثقات ، وقال الحافظ المنذري: ورواه البزار.

(٢) قال المنذري: رواه الطبراني في (الأوسط) ، ورواه في (الكبير) عن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه.

(٣) قال المنذري: رواه الترمذي وحسنه ـ واللفظ له ـ ورواه النسائي بلفظ: «غُرِسَت له شجرة في الجنة» ورواه ابن حبان في (صحيحه).

وعن ابن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من قال سبحان الله وبحمده، غُرِسَت له نخلة في الجنة» رواه البزار بإِسناد جيد.

وروى الطبراني، وابن أَبي الدنيا، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أَكْثِرُوا من غِراس الجنة؛ فإنّه عذبٌ ماؤها، طَيِّبٌ ترابها. فأَكثروا من غراسها».

قالوا: يا رسول الله وما غِراسُها؟

قال: «ما شاءَ الله، لا حول ولا قوة إلا بالله» كما في (ترغيب) المنذري.

وروى ابن ماجه، عن أَبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «مَن أخرج أَذىً من المسجد بنى الله له بيتاً في الجنة».

وهذا دليل على أَنَّ تنظيف بيوت الله تعالى أَجره كبير عند الله تعالى.

قال الحافظ المنذري: وفي إسناده احتمال للتحسين. اهـ.

الحكمة الثامنة في رفع الأعمال الصالحة إلى الله تعالى:

إن في رفعها إعلامَ الله تعالى وإِعلانَه للملإِ الأَعلى بإِخلاص ذلك الصالح الذي رُفع عمله الصالح، فإنه لا تُفتح أَبواب السماءِ، ولا يُرفع إلى الله تعالى من الأَعمال إلا ما كان خالصاً له، وأما العمل الذي ليس بخالص: يردُّ دون أَبواب السماءِ ولا يرفع.

جاءَ في الحديث الذي رواه ابن المبارك، عن ضَمْرَةَ بن حبيب

رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الملائكة يَرفعون أَعمال العبد من عباد الله يستكثرونه ويزكُّونه، حتى يبلغوا به حيث يشاءُ الله من سلطانه ـ أي: عند أبواب السماء الدنيا، كما دلت عليه بقية الأحاديث ـ فيوحي الله إليهم: إنكم حفَظةٌ على عبدي؛ وأنا رقيبٌ على مافي نفسه، هذا لم يُخْلِصْ لي عملَه، فاجعلوه ـ أي: عمله ـ في سِجِّين.

ويَصعدون بعمل العبد يستقلُّونه حتى يبلغوا به إلى حيثُ شاءَ الله من سلطانه، فيوحي الله تعالى إليهم: إنكم حَفظةٌ على عمل عبدي؛ وأنا رقيب على مافي نفسه، إنّ عبدي هذا أَخلص لي عمله، فاجعلوه في عليين».

ولذلك جاء في الحديث الذي رواه الحاكم وصحح إسناده، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال له حين بعثه إلى اليمن: «يا معاذ أَخلِصْ دينَك يَكْفِكَ العمل القليل».

يعني: أن قليلاً من العمل الخالص، خير من أَعمال كثيرة لا إخلاص فيها، وإذا وُجِدَتْ كثرة العمل مع الإخلاص فَبِهَا ونِعْمَتْ، ففي رفع العمل إلى الله تعالى شهادة بإِخلاص العامل وصلاحه.

وأما العمل الذي عَمِلَهُ صاحبه رياءً فلا يُرفع إلى الله تعالى:

روى الطبراني، عن أَنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا كان آخر الزمان صارت أُمتي ثلاثَ فِرَقٍ، فرقة يعبدون الله تعالى خالصاً، وفرقة يعبدون الله تعالى

رياءً ، وفرقة يعبدون الله تعالى لِيَسْتأْكلوا به الناس ، فَإِذا جمعهم الله تعالى يوم القيامة ، قال للذي يستأكل الناس: بعزتي وجلالي ما أَردْتَ بعبادتي.

فيقول: وعزتك وجلالك أَستأْكلُ به الناس.

قال: لم ينفعْك ما جمعتَ ، انْطلقوا به إلى النار.

ثم يقول للذي كان يعبده رياءً: بعزتي وجلالي ما أردت بعبادتي؟

قال: بعزتك وجلالك أَردت رياءَ الناس.

قال: لم يصْعد إليَّ منه شيءٌ ، انطلقوا به إلى النار.

ثم يقول للذي كان يعبده خالصاً: بعزتي وجلالي ما أَردت بعبادتي؟

قال: بعزتك وجلالك أنت أَعلم بذلك مَنْ أَردتُ به ، أَردتُ به ذكرك ووجهك.

قال: صدق عبدي انطلقوا به إلى الجنة»[1].

ومن هذه الوجوه التي ذكرناها يعلم المسلم علم اليقين فضل الأَعمال الصالحة والكلم الطيب ، وكرامتها عند الله تعالى ، وعلوَّ شرف منزلتها ومكانتها ، وأَن مقرها اللائق بها هو ذلك العالَمُ

---

(١) قال المنذري: رواه الطبراني في (الأوسط) من رواية عبيد بن إسحاق العطار ، وبقية رواته ثقات ، ورواه البيهقي عن مولى أنس رضي الله عنه ولم يسمه ، قال: قال أنس رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: فذكره باختصار. ا هـ.

العلويُّ القدسي ، ومن البديهي أن تكريم إنتاج المُنْتِج هو تكريم للمُنْتِج ، وتكريم عمل العامل هو تكريم للعامل.

فهذا التكريم الإلَهي ، والتشريف الرباني ، لأعمال الصالحين وأَقوال الطيبين لاشك أنَّ فيه تكريماً وتشريفاً لهم ، ورفعة لشأْنهم ، وعلوَّ منزلتهم وعظيم كرامتهم على الله تعالى ، وفي هذا إعلانُ كرامةِ المؤمنين عند الله تعالى ، وإعلانُ عزتهم ومجدهم في الملإِ الأَعلى والأَدنى ، وأيُّ كرامة أكرمُ من هذه الكرامة ، وأيُّ عزة أَعز من هذه العزة؟!

إذن الحقُّ والحقيقة فيما قاله سبحانه: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥۚ ﴾ الآية.

فعلى العاقل أن يطلب العزة مِمَّن له العزة جميعاً ، وسبيل ذلك هو الكلم الطيب والعمل الصالح ، اللهمّ وفقنا لذلك إنك سميع الدعاء.



مِمَّا أَكْرَم الله تعالى به المُؤْمِنينَ الذِيْنَ يَعْمَلُوْنَ الصَّالِحَاتِ وَشَرَّفهمْ بِه

إن الله تعالى كرّم عباده المؤمنين الذين يعملون الصالحات بأنواع الإكرام ، وَمَدَحهم وأَثنى عليهم ، وأَعلى مراتبهم ومنازلهم ، ورفع درجاتهم ، وشرَّفهم بأَنواع مراتب الشرف ، بحيثُ يعجز الإنسان عن استقصائها ، ونذكر موجزاً منها خشية الملل والسآمة.

فلقد شرفهم سبحانه بزيارته ، وبالوِفادة عليه ، وبمناجاته والتوجُّه إليه ، وبقربه ، وبحبه ، كما أكرمهم بأَنْ يكونوا من أهْل الله تعالى وخاصَّته ، وأكرمهم بذِكْره لهم ، وجَعَل قلوبهم زجاجات لمصابيح الإيمان.

وسنوضح ذلك مفصلاً إن شاء الله تعالى؛ ليزداد المؤمن إيماناً ، وليعلم يقيناً بأن المؤمن كريم على الله تعالى ، وأَن عبادة الله تعالى فيها الشرف الأَكبر ، وفيها العزة والكرامة ، لأَن فيها تقرُّباً إلى الله العزيز الكريم الحميد المَجيد.

وذلك مما يحمل المسلم على النشاط في عبادة الله تعالى ، والإِقبال عليها والمداومة والحِفاظ عليها ، وهو يَشعر بالعزة

والكرامة وشرف منزلته عند الله تعالى ، وفي الملإ الأَعلى والأَدنى.

١ ـ شرف زيارة رب العزة:

جاءَ في الحديث عن سلمان رضي الله عنه ، أَن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «مَن توضأَ في بيته وأَحسن الوضوءَ ، ثم أَتى المسجد فهو زائر الله تعالى ، وحقٌّ على المزور أن يُكرِم الزائر»[١].

فالمسجد بيت الله تعالى ، وقاصده للصلاة زائر الله تعالى.

وروى الطبراني عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً: «إنَّ بيوت الله تعالى في الأَرض المساجد ، وإن حَقّاً على الله أن يُكرم من زاره فيها».

وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره: قال عبد الرزاق: عن عمرو بن ميمون الأَزدي قال: وتركت أَصحابَ محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهم يقولون: إن المساجد بيوت الله في الأرض ، وإنه حقٌّ على الله أن يُكرم من زاره فيها. ا هـ.

كما أن الحاجّ زائرُ الله تعالى:

فعن أَبي ذر رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إنّ داود النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: إلَهي ما لعبادك عليك إذا هُمْ زاروك في بيتك؟

فقال سبحانه: لكلِّ زائرٍ حقٌّ على المزور ، حقاً يا داود إنَّ لهم

---

(١) قال المنذري: رواه الطبراني في (الكبير) بإسنادين أحدهما جيد ، وروى البيهقي نحوه موقوفاً على الصحابة بإسناد صحيح. ا هـ.

عليّ أن أُعافيَهم في الدنيا ، وأَغفر لهم إذا لقيتُهم»[1] .

٢ ـ شرف الوفادة على الله تعالى:

فالمصلُّون والحجّاج نالوا شرف الزيارة لربهم تعالى ، كما نالوا شرف الوِفادة عليه.

عن أَبي أُمامة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «من توضأَ ثم أَتى المسجدَ ، فصلى ركعتين قبل الفجر ، ثم جلس حتى يُصلِّيَ الفجر؛ كُتبت صلاته يومئذ في صلاة الأَبرار ، وكتب في وفد الرحمن»[2] .

كما أن الحجَّاج والعُمَّار هم وفد الله تعالى ، شرَّفهم الله تعالى بالوِفادة عليهِ:

عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «الحجَّاج والعُمّار وفد الله دعاهم فأَجابوه ، وسأَلوه فأَعطاهم»[3] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «الحجَّاج والعمار وفد الله ، إنْ دَعَوْه أجابهم ، وإنِ استغفروه غفر لهم».

قال الحافظ المنذري: رواه النسائي وابن ماجه ، وابن حبان

---

(١) قال المنذري: رواه الطبراني في (الأوسط).
(٢) قال المنذري: رواه الطبراني.
(٣) رواه البزار ورواته ثقات.

وابن خزيمة في صحيحهما ولفظهما: قال: «وفد الله ثلاثة: الحاجُّ والمعتمر والغازي»[1].

٣ ـ شرف المناجاة:

وأما شرف المناجاة فإن المصلِّيَ يناجِي ربَّه في صلاته.

روى ابن خزيمة في (صحيحه) عن أَبي هريرة رضي الله عنه قال: صلَّى بنا النبي صلى الله عليه وآله وسلم الظهر، فلما سلَّم نادى رجلاً كان في آخر الصفوف فقال: «يا فلانُ أَلا تتقي الله، أَلا تنظرُ كيف تصلي؟ إنّ أَحدكم إذا قام يصلي إنما يقوم يناجي ربَّه، فلينظرْ كيف يناجيه، إنكم ترون أنّي لا أراكم؟ إنِّي والله لأَرى مَنْ خلف ظهري كما أَرى مَنْ بَيْنَ يديَّ».

فالمصلِّي في صلاته يناجي ربه، فليحسن المناجاة وليُحْضِر قلبه:

روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «قال الله تعالى: قَسَمت الصَّلاة بيني وبين عَبْدِي نِصْفَين، ولعبدي ما سأل ـ وفي رواية: «فنصفُها لي ونصفُها لعبدي» ـ.

فإذا قال العبد: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال تعالى: حمِدني عبدي.

فإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قال: أَثنى عليَّ عبدي.

فإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ قال: مَجَّدَني عبدي.

---

(١) انظر (ترغيب) المنذري.

فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل.

فإذا قال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل».

ومعنى «قسمت الصلاة»: قال الحافظ المنذري: يعني: القراءَةَ، بدليل تفسيره بها، وقد تسمَّى القراءَة صلاةً لكونها جزءاً من أجزائها، والله تعالى أعلم. ا هـ.

وعن أَبي الأَحوص، عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يزال الله مُقبِلاً على العبد في صلاته مالم يلتفتْ، فإذا صَرَفَ وجهه انصرف عنه»(١).

وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا قام الرجل في الصلاة أقبل الله تعالى عليه بوجهه، فإذا التفتَ قال: يا ابن آدم إلى مَنْ تلتفت؟ إلى مَنْ هو خير لك مني؟ أَقْبِلْ إليَّ.

فإذا التفت الثانية قال مثل ذلك، فإذا التفت الثالثة صرف الله تبارك وتعالى وجهه عنه» رواه البزار وله شواهد.

وفي الحديث الذي رواه الترمذي وقال: حسن صحيح، عن الحارث الأشعري رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله

---

(١) رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي، وابن خزيمة في (صحيحه) والحاكم وصححه، كما في (ترغيب) المنذري.

وسلم قال: «إن الله تعالى أَمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات، وفيه: «وإنّ الله تعالى أمركم بالصلاة، فإذا صليتم فلا تلتفتوا، فإنَّ الله تعالى يَنصبُ وجهه لوجه عبده في صلاته مالم يلتفت...» الحديث وسيأْتي بتمامه.

فهنيئاً لمن أكرمه الله تعالى بالتوجُّه إليه، والإقبال عليه، فإنَّ في ذلك خيراً كثيراً، وإكراماً من الله تعالى كبيراً، لأنَّ مَنْ أَقبل على الكريم أكرمه، والله تعالى ذو الجلال والإكرام.

روى محمد بن نصر في كتاب (الصلاة) عن الحسن البصري مرسلاً، أنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «للمصلِّي ثلاثُ خصال: يَتَنَاثر البرُّ ـ أي: الخير والفضل ـ من عَنان السماءِ إلى مَفْرِق رأْسه، وتَحُفُّ به الملائكة من لدنْ قدميه إلى عَنان السماءِ، ويناديه منادٍ: لو يعلم المصلِّي من يناجي ما انفتل» أي: ما انعطف عن جهة القبلة.

٤ ـ شرف الأهلية والخصوصية:

وأَما شرف الأَهلية والخصوصية فهو ثابت لِعُمَّار بيوت الله تعالى بالصلوات والعبادات، والملازمين للتلاوات.

فقد روى الطبراني في (الأَوسط) عن أَنس رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «إن عُمَّار بيوت الله تعالى هم أَهل الله عز وجل»[1].

كما أَنَّ أَهل القرآن الكريم هم أَهلُ الله وخاصَّته:

---

(١) وكذا رواه البزار وأبو يعلى، والبيهقي كما في (الدر المنثور).

فعن أَنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن لله أَهْلِينَ من الناس».

قالوا: ومن هم يا رسول الله؟

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «أَهلُ القرآن هم أَهلُ الله وخاصَّتُه»[1].

٥ ـ شرف القرب:

قال تعالى: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩﴾.

وقال سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ الآية.

فلقد أَثنى الله تعالى على أَوليائه وأَحبابه بأَنهم يتسارعون في أَسباب التقرب إلى الله تعالى، ويتنافسون في ذلك، يرجون أَيُّهم أَقرب، فالقرب هو بُغية العابدين، ومتنافَسُ العارفين.

وقد بَيَّن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن الله تعالى يحبُّ من عبده أن يتقرب إليه، وأَنّ من تقرب إلى الله تعالى فإن الله تعالى يُقرِّبه ضعف ما تقرَّب به إلى ربه تعالى.

ففي (الصحيحين) عن أَبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أنا عند ظنِّ عبدي بي، وأَنا

---

(١) قال المنذري: رواه النسائي وابن ماجه والحاكم كلهم عن ابن مهدي، حدثنا عبد الرحمن بن بديل، عن أبيه، عن أنس رضي الله عنه، وقال الحاكم: ويروى من ثلاثة أوجه عن أنس رضي الله عنه، وهذا أجودها وقال المنذري؛ وهو إسناد صحيح. ا هـ.

معه إذا ذكرني ، فإنْ ذكرني في نفسه ذكرتُه في نفسي ، وإنْ ذكرني في ملأٍ ذكرتُه في ملأٍ خير منه ، وإنْ تقرَّب إليَّ شِبْراً تقربْتُ منه ذراعاً ، وإنْ تقرب إليّ ذراعـاً تقربتُ منه باعـاً ، وإن أتاني يمشي أتيتُـه هَرْولةً».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «قال الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه حيثُ يذكرني ، واللهِ لَلَّهُ أفرُح بتوبةِ عبده من أحدكم يجدُ ضالَّتَهُ بالفلاة ، ومَنْ تَقَرَّبَ إليّ شبراً تقربت إليه ذراعاً ، ومَنْ تقربَ إليّ ذراعاً تقربتُ إليه باعاً ، وإذا أَقبل إليّ يمشي أَقبلت إليه أُهرول»[1].

فالله تعالى يُحبُّ من عبده أن يتقرب إليه ، ليقرِّبه الله سبحانه ويشرفه بقربه جلّ وعلا ، وهذا القُرب هو أعظم الفضل وأكرم الفخر والشرف والمجد ، وبه مَدح الله تعالى خواصَّ عباده في الملإ الأعلى والأدنى ، قال سبحانه: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ فمدحهم سبحانه بالقرب.

وقال في عيسى عليه السلام: ﴿وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ ، وقال في موسى الكليم عليه السلام: ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾.

وقال سبحانه في عباده السابقين: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ ، فمدحهم بالقرب ، ومن المعلوم أن الحبَّ يكون على مقدار القرب ، كما يدل عليه الحديث السابق: «وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أُحبه» وكما يدل عليه قوله صلى الله عليه

---

(١) قال المنذري: رواه مسلم واللفظ له والبخاري بنحوه.

وآله وسلم: «وأَسأَلك حبَّكَ وحبَّ من يحبك، وحبَّ عمل يقربني إلى حبك» الحديث كما تقدم.

فمن كان أقربَ إلى الله عز وجل فهو أَحبُّ إليه، وإن أقرب المقربين وأحب المحبوبين إلى رب العالمين، هو إمام الأَنبياءِ والمرسلين، سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذي قال معلناً بمقام محبته «ألا وأنا حبيبُ الله تعالى ولا فخرَ»

يعني: أنه حبيبُ الله الأكرم المقَدَّمُ على كل حبيب، صلى الله عليه وآله وسلم، كما أن منزلته في القرب هي فوق كلِّ مقرَّب، يشهد له بذلك تقدمُه على جميع الأنبياء إماماً بهم وخطيباً فيهم، ويشهد بذلك ما خصَّه الله تعالى به من المقام المحمود، والشفاعة العظمى العامة التي لم يتقدم لها غيره، ومقام الوسيلة التي هي أَعلى منزلة في الجنة، لا ينبغي أن تكون إلا لواحد، قال صلى الله عليه وآله وسلم: «وأَرجو أَنْ أكونَ أنا هو» ولاشك أن رجاءَه محقَّق صلى الله عليه وآله وسلم.

روى الترمذي، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «سَلُوا الله لي الوسيلة».

قالوا: وما الوسيلة.

قال: «أعلى درجةٍ في الجنة» الحديث.

ورواه ابن مَرْدُوْيَهْ بلفظ: «سَلُوا الله لي الوسيلةَ».

قالوا: وما الوسيلة؟

قال: «القربُ من الله تعالى» كما في (الدر المنثور).

ثم إن هذا القرب وهذا التقرب الذي نبحث فيه ليس ذلك من جنس قرب المخلوقات من بعضها ، فإن الله تعالى ليس كمثله شيءٌ ، ولا شبيه له ولا نظير ، بل هو منزَّه عن الشَّبَه بالمخلوقات من كل الوجوه والاعتبارات ، ولذلك لما ذكر صلى الله عليه وآله وسلم أَحاديث القرب والتقرب قرنها بالتنزيه والإجلال لرب العزة ، كما جاءَ في الحديث ، عن أَبي ذر رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «من تقرب إلى الله عز وجل شبراً تقرب إليه ذراعاً ، ومن تقرب إليه ذراعاً تقرب إليه باعاً ، ومن أَقبل إلى الله عز وجل ماشياً أَقبل إليه مُهَرْوِلاً ، والله أَعلى وأَجلُّ ، والله أَعلى وأَجلُّ ، والله أَعلى وأَجلُّ» رواه أَحمد ، والطبراني وإسنادهما حسن ، كما في (ترغيب) المنذري.

والتقرب إلى الله تعالى إنما يكون بالأَقوال والأَعمال والأَحوال التي شرعها الله تعالى لعباده ، وقد جاءَ بيانها في الأَحاديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

فالتـقـرب بالأَقــوال:

هو التقرب إليه سبحانه بالتسبيح والتحميد والتكبير والتهليل والاستغفار ، إلى ما هنالك من الأَذكار التي شرعها الله تعالى.

وأَقرب ما يُتقرب به إليه سبحانه هو تلاوة آياته وكلامه جل وعلا ، كما جاءَ في الحديث الذي رواه الحاكم وصححه ، عن أَبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنكم لا تَرْجِعُون إلى الله تعالى ـ أَي: لا تتقربون إلى الله تعالى ـ بشيءٍ أَفضلَ مما خرج منه» أَي: بدأَ منه وصدر عنه ؛ يعني

القرآن «فإنه منه بدأَ وإليه يعود»[1].

وإنما كان الأَمر كذلك لأَنَّ كلام الله تعالى هو أَفضل الكلام، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: «وفضلُ كلامِ الله تعالى على سائر الكلام كفضل الله تعالى على خلقه» الحديث، كما رواه الترمذي والدارمي.

وروى الدارمي في (سننه) عن عطية أَنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما من كلام أَعظمُ عند الله من كلامه، وما ردَّ ـ أي: ما تقرَّب ـ العباد إلى الله كلاماً أحبَّ إليه من كلامه».

وروى محمد بن نصر في (قيام الليل) عن خبَّاب بن الأَرتِّ رضي الله عنه أَنه كان يُخاطب نفسه فيقول: (يا هَنَتَاه تقرَّبْ إلى الله تعالى ما استطعتَ، فإنك لن تتقرب إلى الله تعالى بشيءٍ أحبَّ إليه من كلامه).

التقرب بالأعمال:

وأَما التقرب إلى الله تعالى بالأَعمال، فأَولها وأَعظمها قرباً هي الفرائض، ثم يأْتي بعد ذلك قُرب النوافل زيادةً على الفرائض.

قرب الفرائض:

جاء في (صحيح) البخاري، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنَّ الله تعالى قال: مَنْ عادىٰ لي وليّاً فقد آذَنْتُه بالحرب، وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيءٍ أَحبَّ إليَّ مما افترضتُه عليه، ولا يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتى أُحِبَّه، فإذا أَحببتُه كنتُ سمعَه الذي يَسمع به، وبصَرَه الذي يُبصر

---

(١) قال المنذري: ورواه أبو داود في مراسيله عن جُبَيْر بن نفير. ا هـ.

به ، ويدَه التي يبطشُ بها ، ورِجْلَه التي يمشي بها ، ولئنْ سأَلني لأُعطينَّه ، ولئنِ استعاذني لأُعيذنَّه» الحديث.

ورواه الطبراني عن عروة ، عن عائشة رضي الله عنها ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «يقول الله تعالى: من آذى لي ولياً فقد استحلَّ محاربتي ، وما تقرب إِليَّ عبدي بمثل أَداءِ فرائضي ، وإن عبدي ليتقرَّب إِليَّ بالنوافل حتى أُحبه ، فإِذا أَحببتهُ كنتُ عينَه التي يُبصر بها ، ويدَه التي يبطش بها ، ورجْلَه التي يمشي بها ، وفؤادَه الذي يَعْقِل به ، ولسانه الذي يتكلم به ، إِنْ دعاني أَجبتُه ، وإِن سأَلني أَعطيته ، وما ترددتُ في شيءٍ أَنا فاعلُه تَرَدُّدي عن موته ، وذلك أَنه يَكره الموتَ وأَنا أَكره مَسَاءَته»[1] ورواه ابن أَبي الدنيا وغيره.

ورواه الطبراني وغيره بالسند، عن أَبي أُمامة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «يقول الله تعالى: من أَهان لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة ، ابنَ آدم ـ يعني: يا ابن آدم ـ إنك لنْ تُدْرك ما عندي إلا بأَداءِ ما افترضتُه عليك ، ولا يَزال عبدي يتقربُ إِليَّ بالنوافل حتى أُحبَّه ، فأَكُونُ قلبَه الذي يَعقل به ، ولسانه الذي ينطق به، وبصرَه الذي يبصر به، فإِذا دعاني أَجبتُه، وإِذا سأَلني أَعطيته ، وإِذا استنصرني نصرتُه ، وأَحبُّ عبادةِ عبدي إِليَّ النصيحة»[2].

---

(١) قال الحافظ ابن رجب رحمه الله تعالى في إسناد الطبراني لهذا الحديث: وهذا إسناد جيد ، ورجاله كلهم ثقات مخرج لهم في الصحيحين ، سوى شيخ الطبراني فإنه لا يحضرني الآن معرفة حاله... إلخ.

(٢) وقد ذكره الحافظ ابن رجب ، وبيَّن أن فيه راويين ضعيفين.

وخرَّجه الطبراني وغيره بالسند ، عن أَنس رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، عن جبريل ، عن ربه تعالى قال: «من أَهان لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة ، وما ترددتُ عن شيءٍ أَنَا فاعله ما ترددتُ في قبض نَفْس عبدي المؤمن ؛ يكره الموت وأَنا أَكره مَساءَته ، ولا بدَّ له منه.

وإِنَّ من عبادي المؤمنين من يريد باباً من العبادة فأَكفَّه عنه أَنْ لا يدخلَه عُجبٌ فيفسده ذلك.

وما تقرب إِليَّ عبدي بمثل أَداءِ ما افترضتُ عليه ، ولا يزال عبدي يتنفَّل حتى أُحبه ، ومن أَحببته كنتُ له سمعاً وبصراً ويداً ومؤيِّداً، دعاني فَأَجبته ، وسأَلني فأَعطيته ، ونَصَح لي فنصحت له.

إِنَّ من عبادي من لا يُصلح إِيمانَه إِلا الغنى ؛ ولو أَفقرتُه لأَفسده ذلك ، وإِن من عبادي مَن لا يُصلح إِيمانَه إِلا الفقرُ؛ وإِن بسطتُ له لأَفسده ذلك ، وإِن من عبادي من لا يصلح إِيمانه إِلا السقمُ؛ ولو أَصححتُه لأَفسده ذلك ، وإِن من عبادي من لا يُصلح إِيمانَـهُ إِلا الصحةُ؛ ولو أَسقمته لأَفسده ذلك ، إِني أُدبِّر عبادي بعلمي بما في قلوبهم ، إِني عليم خبير»[(١)].

وروى ابن أَبي الدنيا ، والحكيم الترمذي في (نوادر الأُصول) ، وابـن مَـرْدُويـهْ ، وأَبُـو نعيـم فـي (الحليـة) ، وابـن عسـاكـر فـي (تاريخه)[(٢)] عن أَنس رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وآله

---

(١) أورده الحافظ ابن رجب في (جامع العلوم والحكم) ونبه على ضعف بعض رواته.

(٢) انظر (الدر المنثور).

وسلم ، عن جبريل ، عن الله عز وجل قال: «مَن أَهان لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة ، وإني لأَغضب لأَوليائي كما يغضب الليثُ الحَرِدُ ـ الغضبان ـ وما تقربَ إليَّ عبدي بمثل أَداءِ ما افترضتُ عليه» الحديث على النحو الذي قبله.

ففي هذه الأَحاديث والروايات المتقدمة بيانُ فضلِ أَولياءِ الله تعالى عند الله تعالى ، وَغَيْرتِه عليهم ، وانتصارِه سبحانه لهم ، وبيانُ طريق موالاته سبحانه ومحبته والتقرب إليه ، وذلك بأَداءِ ما افترض الله تعالى من الفروض العينية والكفائية ، ثم التقرب إليه سبحانه بالنوافل على الوجه الذي شرعه الله تعالى ، فمن ظَفِر بذلك فقد أَفلح ونجح ، ونال من إكرام الله تعالى له وعنايته به ، وهذا ما أَشار إليه بقوله: «فإذا أَحبَبْتُه كنتُ سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها. . .» إلى تمام الحديث.

والمعنى أَنَّ الله يتولَّى ذلك العبد في سمعه وبصره وحواسِّه وجوارحِه ، فلا يَصرفُ سمعه وبصره وحواسَّه إلا لما فيه رضاه سبحانه ، ولا يُحرك جوارحه إلا إلى ما يقرِّبه إلى الله تعالى ، فإن اعترتْهم غفلةٌ أَو وقعوا في خطيئة ؛ تذكَّروا وانتبهوا ، فتابوا وأَنابوا[1].

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله تعالى في شرحه لهذه الجملة من الحديث قال: والمراد مِن هذا: أَنَّ مَن اجتهد بالتقرب

---

(١) وقد ذكرنا أقوالَ العلماء في شرح هذا الحديث الشريف في كتاب (الصلاة في الإسلام) بما يغني عن إعادته هنا.

إلى الله تعالى بالفرائض ، ثم بالنوافل ، قرَّبه الله تعالى إليه ، ورقَّاه من درجة الإيمان إلى درجة الإحسان ، فيصيرُ يعبد الله تعالى على الحضور والمراقبة كأنه يراه ، فيمتلئُ قلبه بمعرفة الله تعالى ومحبته وعظمته وخوفه ، ومهابته وإجلاله ، والأُنس به والشوق إليه ، حتى يصير هذا الذي في قلبه مشاهَداً له بعين البصيرة ، كما قيل:

ساكنٌ في القلب يَعْمُرُه ... لستُ أَنساه فأَذكُرُه

غاب عن سمعي وعن بصري ... فَسُوَيدا القلبِ تُبصرُه

ثم قال: وإلى هذا المعنى أَشار النبي صلى الله عليه وآله وسلم في خطبته لما قدم المدينة فقال: «أَحِبُّوا الله من كلِّ قلوبكم» كما ذكره ابن إسحاق في سيرته.

قال: فمتى امتلأَ القلب بعظمة الله تعالى محا ذلك من القلب كلَّ ما سواه ، ولم يَبقَ للعبد شيءٌ من نفسه وهواه ، ولا إرادة إلا لما يريده منه مولاه ، فحينئذ لا يَنطِق العبد إلا بذكره ، ولا يتحرك إلا بأَمره ، فإن نَطَقَ نَطَقَ بالله ، وإن سَمِعَ سَمِعَ بالله تعالى ، وإنْ نَظَرَ نَظَرَ باللهِ تعالى ، وإن بَطَشَ بَطَش به.

قال: فهذا هو المراد بقوله: «كنتُ سمعَه الذي يسمع به ، وبصرَه الذي يبصر به ، ويدَه التي يبطش بها ، ورجلَه التي يمشي بها».

ثم قال رحمه الله تعالى: ومِنْ هذا كان بعض السلف كسليمان التيمي يقولون: إنه لا يُحْسِن أَن يَعصِيَ الله تعالى.

وأَوصت امرأَة من السلف أَولادها فقالت لهم: تَعَوَّدُوْا حبَّ الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، وطاعة الله ورسوله صلى الله

عليه وآله وسلم ، فإن المتقين أَلَفُوا بالطاعة ، فاستوحشت جوارحهم من غيرها ، فإنْ عَرَض لهم الملعون ـ إبليس ـ بمعصيته مرَّت المعصية بهم محتشمةً ، فهم لها منكرون.

ومن هذا المعنى: قولُ أَمير المؤمنين عليّ رضي الله تعالى عنه: إنْ كنا ـ أي: إنه كنا ـ لنَرَىٰ أَن شيطان عمرَ رضي الله عنه لَيَهَابُهُ أَنْ يأمره بالخطيئة. اهـ.

فمن كان همه الأكبر هو رضاءَ الله تعالى ، وهمتُه منصرفةً فيما يقربه إلى الله تعالى ، فهو من الصالحين الذين تولاهم الله تعالى.

وقد جاءَ في الحديث الذي رواه الحاكم وغيره ، عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً: «من أَصبح وهمُّه غيرُ الله فليس من الله ، ومن أَصبح لا يَهتمُّ بالمسلمين فليس منهم».

وكان داود الطائي رحمه الله تعالى يناجي ربه تعالى في الليل ويقول: همُّك عَطَّلَ عليَّ الهموم ، وحال بيني وبين السُّهاد ـ أي: النوم ـ وشوقي إلى النظر إليك أَوبقَ ـ أي: أَهلك وسلب ـ مني اللذات ، وحال بيني وبين الشهوات[1]. اهـ.

فالتقرب إلى الله تعالى إنما يكون بأَداءِ الفرائض أَولاً ، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (أَفضل الأَعمال أَداءُ ما افترض الله تعالى ، والورع عما حرم الله تعالى ، وصدق النية فيما عند الله).

وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه في خطبته: أَفضل العبادات أَداءُ الفرائض ، واجتناب المحارم. اهـ. وذلك لأَن الله

---

(١) انظر (جامع العلوم والحكم) لابن رجب.

تعالى فرض على عباده هذه الفرائض ليقرِّبَهم بها إِليه ، ويتفضلَ عليهم برضوانه ورحمته .

وإِن أَعظم الفرائض التي تُقرِّب إِليه الصلاة ، قال الله تعالى : ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴾ ، وجاء في الحديث الذي رواه مسلم ، عن أَبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «أَقربُ ما يكونُ العبدُ من ربه وهو ساجد، فأَكثروا الدعاءَ» .

وروى الطبراني في (الأوسط) عن حذيفة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «ما مِنْ حالةٍ يكون العبد عليها أَحبَّ إِلى الله من أَن يراه ساجداً يُعَفِّر وجهه في التراب» .

وعن ربيعة بن كعب الأَسلمي رضي الله عنه قال : كنت أَبيتُ مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فآتيه بوَضُوئه وحاجته ، فقال لي : «سَلْني» .

فقلت : أَسأَلك مرافقتك في الجنة .

قال : «أَوَ غيرَ ذلك» .

قلت : هو ذاك .

قال : «فأَعِنِّي على نفسك بكثرة السجود»[1] .

وروى الإِمام أَحمد ، عن أَبي فاطمة رضي الله عنه قال : قال لي نبيُّ الله صلى الله عليه وآله وسلم : «يا أَبَا فاطمة إِنْ أَردتَ أَنْ تَلْقاني فأَكْثِرِ السجود»[2] .

---

(١) رواه مسلم .
(٢) انظر (ترغيب) المنذري .

قرب النوافل:

ثم هناك قرب النوافل، وهو الاجتهاد في نوافل الطاعات، والانكفاف عن دقائق المكروهات، وذلك يُوجب للعبد مَحَبَّة الله تعالى كما قال: «ولا يزال عبدي يتقربُ إليَّ بالنوافل حتى أُحبه».

فالسِّباقُ بالخيرات والطاعات، والبعدُ عن المكروهات، والتورُّعُ عن المشتَبِهات: ذلك من أَقرب القربات إلى ربِّ البريات.

جاءَ في الحديث الذي رواه الطبراني والأَصبهاني، في مناجاة موسى عليه السلام، عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً قال: «وكان فيما ناجاه ربُّه أَنْ قال: يا موسى إنه لم يَتَصَنَّع إليَّ المتصنِّعون بمثل الزهد في الدنيا، ولم يتقرَّب إليَّ المتقربون بمثل الورع عما حرَّمت عليهم، ولم يتعبَّد إليَّ المتعبدون بمثل البكاءِ من خشيتي.

فقال موسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام: يا رب البرية كلِّها، ويا مالك يوم الدين، ويا ذا الجلال والإكرام، ماذا أَعددتَ لهم، وماذا جزيتَهم؟

قال سبحانه: أَما الزهَّاد في الدنيا: فإني أَبحْتُهم جنتي يَتَبَـوَّؤون حيث شاؤُوا؛ وأَما الوَرِعُون عما حرمت عليهم: فإنه إذا كان يوم القيامة لم يبق عبد إلا ناقشته وفتَّشْته، إلا الورعين فإني أَستحييهم - أي: كرماً مني - وأُجِلُّهم وأُكرمهم، فأُدخلهم الجنة بغير حساب، وأَما البكَّاؤُون من خشيتي فأَولئك لهم الرفيق الأَعلى لا يُشَارَكون فيه»[1].

---

(١) انظر (ترغيب) المنذري ٤: ١٥٩، ٢٣٢.

هذا وإنَّ من أَعظم النوافل الصلاتية قرباً قيام الليل ، كما أَرشَدنا إلى ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

روى الترمذي ، عن أَبي أُمامة رضي الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «عليكم بقيام الليل فإنه دَأْبُ الصالحين قبلَكم ، وقربةٌ إلى ربكم ، وَمكْفَرَة للسيئات».

وروى الطبراني ، عن أبي أُمامة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «عليكم بقيام الليل فإنه دَأْبُ الصالحين قبلكم ، ومَقْرَبةٌ لكم إلى ربكم ، ومَكْفَرةٌ للسيئات ، ومَنْهاة عن الإِثم ، ومَطْرَدَة للداءِ عن الجسد».

فمن واظب على قيام الليل التحق بالصالحين وتقرَّب إلى رب العالمين ، وقَوي بدنُه ، وصَحَّ جسده ، وكُفِّرت سيئاته ، وكَثُرت حسناته ، لأَنه يكون أَتى بأَفضل الصلوات بعد الفريضة.

روى مسلم ، عن أَبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أَفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم ، وأَفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل».

وروى الطبراني ، عن ابن مسعود رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «فضل صلاة الليل على صلاة النهار: كفضل صدقة السِّر على صدقة العلانية».

فالمواظبة على قيام الليل هي دأْب الصالحين وشعارهم ، وهو طريق المتقربين والمسارعين السابقين بالخيرات ، وذلك لأَن في جوف الليل قرباً من رب العزة خاصاً ، فتقرُّبُ العبدِ إلى ربه في ذلك الوقت له حكم خاص.

روى الترمذي ، وابن خزيمة ، عن عَمرو بن عَبَسَةَ رضي الله عنه ، أَنه سمع النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «أقربُ ما يكونُ الربُّ من العبد في جوف الليل الآخر ، فإن استطعتَ أَن تكون ممن يذكر الله تعالى في تلك الساعة فكنْ» قال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب.

يعني: فابذل جهدك ما استطعتَ أَن تكون ممن يذكر الله تعالى في تلك الساعة ، واغتنمْها واحرصْ عليها ، ولا تضيعْها ، فإنها التجارةُ الرابحة والوظيفة الناجحة ، فيها تفتح أَبواب السماءِ ، ويستجاب فيها الدعاءُ ، ويجود رب العزة بالعطاءِ والغفران والإِحسان.

روى الشيخان ، عن أَبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ينزلُ ربُّنا كلَّ ليلة إلى السماءِ الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخِر فيقول: مَن يدعوني فأَستجيبَ له ، من يسألني فأُعطيَه ، من يَستغفرني فأَغفرَ له ، من يُقرضُ غيرَ عديمٍ ولا ظَلومٍ؛ حتى يطلع الفجر».

واختم صلاة الليل بالاستغفار: روى ابن جرير وغيره ، عن أَنس رضي الله عنه قال: أَمَرَنا رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم أَن نستغفر بالأَسحار سبعين استغفارة.

وَمَنْ واظب على ذلك نال شرفَ رتبةِ المستغفرين بالأَسحار الذين مَدَحَهم الله تعالى في قوله: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ وقوله: ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.

روى ابن جرير ، عن جعفر بن محمد رضي الله عنهما قال:

(من صلى من الليل ، ثم استغفر في آخر الليل سبعين مرةً: كُتِب من المستغفرين).

فنوافل العبادات لها آثارها العظيمة وفضائلها الكريمة:

أولاً: أنها تكمل نقص الفرائض:

جاءَ في (سنن) الترمذي ، من حديث ابن قَبِيْصَةَ رضي الله عنه قال: قدمتُ المدينة وقلتُ: اللهم ارزقني جليساً صالحاً ، قال: فجلست إِلى أَبي هريرة رضي الله عنه فقلتُ: إِني سأَلت الله تعالى أَنْ يرزقني جليساً صالحاً ، فحدِّثني بحديث سمعتَه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «إِن أَولَ ما يُحاسَب به العبد يوم القيامة مِن عمله: صلاتُه ، فإِن صلحتْ فقد أَفلح وأَنجح ، وإِن فسدت فقد خاب وخسر ، وإِن انتقص من فريضته شيئاً قال الله تعالى للملائكة: انظرُوا هل لعبدي مِن تطوع ، فَيُكَمَّل به ما انتقص من الفريضة ، ثم يكون سائر عمله على ذلكً»(١).

ثانياً: إِن نوافل العبادات هي أبواب الخير الإِلَهي والفضل الرباني: فمن دخل في النوافل فقد دخل أَبواب الخير والكرم والفضل من رب العالمين ، كما بيَّن ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وحثَّ عليه:

روى الترمذي وصححه ، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال:

---

(١) قال الترمذي: حديث حسن غريب. ا هـ ورواه الطبراني في (الأوسط) من طريقين آخرين ، كما في (ترغيب) المنذري.

قلت: يا رسول الله أَخبِرْني بعملٍ يُدخِلني الجنة ويُباعدني من النار.

فقال له صلى الله عليه وآله وسلم: «لقد سأَلتَ عن عظيم، وإنه لَيسيرٌ على مَنْ يسَّره الله عليه: تعبدُ الله لا تُشْرِكُ به شيئاً، وتقيمُ الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصومُ رمضان، وتحجُّ البيت».

ثم قال له صلى الله عليه وآله وسلم: «أَلا أَدلُّكَ على أبواب الخير»؟ قلت: بلى يا رسول الله.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «الصومُ جُنَّةٌ، والصدقةُ تُطفئُ الخطيئةَ كما تطفئُ الماءُ النارَ، وصلاة الرجل في جوف الليل» - جاءَ في نسخة للترمذي: «شعار الصالحين» - ثم قرأَ قول الله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ إلى تمام الحديث.

فالداخل في أَبواب النوافل هو من السابقين بالخيرات بإِذن الله تعالى، كما أَشار إِليهم بقوله سبحانه: ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

ثالثاً: إِنَّ مَنْ تقرب إلى الله تعالى بالنوافل نال مرتبة المحبة لله تعالى والمحبوبية منه:

كما دل قوله صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث السابق: «ومازال عبدي يتقرَّبُ إِليَّ بالنوافل حتى أُحبه» ونال توليته سبحانه، كما دلَّ عليه قوله: «فإِذا أَحببتُه كنتُ سمعَه» الحديث، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، ومَنْ تولَّاه الله تعالى فلا يَكِلُه إِلى نفسه ولا إِلى غيره، وبذلك ينال سعادة الدنيا والآخرة.

روى النسائي ، والحاكم ، عن أَنس رضي الله عنه ، أَن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لابنته السيدة فاطمة رضي الله عنها: «ما يَمْنَعُكِ أَنْ تَسْمعي ما أُوصيكِ به ، أَنْ تقولي إِذا أَصبحتِ وإِذَا أَمسيت: يا حيُّ يا قيومُ برحمتك أستغيث ، أَصلحْ لي شأْني كلَّه ، ولا تكِلْني إِلى نفسي طرفةَ عين».

٦ ـ شرف المحبة:

لقد أَكرم الله تعالى عباده المؤمنين وشَرَّفهم بمحبته سبحانه ، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ وشَرَّفهم شرفاً أَكبر ، وكرَّمهم بما هو أَعظم ، وذلك بمحبته سبحانه لهم فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ...﴾ الآية.

وإِن حُبَّ الله تعالى لعبده المؤمن لهو المجدُ الأَعلى ، والشرف الأَسمى ، والفوز الأَكبر ، والفضل الأَعظم ، وذلك أَن الله تعالى إِذا أَحبَّ عبده تولاَّه وتصرَّف في حواسِّه وجوارحه نحو مرضاتِه سبحانه ، وأَذاقه حلاوة طاعاته ولذة عباداته ، وحبَّبه فيما يُحبه سبحانه ، ويقربه إِليه ، وكرَّه إِليه ما يكرهه سبحانه ويُبْعِدُ عنه ، وحماه حمايةً خاصة مما يشغله عنه.

روى الترمذي ، عن قَتَادة بن النعمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إِذا أَحب الله عبداً حَمَاه من الدنيا كما يَحْمِي أَحدُكم سقيمَه الماءَ».

وأَما إِعلانه سبحانه محبتَه لعبده وتحبيبَه إِياه لكرام عباده ، فقد دل على ذلك الحديث المتقدم: «إِذا أَحب الله عبداً نادى جبريلَ:

يا جبريلُ إني أُحب فلاناً فأَحبَّه ، فيحبه جبريل ، ثم ينادي في السمٰوات: إن الله يحب فلاناً فأَحبوه ، فيحبونه ، ثم تنزل له المحبة في الأَرض».

وأَمـا تـوليـةُ الله تعـالى لعبـده المحبـوب: فقـد دل علـى ذلك الحديث المتقدم: «فإذا أَحببتُه كنتُ سمعَه الذي يسمعُ به ، وبصرَه الذي يُبصر به ، ويدَه التي يبطش بها ، ورجلَه التي يمشي بها» أَي: تولاه في حواسه وجوارحه وتقلباته وتحركاته ، ووجَّهه نحو طاعته ومرضاته سبحانه ، وهذه هي النعمة العظمىٰ ، والسعادة الكبرى التي ينبغي للمؤمن أن يسعى جادّاً في الحصول عليها والظفر بها.

فقد روى الترمذي ، أَن النبي صلى الله عليه وآله وسلم علَّم الحسنَ بنَ عليٍّ رضي الله عنهما أنْ يقول: «اللهم اهدِني فيمن هديتَ ، وعافني فيمن عافيت ، وتولَّني فيمن توليت ، وبارِكْ لي فيما أَعطيت ، وَقِني شرَّ ما قضيت ، فإنك تَقضِي ولا يُقضى عليك ، وإنه لا يَذِلُّ من واليت ، ولا يَعِزُّ من عاديت ، تباركت وتعاليت ، فلك الحمد على ما قضيت ، أَستغفرك وأَتوب إِليك».

فمن جملة ما علَّمه صلى الله عليه وآله وسلم أَن يدعو به: توليةُ الله تعالى إِياه ، ذلك لأَنَّ من تولاه الله تعالى لَا يكِلُه إِلى غيره سبحانه ، ولا يُولِّيه سبحانه غيره ، وهذا فيه الفلاح والنجاح في الدنيا والآخرة.

روى الإِمام أَحمد بإِسناد جيد ، عن عائشة رضي الله عنها ، أَن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «ثلاثٌ أَحْلِفُ عليهن: لا يَجعل الله مَن له سهمٌ في الإِسلام كمن لا سهم له ، وأَسهمُ

الإسلام ثلاثة: الصلاة والصوم والزكاة؛ ولا يَتولَّى اللهُ عبداً في الدنيا فيولِّيه غيرَه يوم القيامة؛ ولا يُحب رجلٌ قوماً إلا جعلِه الله تعالى معهم».

اللهم ارزقنا حبَّ نبيك سيدِنا محمدٍ صلى الله عليه وآله وسلم، وحبَّ أَصحابِه وأَتباعِه، واجعلنا معهم آمين.

وعن أَمير المؤمنين عليٍّ كرم الله وجهه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ثلاثٌ هنَّ حقٌّ: لا يَجعل الله من له سهم في الإسلام كمن لا سهم له، ولا يتولى الله تعالى عبداً فيولِّيه غيره، ولا يحبُّ رجلٌ قوماً إلا حُشِر معهم»[1].

* * *

---

(١) رواه الطبراني في (الصغير والأوسط) بإسناد جيد، كما في (الترغيب) للمنذري.

عَلاَمَةُ المَحَبَّةِ الصَّادِقَةِ لله تَعَالى
وَدَلِيلُ صِحَّتِهَا

وقد يسأَل الإنسان عن علامة المحبة الصادقة لله تعالى ودليل صحتها؟.

فالجواب عن ذلك قد بيَّنه الله تعالى في قوله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

روى ابن جرير، عن الحسن قال: قال قوم على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: يا محمد إنا نحبُّ ربنا، فأَنزل الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾، قال: فجعل اتِّباع محمد صلى الله عليه وآله وسلم عَلَماً لحبه وعذابِ مَنْ خالفه.

وقد جاءَ نحو هذا عن كثير من السلف في سبب نزول هذه الآية الكريمة.

وقد بيَّن الله تعالى فيها علامة المحبة الصادقة لله تعالى، وبيَّن فيها نتيجة المحبة الصادقة لله تعالى، وهذان أَمران عظيمان.

أَما علامة المحبة الصادقة لله تعالى فهي اتِّباع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فمن اتبعه حقاً فهو محبٌّ لله تعالى حقاً،

ومن أَحب الله تعالى حقاً فإن الله تعالى يحبه ويرضى عنه ، فيغفر له ذنبه ، وهذا هو المطلب الأَسمى ، فمنِ ادَّعى محبة الله ولم يتبع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فهو كاذب في دعواه.

اللهم وفقنا لاتباع نبيك سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وحببنا فيك ، وارزقنا محبتك ، يا أرحم الراحمين.

وقد فصَّل الله تعالى في كتابه العزيز ، وبيَّن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في أَحاديثه الشريفة تلك الأَعمالَ والخصالَ التي من تحقَّق بها فإنه يكون محباً لله تعالى ، ويكون ممن أَحبهم الله تعالى ، ونذكر جملة موجزة من تلك الأَعمال والخصال لعل من تحقَّق بها يرتقي إلى مقام: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾:

فهو سبحانه يحبُّ التوابين ، جمع توَّاب ، وهو الذي إذا أَذنب بادر إلى التوبة ، ولم يُصِرَّ على ذنبه.

والتوبة في أَصل معناها اللغوي هي: الرجوع ، والمراد بها شرعاً: رجوع العبد إلى ربه راجياً منه مغفرة ذنبه ، وذلك الرجوع يكون: بالإقلاع عن الذنب ، والندم على فعل الذنب ، والعزم على أَن لا يعود ، وإذا كان الذنب له علاقة بالمخلوق فيجب عليه أَن يؤدِّيه حقه ، أَو يعفوَ عنه صاحبُ الحق.

ومما يُساعده على التوبة ويحملُه عليها: تركهُ صحبةَ الأَشرار ، والتحاقُه بالأَخيار ، وهذا أَمر لا بُدَّ منه لمن أَراد أَن يتوب حقاً ، كما جاءَ ذلك في الأَحاديث النبوية.

فالله تعالى يُحبُّ من عبده المؤمن أَن يتوب إليه ليتوبَ عليه ،

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: فتوبوا لله ليتوب عليكم.

وهو سبحانه يفرح بتوبة عبده المؤمن:

روى البخاري ومسلم ـ واللفظ لمسلم ـ عن أَنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «للهُ أَشدُّ فرحاً بتوبة عبده حين يتوبُ إليه من أَحدكم كان على راحلته بأَرض فلاةٍ، فانطلقتْ عنه وعليها طعامُه وشرابُه، فأَيِسَ منها، فأَتى شجرةً فاضطجع في ظلِّها قد أَيِسَ من راحلته، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمةٌ عنده، فأَخذ بخِطامِها ثم قال من شدة الفرح: اللهم أَنت عبدي وأَنا ربك. أَخطأَ من شدة الفرح»[١].

ومن رحمته سبحانه بعباده: أَنه يَقبل توبتَهم مع التجاوز عنهم، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾.

فلم يقل سبحانه: وهو الذي يقبل من عباده، بل قال: ﴿عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ لأَنه ضَمَّن القبول معنى التجاوز والصفح، أَي: يقبل منهم ويتجاوز عنهم ويصفح، ولولا تجاوزه لقصرت توبتهم عن ذنوبهم.

ومن رحمته سبحانه: أَنه فتح لعباده باب التوبة، فلا يُغلق حتى تَطْلُع الشمسُ من مغربها:

فعن صفوانَ بنِ عَسَّال المُراديِّ رضي الله عنه، عن النبي صلى

---

(١) انظر (ترغيب) المنذري.

الله عليه وآله وسلم قال: «إِنَّ مِن قِبَلِ المغربِ لَباباً مسيرةُ عرضِه أَربعون عاماً ـ أو«سبعون سنة» ـ فَتَحه الله عز وجل للتوبة يومَ خلقَ السماواتِ والأَرضِ ، فلا يُغلقه حتى تطلُع الشمس منه». قال: الحافظ المنذري: رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

فقد فَتَح الله تعالى باب التوبة لعباده في الليل والنهار ، وأَعلن لهم أَنه يقبلها منهم حتى تطلُع الشمس من مغربها.

روى مسلم ، عن أَبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إِن الله تعالى يبسطُ يده بالليل ليتوبَ مُسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوبَ مسيءُ الليل ؛ حتى تطلُع الشمس من مغربها».

وروى الترمذي ، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله تعالى يقبلُ توبة العبد ما لم يُغَرْغِرْ».

وعن أَبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لو أَخطَأْتُم حتى تبلغَ خطاياكم السماءَ؛ ثم تبْتُمْ لَتَابَ الله عليكم» رواه ابن ماجه بإِسناد جيد.

هذا ـ وإِن للذنوب آثاراً ظلمانية على القلوب ، ومِنْ أَجل ذلك يَجِبُ على العبد إذا وقع في ذنب أَن يبادر إِلى التوبة قبل أَن تتراكم الظلماتُ على قلبه ، فإِن التوبة تصقل القلب وتمحو تلك الظلمات.

فقد روى الإمام أَحمد وغيره ، عن أَبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إِن المؤمن إِذا

أذنب كانتْ نكتةٌ سوداءُ في قلبه ، فإنْ تاب ونزع واستغفر صُقِلَ قلبه ، فإنْ زاد زادت ـ يعني: إن زاد في الذنب زادت النكتة السوداءُ ـ حتى تعلوَ قلبه ، وذاك الرَّان الذي ذكر الله تعالى في القرآن: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾» .

وقال الحسن البصري: هو الذنب على الذنب حتى يعمى القلب فيموت. اهـ. يعني: أن روح الإيمان تزهق من قلبه فيموت القلب.

وهذه الآية الكريمة ذكر الله تعالى فيها حال الكفار وموت قلوبهم ، يُحذِّر فيها عبادهُ المؤمنين من الإصرار على الذنوب ، فإنها تُعمي القلوب ويُطبع عليها الرانُ بسبب الاستمرار على الذنوب ، واستحلالها ، فإن الاستمرار والإصرار على المعصية يجعلها سهلة على فاعلها ، وربما حمله ذلك على استحلالها؛ لأنَّه اسْتَحْلاها ، ولذلك حذَّر النبي صلى الله عليه وآله وسلم من الإصرار على الذنب وحثَّ على المبادرة للتوبة:

روى الإمام أَحمد ، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال وهو على المنبر: «ارحموا تُرْحَموا ، واغفِروا يُغْفَرْ لكم ، ويلٌ لأَقماعِ القول ، ويلٌ للمصرِّين ؛ الذين يُصرون على ما فعلوا وهم يعلمونَ» .

وفي هذا الحديث الشريف تنبيه لطيف للمؤمن ، وذلك أنه ينبغي له أَن يكون موقفه مع قول الله تعالى وقول رسوله صلى الله عليه وآله وسلم موقفَ الوعاءِ الواعي ، بحيث يتقبَّلها قلبُه ويتعقَّل ويتَّعظ ، ولا يكنْ قِمَعاً يمرُّ القول عليه كما يمر السمن والزيت على القمع دون أَن يحصل منه على شيءٍ .

الله تعالى يحب المُطَّهِّرين:

قال الله تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾.

روى أَصحاب السنن وغيرهم، عن أَبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «نزلت هذه الآية ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾ في أَهل قُبَاءَ»، قال: «كانوا يستنجون بالماءِ فنزلت فيهم هذه الآية».

فالله يحب المطَّهِّرين، لأَن التطهر فيه النظافة من النجس والدنس، والله تعالى يحب النظافة كما جاءَ في الحديث الذي رواه الترمذي، عن سعد بن أَبي وقاص رضي الله عنه، أَن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن الله تعالى طَيِّب يُحبُّ الطِّيب، نظيفٌ يحبُّ النظافة، كريم يحب الكرم، جَوَاد يحب الجُود، فنظِّفوا أَفنيتكم ولا تَشَبَّهوا باليهود».

وقد بيَّن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أَنَّ من مبادئ دين الإِسلام النظافة:

روى الخطيب وغيره، عن عائشة رضي الله عنها، أَن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن الإِسلام نظيف فتنظفوا، فإِنه لا يدخل الجنةَ إلا نظيفٌ».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «تنظَّفوا بكل ما استطعتم، فإِن الله تعالى بنى الإِسلامَ على النظافة، ولن يدخل الجنة إِلا كلُّ نظيف»[١].

---

(١) عزاه العلامة الخفاجي في (شرح الشفا) إلى الرافعي في (تاريخ قزوين)=

هذا وإن المثل الأَكمل في النظافة هو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فإنه أَطيب خلق الله تعالى وأَطهرهم وأَنظفهم:

روى الطبراني، عن أَبي قِرْصافةَ قال: لما بايعْنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أَنا وأُمي وخالتي، ورجَعْنا من عنده منصرفين قالت لي أُمي وخالتِي: (يا بني ما رأَينا مثلَ هذا الرجل، ولا أَحسنَ منه وجهاً، ولا أَنقى منه ثوباً، ولا أَلينَ منه كلاماً، ورأَينا كأَن النور يخرج من فِيه) صلى الله عليه وآله وسلم[1].

وقد شرع الله تعالى لعباده الطهارة من الحدث الأَصغر والأَكبر، والطهارة من النجس بأَنواعه، وبيَّن النبي صلى الله عليه وآله وسلم منزلة ذلك من الدين فقال: «الطُّهور شَطْرُ الإيمان..» الحديث، كما في (صحيح) مسلم، ولا شك أَن في الطهور حقيقة النظافة وكمالها وجمالها.

الله تعالى يحب المتقين:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

والتقوى في اللغة هي: التوقِّي، وهو الأَخذ بالوِقاية مما يَخافه ويحذره، كتوقِّي البرد بالثياب، وتوقِّي حرِّ الشمس بالمظلَّة، ونحو ذلك، قال تعالى: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ الآية.

= وقال: وبما ذكرناه من أن الحديث رُوِيَ من طرق متعددة تجبر ضعفه عُلِمَ أنه خرج من مرتبة الضعف إلى مرتبة الحسن، ومعناه صحيح موافق للشرع.

(١) انظر (مجمع الزوائد) وغيره.

والتقوى في عرف الشرع هي: التَّوَقِّي من عذاب الله تعالى وعقابه، وسخطه وغضبه، بأَن يجعل العبدُ بينه وبين ما يخشاه من غضب الله تعالى وعقابه وسخطه وقايةً تَقيه من ذلك، وهذا إنما يكون بامتثال أَوامره سبحانه وباجتناب ما نهى عنه، ولذلك فُسِّرت التقوى بامتثال أَوامر الله تعالى واجتناب مناهيه.

وقد جاءَ في خطبته صلى الله عليه وآله وسلم حين قدم المدينة قال فيها: «واتقوا الله في عاجلِ أَمرِكم وآجِلِه؛ في السر والعلانية، فإنه من يَتَّقِ الله يكفِّرْ عنه سيئاته ويُعظمْ له أَجراً، ومن يتق الله فقد فاز فوزاً عظيماً، وإن تقوى الله تَقي مَقْتَه، تَقي عقوبته، تقي سَخطه، وَإِن تقوى الله تعالى تُبَيِّضُ الوجه، تَرفعُ الدرجة...» الحديث كما رواه ابن جرير بإسناده، ونقله عنه ابن كثير وغيره.

هذا وإن تقوى الله تعالى هي وصية الله سبحانه للأولين والآخرين، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ الآية.

وهي وصية إمام الأَنبياءِ والمرسلين صلوات الله تعالى وسلامه عليهم أجمعين:

كما جاءَ في حديث العِرْباض بن سارية رضي الله عنه قال: وَعَظَنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم موعظةً وَجِلَتْ منها القلوب، وذَرَفَت منها العيون، فقلنا: يا رسول الله كأَنَّها موعظةُ مودِّعٍ فأَوصنا.

قال: «أُوصيكم بتقوى الله عز وجل والسَّمعِ والطاعة» الحديث.

وكان صلى الله عليه وآله وسلم إذا أَوصى وصية عامة بدأَها

بالتقوى ، وإذا أَوصى وصية خاصة بدأَها بالتقوى.

ومن ذلك وصيته صلى الله عليه وآله وسلم لأَبي ذر رضي الله عنه حين قال له: أَوصني يا رسول الله.

فقال له صلى الله عليه وآله وسلم: «أُوصيك بتقوى الله فإنه رأْسُ كل شيءٍ ، وعليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام» رواه ابن حبان ، ورواه غيره بلفظ: «عليك بتقوى الله فإنه جِماعُ كلِّ خير».

وروى الترمذي ، عن يزيد بن سلمة رضي الله عنه أَنه قال: يا رسول الله إني سمعت منك حديثاً كثيراً ، فأَخاف أَن يُنْسِيَني أَولَه آخرُه ، فحدثني بكلمة تكون جماعاً ـ أي: جامعة لكل خير ـ.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «اتَّقِ الله فيما تعلم».

ولم يزل السلف الصالح يتواصَوْن بتقوى الله عز وجل:

فهذا سيدنا أَبو بكر رضي الله عنه يقول في خطبته: أَما بعد: فإني أُوصيكم بتقوى الله ، وأَن تُثْنُوا عليه بما هو أَهله ، وأَن تَخْلِطُوا الرغبة بالرهبة ، وتجعلوا الإلحاف في المسأَلة ـ أي: في الدعاء ـ فإن الله عز وجل أَثنى على زكريا وأَهل بيته فقال: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾.

ولما حضر أَبا بكر الوفاةُ وعَهِدَ إلى عمر رضي الله عنهما فكان أَول ما قال له: اتق الله يا عمر . . . إلخ.

وكتب عمر رضي الله عنه إلى ابنه عبد الله رضي الله عنهما: أَما بعد: فإني أُوصيك بتقوى الله عز وجل ، فإنه مَنِ اتقاه وقاه ، ومن

أَقرضه جزاه ، ومن شكره زاده ، واجعل التقوى نصب عينيك وجِلاءَ قلبك.

واستعمل سيدنا عليّ كرم الله وجهه رجلاً على سَرِيَّة فقال له: أُوصيك بتقوى الله عز وجل الذي لا بُدَّ لك من لقائه ، ولا منتهى لك دونه ، وهو يَملكُ الدنيا والآخرة.

وكتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه إلى رجل: أُوصيك بتقوى الله عز وجل الذي لا يَقْبل غيرَها ، ولا يَرحم إلا أَهلها ، ولا يُثيب إلا عليها ، فإِن الواعظين بها كثير ، وإِن العاملين بها قليل. جعلنا الله تعالى وإياك من المتقين.

ولما وُلِّيَ الخلافة حَمِدَ الله وأَثنى عليه وقال: أُوصيكم بتقوى الله عز وجل ، فإِن تقوى الله عز وجل خَلَفٌ من كل شيءٍ ، وليس من تقوى الله تعالى خَلَف. ا هـ.

وقد ذكر العلماءُ مراتب للتقوى متعددة:

١ ـ اتِّقاءُ الكفر والشرك حتى يَصحَّ الإيمان.

٢ ـ تقوى المحرمات ، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ . . .﴾ الآية ، وفي هذا يقول الحسن البصري رضي الله عنه: المتقون هم الذين اتَّقَوْا ما حرم الله عليهم ، وأَدَّوْا ما افترَض عليهم.

وروى الترمذي ، عن أَبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «اتقِ المحارمَ تكنْ أَعبدَ الناس ، وارضَ بما قَسَمَ الله تكنْ أَغنى الناس ، وأَحْسِنْ إِلى جارك تكن مسلماً ، وأَحِبَّ للناس ما تُحبُّ لنفسك تكنْ مؤمناً ،

ولا تُكْثِرِ الضَّحِك فإن كثرة الضحك تُميت القلب».

ولما سئل أَبو هريرة رضي الله عنه عن التقوى قال للسائل: هل أَخذتَ طريقاً ـ أي: سلكتَ طريقاً ـ ذات شوكٍ؟

قال: نعم.

قال: فكيف صنعت؟

فقال: إذا رأَيتُ الشوكَ عزلت عنه، أَو جاوزته، أَو قَصَّرْتُ عنه.

فقال له أبو هريرة رضي الله عنه: ذاك التقوى.

يعني: أَن التقوى هي أَن تتوقىٰ ما نهى الله عنه، كما تتوقىٰ الشوك إذا سلكت طريقاً فيها الشوك، فإنك تقطعه على تحرُّز وتحفُّظ.

وأَخذ هذاالمعنى ابن المعتمر فقال:

خَلِّ الذنوبَ صغيرَها وكبيرَها فهو التُّقَى
واصنعْ كماشٍ فوقَ أَرْ ضِ الشوكِ يَحذَرُ ما يَرى
لا تَحقِرنَّ صَغيرَةً إنَّ الجبال مِنَ الحصى

فينبغي أَن يتقي المسلم الصغائر أَيضاً ولا يستصغرَها، فإنها إذا اجتمعت إلى بعضها كَبُرتْ وعَظُم خطرها:

روى الإمام أَحمد بسند حسن، عن سهل بن سعد رضي الله عنه، أَن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إياكم ومحقَّراتِ الذنوب، فإنما مَثَل محقَّراتِ الذنوب كمثل قوم نزلوا بطنَ وادٍ، فجاءَ ذا بِعُودٍ وجاءَ ذا بعود حتى جَمَعوا ما أَنَضَجوا به خبزَهم، وإن محقَّراتِ الذنوب متى يؤخذْ بها صاحبُها تُهْلِكه».

فعُودٌ إلى جانب عودٍ وعودٍ ، إذا أُوقدتْ صارت ناراً محرقة ، وكذلك صغائرُ الذنوب.

وقد بيَّن صلى الله عليه وآله وسلم أَنَّ محقَّرات الذنوب لها من الله طالب وعليها محاسب:

روى النسائي وابن ماجه ، عن عائشة رضي الله عنها ، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لها: «يا عائشةُ إياكِ ومحقَّراتِ الذنوب ، فإن لها من الله طالباً»[1].

٣ ـ اتقاءُ الشُّبُهاتِ ، وقد جاءَ في (الصحيحين) عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «الحلال بيِّنٌ والحرام بيِّنٌ ، وبينهما أُمورٌ مُشْتَبِهَات ، فَمن اتَّقى الشبهاتِ فقدِ استبرأَ لدينه وعِرْضِه ، ومَنْ وقع في الشبهات وقع في الحرام ، كراعٍ يَرعى حول الحِمى يُوشِكُ أَن يقع فيه ، ألا وإِنَّ لكل مَلِكٍ حِمَىً ، ألا وإِن حِمى الله مَحَارِمُه» الحديث.

٤ ـ اتِّقاءُ بعض المباحات مخافةَ الوقوع في المَنْهيَّات ، كما روى الترمذي ، عن عطية السعدي رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لا يَبلُغُ العبدُ أن يكون من المتقين حتى يَدَعَ ـ أي: يترك ـ ما لا بأْس به حذراً مما به بأْس» ورواه ابن ماجه والحاكم.

---

(١) قال الحافظ في (الفتح) بعد ما أورد هذا الحديث: وصححه ابن حبان. اهـ.

وقال الحسن البصري: ما زالت التقوى بالمتقين حتى تركوا كثيراً من الحلال مخافة الحرام.

هذا وإن تحصيل مراتب التقوى وبلوغ كمالها هو التحقُّق بما أَمر الله تعالى في قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾.

قال ابن مسعود رضي الله عنه في تفسير ذلك: هو أَن يُطاع فلا يُعْصَى، وأَن يُشْكر فلا يُكْفَر، وأَن يُذْكَر فلا يُنسى[1].

ويكفي في فضل التقوى أَنها ميزان الكرامة عند الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾، وفي هذا تنبيه للمؤمن لأن يَجعل كرامةَ الناسِ عنده التقوى، فيُكْرِمَ أَهل التقوى ويجلَّهم، ويكون عنده أكرمُ الناس وأَحبُّهم إليه أَتقاهم؛ لا أَغناهم مالاً ولا أَقواهم جسماً، ولا أكثرَهم عشيرةً.

كما أَنه سبحانه جعل لأَهل التقوى معيَّة خاصة، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾، كما أنه سبحانه جعل لأَهل التقوى وَلايةً خاصة، فقال سبحانه: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

فقد أثبت لهم وَلايتَه المتضمِّنةَ مَحبَّتَهُ ونصرتَه وتوليتَه، وأثبتَ لهم بشارتَه في الدنيا والآخرة.

---

(١) رواه ابن أبي حاتم عن ابن مسعود رضي الله عنه موقوفاً بإسناد صحيح، ورواه الحاكم مرفوعاً ثم قال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

أما بشائرهم في الحياة الدنيا فهي الرؤيا الصالحة ، كما جاء في الحديث الذي رواه الترمذي وغيره ، عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: سأَلت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن قوله تعالى: ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ .قال: «هي الرُّؤيا الصالحة يَرَاها المؤمنُ أو تُرَى له».

وروى ابن جرير وغيره ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قوله تعالى: ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ ﴾ قال: «هِيَ الرُّؤيَا الصالحةُ يَرَاها العبدُ أَو تُرَى له ، وهي في الآخرة الجنة» وفي المسند نحو هذا.

الله تعالى يحب المتوكلين:

قال تعالى: ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ .

وحقيقة التوكل هو أَن يَكِلَ العبد أُموره إلى الله تعالى معتمداً عليه ، واثقاً به ، راضياً بما يَقضيه له ، مع تعاطي الأسباب المستطاعة المأمور بها شرعاً.

فإن الله تعالى هو أمر المؤمنين بالتوكُّل عليه فقال: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ كذلك هو سبحانه أَمرهم بالأسباب أيضاً فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ﴾ وقال تعالى: ﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ وقال سبحانه: ﴿ فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ﴾ ، وقال: ﴿ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾ .

وقد كان صلى الله عليه وآله وسلم أعظمَ المتوكلين ، ومع ذلك كان يلبَسُ لأْمَتَه ودرعه في الحروب ، وظاهرَ يومَ أُحُدٍ بين درعين.

وقد نبّهنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى أَن حقيقة التوكل على الله لا تُنَافي تَعاطي الأسباب المشروعة حيث قال: «لو أنكم تَتوكَّلون على الله حقَّ توكُّله ، لَرَزقكم كما يَرزُقُ الطير: تَغدو خِماصاً وتَرُوح بِطَاناً»(١) .

فإن الطير متوكِّلة على الله تعالى ، ومعتمدةٌ عليه خالصاً ، ليس لها مزرعة معينة ، ولا شجرة مخصوصة تعتمد عليها ، ولكنها تَعَاطَتِ السببَ الموصلَ إلى رزقها الذي قسمه الله تعالى لها ، فغدت مِنْ وَكْرها ساعيةً في تحصيل رزقها ، متوكلةً على خالقها ورازقها ، فغدتْ خِماصاً جائعة ، وراحت مساءً بِطاناً ـ أي: شَبِعة ـ فلا ينبغي للإنسان المؤمن أَن يكون أَضعف توكلاً على الله تعالى ، وأقلّ ثقةً بالله تعالى من تلك الطيور.

ومن رحمته سبحانه أنه أعلن كفايته المؤكَّدة للمتوكلين عليه ، ليكونوا على ثقة ويقين جازم فقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ .

الله تعالى يحب المحسنين:

قال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ، وقال أيضاً: ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ .

المحسنون هم الذين أحسنوا العمل مع الله تعالى ، وأحسنوا العمل مع خلق الله تعالى.

أما إحسانُ العمل مع الله تعالى: فهو القيام بما أَمرهم به مع

---

(١) رواه الترمذي ، وأحمد عن عمر رضي الله عنه.

الإخلاصِ له ، وصدقِ التوجُّه إليه ، فإحسانُ العمل مع الله تعالى يتطلَّب أمرين:

أولاً: حسنُ العمل ، بأَن يكون مشروعاً ، قال تعالى: ﴿ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي: محسن في عمله بأَنْ كان موافقاً للشرع .

ثانياً: حسنُ النية فيه ، وذلك بالإخلاص لله ، وصدقِ التوجُّه فيه إلى الله تعالى ، كما جاءَ في حديث جبريلَ عليه السلام حين سأَل النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: «أَنْ تعبد الله كأَنك تراه ، فإنْ لَم تكن تراه فإنه يراك» الحديث .

فهم يعبدون الله تعالى بحضور قلب ، وصدق توجه ، وإقبال على الله تعالى مشاهِدِين أو مراقِبين .

وأَما إحسان العمل مع المخلوقات: فهذا مطلوب شرعاً في كل شيءٍ ، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله كَتَبَ الإحسانَ على كل شيءٍ ، فإذا قتلتم ـ أي: نفْساً مُستحقةً للقتل ـ فأَحْسِنوا القِتْلَة ، وإذا ذَبَحتم فأَحسِنوا الذِّبْحَة ، وَلْيُحِدّ أَحَدُكم شَفْرَتَهُ ، وَلْيُرِحْ ذبيحتَه» رواه مسلم .

فينبغي أن يكون كل عمل المسلم حسناً لا سوءَ فيه ولا إساءَة ، ولاَ خلل ولا فساد .

وإحسانُ كل شيءٍ هو بحسب ما يتطلبه ذلك الشيءُ .

وقد ورد في الحديث الذي رواه ابن عدي ، عن سَمُرة بن جُندُب رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن الله عَزَّ وجَلَّ مُحْسِنٌ فأَحْسِنوا . . .» الحديث ، ورواه الطبراني

من حديث أنَس رضي الله عنه: «إذا حكمتم فَاعْدِلوا ، وإذا قَتَلتم فأَحْسِنوا ، فإن الله محسنٌ يحب المحسنين».

ومن ذلك الإحسان: البرُّ والعفو والفضل والمعروف إلى عباد الله تعالى ، قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ يعني: أنَّ من اتصف بتلك الصفات فهو محسن ، والله تعالى يحبُّ المحسنين ، فقد دخل المحسن في دائرة محبة الله تعالى ، ونِعْمَ هذا الشرف الأكبر.

أخرج البيهقي ، عن سيدنا علي بن سيدنا الحسين رضي الله عنهم ، أنَّ جارية جعلت تسكب عليه الماءَ يتهيأُ للصلاة ، فسقط الإبريقُ من يدها على وجهه ، فَشَجّه ، فرفع رأْسَه إليها ، فقالت له: إن الله تعالى يقول: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾.

فقال: قدْ كَظَمْتُ غيظي.

قالت: ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ﴾.

فقال: قد عفا الله عنكِ.

قالت: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

فقال: اذهبي فأَنتِ حُرَّة.

ومن أَعظم الإحسان حُسْنُ الخُلُق مع جميع العباد:

روى الترمذي وغيره ، عن معاذ رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «اتَّقِ الله حيثما كنتَ ، وأَتْبِعِ السيئةَ الحسنةَ تَمْحُهَا ، وخَالِقِ الناسَ بخُلق حَسَن».

وروى ابن حبان ، والحاكم وصححه ، وغيرهما ، عن ابن عمر رضي الله عنهما ، أنّ معاذ بن جبل رضي الله عنه أَراد سفراً فقال: يا نبيَّ الله أَوْصِني.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «اعْبُدِ اللهَ ولا تُشْرِكْ به شَيْئاً».

فقال: يا نبي الله زِدْني.

قال: «إذا أَسأْتَ فأَحْسِنْ».

قال: يا نبي الله زدني.

قال: «اسْتَقِمْ ، وَلْتُحْسِنْ خُلُقَك».

وروى الإمام أحمد ، والطبراني بسند جيد ، عن جابر بن سَمُرَةَ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الْفُحْش والتَّفَحُّشَ لَيْسَا من الإسلام في شيءٍ ، وإنَّ أَحسن الناس إسلاماً أحسنُهم خُلُقاً»(١).

وروى الترمذي وحسّنه ، والحاكم وصححه ، وغيرهما ، عن السيدة عائشة أُم المؤمنين رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «إنَّ مِنْ أكْمل المؤمنين إيماناً أحسَنَهم خُلُقاً؛ وألطَفَهم بأَهْله».

وروى الترمذي وأبو داود ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أكملُ الناس إيماناً

---

(١) انظر (الدر المنثور) وغيره.

أَحسنُهم خُلُقاً ، وأَفضلُ المؤمنين إيماناً أحسَنُهُمْ خُلُقاً ، وخِيارُكم: خِياركم لأَهله»[1] .

فاعتبر أيها المسلم ، وفكِّر في محاسن هذا الدين الإسلامي ، فإنه دين لطف وحسن خُلُق ، ونصيحة ووفاءٍ ، وحسن عهد وحفظ وُدٍّ .

الله تعالى يحب الصابرين:

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ ، وإنما نالوا المحبة من الله تعالى لأَنهم أمسكوا نفوسَهم فأَوقفوها عند أَوامر الله تعالى ، ولم يتركوها تُجاوز حدودَ الله تعالى ، ولم يَدَعوها تجزعُ وتضجر مما قضى الله تعالى عليها من المصائب في هذه الدنيا ، ومن هنا نعلم أَن الصبر أنواع:

الأول: الصبر على أداءِ العبادات التي شرعها الله تعالى ، قال تعالى: ﴿وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ أي: لأداءِ الأَمر بعبادته مواظباً عليها دون انقطاع عنها ولا تكاسُل ، ومن أهم العباداتِ الصلاةُ ، فلذا جاء الأَمر بالاصطبار عليها خاصة ، مع أنها داخلة في الاصطبار على العبادة ، قال تعالى: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ .

فلما كانت الصلوات متكررةً على مدى الأَوقات ، جاءَ الأمر بالاصطبار عليها خاصة ، ففي هذه الآية يأْمر الله تعالى بأَمرين:

١ ـ أمْرُ الأهل بالصلاة ، لأنّ الإنسان مسؤول عن أَهله باعتبار أنه الراعيَ لهم .

---

(١) انظر (الدر المنثور) وغيره .

٢ ـ الأمر بالاصطبار على الصلاة ، أي: بأَن يُصَبِّرَ نفسه على أداءِ الصلوات في أوقاتها ، محافظاً عليها ، مواظباً ، مطمئناً في تأْدية قيامها وركوعها وسجودها ، من غير تعجُّل ولا إسراع مُخِلٍّ ، فإنَّ النفس قد تَحمله على ذلك توفيراً لزمن الاكتساب ، والعمل في طلب الرزق ، وتحصيل أسباب المعيشة ، فقد نبّه الله تعالى المؤمن حتى لا يتأَثَّر بما تُسَوِّلُه نفسه في ذلك ، فقال سبحانه: ﴿لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ أي: نحن لمَّا أَمرناك بالسعي في طلب الرزق ، ما سأَلناك أن ترزق نفسك في ذلك ، بل نحن نرزقك ، فما عليك إلا أن تطلب الرزق طلباً جميلاً ، دون إخلال بأَداءِ حقوقنا ، والقيام بواجب عبادتنا.

ويبيِّن ذلك قوله تعالى: ﴿فَامْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ في رُوْعي: أنَّ نَفْساً لن تموتَ حتى تَستكملَ رزقها ، وتَستوفي أجلَهَا ، فاتَّقوا الله وأَجْمِلوا في الطَّلب ، ولا يَحمِلَنَّ أحدَكم استبطاءُ الرزق على أَن يطلبه بمعصية الله تعالى ، فإن الله لا يُنـالُ ما عنده إلا بطاعته».

الثاني: الصبر عن المحرمات ، وفي ذلك أجر كبير:

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾.

الثالث: الصبر على البلاءِ والمصائب ، فإنَّ في ذلك تكفيراً للسيئات ، ورفعاً للدرجات ، وزيادةً في الحسنات:

روى البخاري ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى

الله عليه وآله وسلم قال: «ما يُصيبُ المؤمنَ من نَصَب ولا وَصَب، ولا هَمٍّ ولا حَزَن، ولا أذىً ولا غَمٍّ، حتى الشوكةِ يُشاكُها: إلا كفَّر الله بها من خطاياه» وروى مسلم نحوه.

وفي رواية لمسلم: «لا يُصِيبُ المؤمنَ شوكةٌ فما فوقها إلاَّ نَقَّص الله بها من خطيئته» وفي رواية أُخرى: «إلاَّ رَفَعَه الله بها درجةً، وحَطَّ عنه بها خطيئة».

٧ ـ شرف ذكر الله تعالى:

قال تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾، فَمَنْ ذكر الله تعالى بتلاوة كتابه، أَو بتسبيح أو تحميد أَو تكبير أو تهليل أَو ثناءٍ عليه سبحانه، أو باستغفاره أو دعائه أو نحو ذلك: ذكره الله تعالى بالمدح والثناء، والمغفرة والرحمة والإجابة.

روى أبو الشيخ والديلمي، عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً في قوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ قال: «يقول ـ سبحانه ـ: اذْكُرُوني يا معاشرَ العباد بطاعتي؛ أَذْكُرْكُمْ بمغفرتي».

وفي (الصحيحين) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يقول الله تعالى: أنا عند ظنِّ عبدي بي، وأَنا معه إذا ذكرني، فإنْ ذكرني في نفسه: ذكرتُه في نفسي، وإن ذكرني في ملإٍ: ذكرتُه في ملإٍ خير منهم، وإنْ تقرَّبَ إليّ شِبراً: تقربت إليه ذراعاً، وإن تقربَ إليّ ذراعاً: تقربتُ إليه باعاً، وإن أَتاني يمشي: أتيتُه هرولة».

فَمَن ذكر الله تعالى في ملإٍ ـ أي: في جَمْعٍ ـ فعظَّمه ومجّده، أَو حَمِده، أَوْ أَثنىٰ عليه، أَو سبّحه أَو كبّره، أَو جاءَ بنحو ذلك،

فإنّ الله تعالى يذكره في ملإٍ خير من ذلك الملإ : أَعْلى رتبةً وأَكثر عدداً ، كما جاءَ في الحديث :

روى الطبراني بإسناد حسن ، عن معاذ بن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «قال الله جلَّ ذِكْره : لا يَذْكُرني عبدٌ في نفسه إلاَّ ذكرتُه في مَلإٍ من ملائكتي ، ولا يذكرني عبد في مَلإٍ إلاَّ ذكرتُه في الملإِ الأَعلى»(١) .

وفي هذا إعلام من الله تعالى للملإِ الأَعلى بفضل هذا الذاكر ، وإعلان بشرفه وكرامته على الله تعالى .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : «قال الله تبارك وتعالى : يا ٱبْنَ آدمَ إذَا ذكَرْتَني خالياً ذكَرْتُك خالياً ، وإذا ذَكَرْتَني في مَلإٍ ذكرتك في مَلإٍ خير من الذين تذكرني فيهم» قال المنذري : رواه البزار بإسناد صحيح(٢) اهـ .

ومعنى : «إذا ذكرتني خالياً» أي : ذكرتني وحدك ، كما جاءَ في حديث السبعة الذين يظلُّهم الله يوم القيامة بظله : «ورجُلٌ ذَكَرَ الله تعالى خالياً ففاضتْ عيناه» أي : ذَكَرَ الله تعالى وحده خالياً عن الناس ، وهذه الرواية تُفَسِّرُ الرواية السابقة : «فإنْ ذكَرَني في نفسه» أي : خالياً ، بدليل مقابلته بقوله : «وإن ذكَرني في مَلإٍ» أي : جمعٍ من الناس .

وأيُّ شرفٍ أَعظمُ من هذا الشرف ، وهو أَن تَتَشرف بذكرك له

---

(١) انظر (ترغيب) المنذري .

(٢) ورواه ابن أبي الدنيا ، والبيهقي أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما ، كما في (الدر المنثور) .

سبحانه ، وأَن يُشرِّفكَ بذكره لك ، وإنَّ ذكره لك أَكبر ، قال الله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾.

فقد جاءَ عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما من عدة وجوه أنه قال في قوله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾: ولذِكْر الله لعباده إذا ذَكَروه أكبرُ من ذكرهم إياه[1].

وروى ابن جرير بإسناده ، عن عبد الله بن ربيعة قال: قال لي ابن عباس رضي الله عنهما: هل تدري ما قولُه تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾.

قال: قلتُ: نعم.

قال: فما هو؟

قلت: التسبيح والتحميد والتكبير في الصلاة، وقراءة القرآن ونحو ذلك.

فقال ابن عباسٍ رضي الله عنهما: لقد قُلتَ قولاً عجيباً ، وما هو كذلك ، ولكنه إنما يقول: ذكر الله إياكم عند ما أمر به ونَهى عنه إذا ذكرتموه أكبرُ من ذِكْرِكم إياه[2].

وروى ابن أبي شيبة وعبد الله بن أحمد في (زوائد الزهد) وابن جرير ، عن ابن مسعود رضي الله عنه ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ قال:

---

(١) رواه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، كما في (الدر المنثور).

(٢) قال الحافظ ابن كثير: وقد رُوِيَ هكذا من غير وجه عن ابن عباس رضي الله عنهما ، ورُوِيَ أيضاً عن ابن مسعود وأبي الدرداء وسلمان الفارسي رضي الله عنهم وغيرهم ، واختاره ابن جرير. ا هـ.

ذِكْرُ الله العبدَ أكبرُ مِنْ ذِكْر العبدِ لله تعالى.

وروى ابن السُّنِّي، وابن مَرْدُوْيَه، والديلمي، عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قوله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ قال: «ذِكْرُ اللهِ إيَّاكُمْ أكبرُ مِنْ ذِكْرِكُمْ إيَّاه» كما في (الدر المنثور).

وقد ذكر الله تعالى رسلَه بالمدح والثناء عليهم، وأنزل ذكرهم في القرآن الكريم، وأمر النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم أن يذكرهم لأمته فقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾، ثم قال: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِسْمَـٰعِيلَ...﴾ الآيات، ثم قال سبحانه: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِدْرِيسَ...﴾ الآيات.

وذكر سبحانه محاسنهم وكمالاتهم فقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَـٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَـٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَـٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَـٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾.

أي: هذا ذكرنا إياهم بالثناءِ الجميل، وبه الشرفُ النبيلُ يُذكرون به أبداً.

وإنَّ خير الذاكرين لرب العالمين، وأَشرف المذكورين بذكر رب العالمين لهم، هو إمام الأنبياء والمرسلين صلوات الله تعالى عليه وعليهم أجمعين، الذي رفع الله تعالى ذِكْره فقال سبحانه: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ وقد جاءَ بيان هذا الرفع في الأَحاديث النبوية التي فيها البيان عن القرآن:

فعن أبي سعيد رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله

وسلم أنه قال: «أتاني جبريلُ فقال: إنّ ربي وربك يقول: كيف رفعتُ ذكرك؟

قال: الله أعلم.

قال: إذا ذُكِرتُ ذُكِرتَ مَعي»[1].

وأورد الحافظ ابن كثير ما رواه أبو نعيم في (دلائل النبوة) بإسناده، عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لما فرغتُ مما أَمرني الله به من أمر السماوات والأرض قلتُ: يا رب إنَّه لم يكن نبيٌّ قبلي إلا وقد أكرمتَه: جَعلتَ إبراهيم خليلاً، وموسى كليماً، وسخَّرت لداودَ الجبالَ، ولسليمانَ الريحَ والشياطين، وأحييتَ لعيسى الموتى، فما جعلتَ لي؟

قال: أوَليس قد أعطيتُك أفضلَ من هذا كلِّه؟ إني لا أُذْكَر إلا ذُكرتَ معي، وجَعَلْتُ صدورَ أُمتك أناجِيلَ يقرؤُون القرآن ظاهراً ولم أُعْطِها أُمة، وأعطيتك كنزاً من كُنوز عَرْشي: لا حَوْل ولا قوة إلَّا بالله العلي العظيم».

ثم ذكَرَ ابن كَثير شِعر حسّان بن ثابت رضي الله عنه نقلاً عن البغوي:

أَغـرُّ عليـه للنبـوة خـاتـمٌ ... من الله من نور يلَوح ويَشهد
وضمَّ الإلٰهُ اسمَ النبيِّ إلى اسمه ... إذا قال في الخَمس المؤذنُ: أَشْهدُ

---

(١) أورده ابن جرير بإسناده، قال ابن كثير: وكذا رواه ابن أبي حاتم وأبو يعلى.

وشَقّ لـه مـن اسمـه لِيُجِلَّـه   فذو العرشِ محمودٌ وهذا محمدُ

صلى الله عليه وآله وسلم

وفي قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ دليلُ تخصيصه صلى الله عليه وآله وسلم بهذا الرفع لذكره، إذْ لم يقل سبحانه ورفعنا ذكرك، ففي قوله تعالى: ﴿لَكَ﴾ دليلُ تخصيصه بهذا المقام العالي، وكما دلّ على ذلك حديث أنس رضي الله عنه المتقدم، وفي هذا إعلانٌ برفع ذكره وعلوٍّ مقامه على جميع الأنبياءِ والمرسلين صلوات الله تعالى عليه وعليهم أجمعين.

تنبيه وتذكير

ينبغي للمؤمن أَن يُكْثر من ذِكْر الله تعالى، امتثالاً لأمر الله تعالى حيث قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾، وإن المثل الأكمل الذي حقَّق هذا الإكثار على أكمل وجه هو سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، كما قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يَذكُر الله على كلِّ أحيانه» رواه مسلم.

وقد حثَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم على ذلك، وبيَّنَ فضل ذلك:

روى الإمام أَحمد، عن عبيد الله بن بُسْرٍ رضي الله عنه قال: أَتى رجلٌ النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله إنّ شرائع الإسلام قد كَثُرتْ عليّ، فبابٌ نتمسك به جامع.

قال: «لا يزالُ لِسَانُك رَطْباً من ذِكْرِ الله تعالى»[1].

ولفظ الترمذي: إنّ شرائع الإسلام قد كَثُرت، فَأَخْبِرني بشيءٍ أَتَشَبَّثُ به ـ أي: أَتعلَّقُ به ـ.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يزالُ لِسَانُك رطباً من ذكر الله» أي: فلا ينبغي للمؤمن أَن يَجِفَّ لسانه من قلة ذكر الله تعالى.

والإكثار من ذكر الله تعالى فيه فوائد كبيرة وفضائل كثيرة، نذكر طرفاً موجزاً منها:

الأُولى: الإكثار من ذكر المؤمن لله تعالى فيه استكثار من ذكر الله تعالى له، لأن الله تعالى قال: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ كما تقدم، وإنّ ذكر الله تعالى لعبده المؤمن مرةً واحدة فيه من الخيرات والمبرات والمكرمات ما لا يحصيه إلا الله تعالى، ولو يعلم المؤمن حقائقها لفرح الفرحة الكبرى، فهذا أُبيُّ بنُ كعب رضي الله عنه لما أَخبره النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن الله تعالى ذكره باسمه فرح وسُرَّ سروراً كبيراً.

روى الإمام أَحمد بإسناده، عن أبي حَبّة البدريِّ رضي الله عنه قال: لما نزلتْ: ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ...﴾ إلى آخرها قال جبريل: يا رسول الله: إنّ ربك يأْمرك أَن تُقرئها أُبيّاً.

فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأُبَيٍّ: «إن جبريلَ أَمرني أن أُقرِئك هذه السورةَ».

---

(١) ورواه الترمذي وقال: حسن غريب، وابن ماجه أيضاً.

قال أُبيّ: وقد ذُكِرتُ ثَمَّ ـ أي: هناك في الملإ الأَعلى ـ يا رسول الله؟ ذكَرني الله تعالى؟

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «نعم» أي: ذكَرك الله تعالى في الملإِ الأَعلى.

قال: فبكَى أُبيٌّ[1].

وفي رواية لأحمد، عن أنس رضي الله عنه، قال أُبَيٌّ: يا رسول الله وسَمَّاني الله لك؟ ـ أي: ذكرني باسمي؟ ـ. فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «نعم» فبكَى، أي: من شدة الغبطة والفرح بفضل الله تعالى عليه.

كما جاءَ في رواية الإمام أَحمد، عن أُبي بن كعب رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إني أُمرتُ أَنْ أَقرأَ عليك سورةَ كذا وكذا»

فقلت: يا رسول الله وقد ذُكرت هناك؟.

قال: «نعم».

فقال لي: «يا أبا المنذر فرحتَ بذلك»؟.

فقال: وما يمنعني، والله تعالى يقول: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

وفي رواية الطبراني، عن أُبي بن كعب رضي الله عنه قال: يا رسول الله وذُكرتُ هناك؟

---

(١) قال ابن كثير: رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي. ا هـ.

فقال له صلى الله عليه وآله وسلم: «نعم ، بإسمك ونسبك في الملإ الأَعْلى»[1].

وروى أَبو نعيم ، عن ثابت البُناني قال: بلغنا أن العبد المؤمن يُوقف يوم القيامة بين يدي الله عز وجل فيقول الله تعالى له: «يا عَبْدي كنتَ تَعْبُدني فيمن يعبدني؟

قال: فيقول: يا رب نعم.

فيقول له: أَكنتَ تدعوني فيمن يدعونني؟

فيقول: يا رب نعم.

فيقول: أكنت تذكرني فيمن يذكرني؟

فيقول: يا رب نعم.

فيقول له: وعزتي ما ذكرتَني في موطن قطُّ إلا ذكرتك فيه ، ولا دعوتَني بدعوة قط إلا استجبتُها لك».

ثم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن العبد المسلم لا تُردُّ له دعوة ، إما أَن تُعَجّل له في الدنيا ، وإما أَن يُكَفَّر عنه بها خطاياه».

الثانية: الإكثار من ذكر الله تعالى هو من أحب الأعمال إلى الله تعالى؛ وأَفضلها عند الله تعالى؛ وأَقربها إلى الله تعالى.

روى ابن أَبي الدنيا ، والطبراني ، عن مالك بن يَخَامِر أَن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال لهم: إن آخرَ كلامٍ فارقتُ عليه

---

(١) كما في (ترغيب) المنذري.

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أَنْ قلتُ: أَيُّ الأَعمال أَحبُّ إلى الله تعالى؟

قال: «أَنْ تموتَ ولسَانُك رطبٌ من ذِكْر الله».

ورواه البزار وابن حبان في (صحيحه) بلفظ: قال معاذ: أخبرني بأَفضل الأعمال وأقربها إلى الله[1]. الحديث.

وروى الترمذي، عن أبي سعيد رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سُئل: أيُّ العبادِ أَفضلُ درجةً عند الله يوم القيامة؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «الذاكرون الله كثيراً» الحديث وقال: غريب.

ورواه البيهقي بلفظ: قيل يا رسول الله: أيُّ الناسِ أَعظمُ درجةً؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «الذَّاكرون الله»[1].

الثالثة: بذكر الله تعالى تحيا القلوب.

روى البخاري، عن أَنس رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «مَثَلُ الذي يَذْكُر رَبَّه والذي لا يَذْكُر رَبَّه: مَثَلُ الحيِّ والميت».

فمن أكثر ذكر الله تعالى كملتْ له حياة قلبه، وبحياة القلب يحيا الجسد بالعمل الصالح المقرِّب إلى الله تعالى.

روى الترمذي، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: دعاءٌ حفظتُه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا أَدعه ـ أي: لا أَتركه ـ:

---

(١) كما في (ترغيب) المنذري.

«اللَّهُمّ اجعلني أُعْظِمُ شكركَ ، وأُكْثِرُ ذِكْرك ، وأَتْبَع نُصحك ، وأَحفَظ وصيتك» .

وبذكر الله تعالى يفتح الله أقفال القلوب ، ويُدخل فيها ما شاءَ من أَنوار الإيمان واليقين والعرفان .

روى ابن السُّنِّي[1] ، عن أَنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «إذا سمعتمُ المؤذِّنَ يؤذنُ فقولوا : اللَّهُمّ افتحْ لنا أَقفالَ قلوبنا بِذكْرك ، وأَتْمِمْ علينا نعمتكَ من فضلك ، واجعلنا من عبادك الصالحين»[2] .

وإنما أَرشدنا النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى الدعاءِ بهذه الأُمور الثلاثة عند الأَذان لأنه وقت إجابة .

فقد روى أبو داود وغيره ، عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «ساعتان تُفتح فيهما أبواب السماءِ ، وقلَّما تُردُّ على داعٍ دعوتُه : عند حضور النداءِ ؛ ـ أي : الأَذان ـ والصفِّ في سبيل الله»[3] فحقيق بالمؤمن أن يدعو بما فيه الخير .

وهذه المطالب الثلاثة السابقة فيها مجامع الخير ، ومنابع الفضل والبر ، فإنّ القلب إذا فُتحتْ أقفاله دَخَله نور الإيمان والقرآن .

---

(١) في عمل (اليوم والليلة) ص ٤٧ .
(٢) وانظر شرح ابن علان على (الأذكار) .
(٣) كما في (ترغيب) المنذري .

قال تعالى في الكفار المُقْفَلةِ قلوبُهم: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾؟.

وقال تعالى في المؤمنين المفتَّحة قلوبُهم: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ... ﴾ الآية.

وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾.

كما أن إتمام نعمة الله تعالى على عبده فيه الفضل الكبير الكثير، لأنّ فيه تَـثْبِيْتَ الإيمان، فإن أعظمَ النعمِ هو الإيمانُ، والتوفيقُ لمطالب الإيمان من أعمالٍ صالحة وأقوالٍ طيبةٍ، ثم قبول ذلك وإدخاله الجنة.

روى الترمذي، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: سمع النبي صلى الله عليه وآله وسلم رجلاً يدعو يقول: اللهم إني أسألك تمام النعمة.

فقال: «أَيُّ شيءٍ تمامُ النعمة»؟.

فقال الرجل: دعوةٌ دعوتُ بها أَرجو بها الخير.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «فإنَّ تمام النعمة دخولُ الجنة، والفوزُ من النار».

وسمع صلى الله عليه وآله وسلم رجلاً يقول: يا ذا الجلال والإكرام، فقال: «قدِ استُجيبَ لك، فَسَلْ» أي: فادْعُ.

وسمع النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم رجلاً يقول: اللهم إني أسأَلك الصبر.

فقال: «سأَلتَ الله البلاءَ ، فَسَلْه العافية».

وأَما الدعاءُ بقوله: اللهم اجعلنا من عبادك الصالحين فقد أرشدنا صلى الله عليه وآله وسلم إلى الدعاء بذلك لما فيه من الخير الكثير ، فإنَّ مَنْ نُظِم في سلك الصالحين نال التولية الخاصة مِنَ الله تعالى ، قال سبحانه: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ، وأدخله الله تعالى في رحمته الخاصة ، قال تعالى: ﴿وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِي رَحْمَتِنَآ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

وألحقه في الصالحين لمقام المقرَّبين ، ونال النعيم الذي أعدَّه الله لعباده الصالحين ، كما جاء في الحديث القدسي: «أعددتُ لعباديَ الصالحينَ ما لا عينٌ رأَتْ ، ولا أُذُنٌ سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر» رواه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيما يرويه عن رب العزة.

الرابعة: بذكر الله تعالى تطمئنُّ القلوب وتُشْفَى ، قال الله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾. والطُّمأْنينة هي: سكون القلب إلى الشيء وارتياحه ، وعدم اضطرابه وَقَلَقِه ، فَذِكر الله تعالى يُعطي القلبَ روحاً وأُنساً وسكينة ، وبه يُشفىٰ من سقمه وهمه وغمه وقلقه ، كما جاء في الحديث الذي رواه الديلمي ، عن أَنس رضي الله عنه مرفوعاً: «ذِكْر الله تعالى شفاءٌ للقلوب».

فشفاءُ القلب ورقَّته ولطافته بذكر الله تعالى ، كما أَن مرضه وقسوته بالغفلة عن ذكر الله تعالى.

روى الترمذي ، عن ابن عمر رضي الله عنهما ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لا تُكثروا الكلامَ بغير ذكر الله ،

فإنَّ كثرة الكلام بغير ذكر الله عز وجل قسوةٌ للقلب ، وإنَّ أبعدَ الناسِ من الله القلبُ القاسي»[١] .

فالغفلة عن ذكر الله تعالى تُقَسِّي قلب الغافل ، فتبعده عن الله تعالى ، وبالإكثار من ذِكْره تعالى يَرِقُّ القلب ويصير صاحبه من أهل القرب . فقُلْ لقاسي القلب الذي يشكوا عدم حضور قلبه ، وعدم خشوعه ورقته ، قل له : أكثر من ذكر الله تعالى فهو الدواءُ لك .

روى مسلم ، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : ما كان بين إسلامنا وبين أَنْ عاتَبَنا الله بهذه الآية : ﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ إلا أَربع سنين ، ولذا كان ابن عمر رضي الله عنهما إذا تلا هذه الآية قال : بلى يا رب ، بلى يا رب .

فالمؤمن معاتَبٌ من الله تعالى في هذه الآية إذا لم يخشع قلبه لذكر الله تعالى ، فَأَخْرِجْ نفسَك من العتاب بخشوع قلبك لله تعالى .

الخامسة : الإكثار من ذكر الله تعالى يَصقُلُ القلب ، ويُذهب عنه ظلماتِ الغفلات ، فيصير كالمرآة الصقيلة تنعكس فيها الأَنوار جليَّةً :

روى ابن أَبي الدنيا والبيهقي ، عن ابن عَمرو رضي الله عنهما ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه كان يقول : «إن لكل شيءٍ صِقالةً ، وإن صِقالةَ القلوب ذكرُ الله تعالى ، وما من شيءٍ أَنجىٰ من عذابٍ من ذكر الله» الحديث[٢] .

---

(١) قال الترمذي : هذا حديث حسن غريب . ا هـ .

(٢) كما في (ترغيب) المنذري ، و(الوابل الصيب) .

السادسة: الإكثار من ذكر الله تعالى دليل على صدق الذاكر، كما أنَّ قلة ذكر الله تعالى دليل النفاق، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فَوَصَفَ المنافقين بقلَّة ذِكْرهم لله تعالى.

وقد وصف الله تعالى عباده المؤمنين الصادقين بكثرة ذِكْرهم له سبحانه فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ الآيةَ، وقال تعالى في صفة عباده المؤمنين والمؤمنات: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾.

السابعة: الإكثار من ذكر الله تعالى يَضَعُ عن الذاكرين أَثقالَهم فيأْتون يوم القيامة خِفافاً:

عن أَبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في طريق مكة، فمرّ على جبل يُقال له: جُمْدان، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «سِيروا، هذا جُمدانُ، سَبَقَ المُفَرِّدون»[1].

قالوا: وما المُفَرِّدون يا رسول الله؟

قال: «الذاكرون الله كثيراً».

قال المنذري: رواه مسلم واللفظ له، والترمذي ولفظه: يا رسول الله وما المُفرِّدون؟

---

(١) قال المناوي: رُوِيَ بتشديد الراء وتخفيفها، قال النووي في (الأذكار): والمشهور الذي قاله الجمهور هو التشديد. اهـ.

قال: «المستَهْتَرون بذكر الله، يَضع الذِّكر عنهم أَثقالَهُم، فيأْتون الله يوم القيامة خِفافاً».

قال المنذري: المفَرِّدون: بفتح الفاءِ وكسر الراءِ، والمستَهْتَرون: بفتح التاءَين فوق، هم: المُولَعون بالذِّكر، المداومون عليه، لا يُبالون ما قيل فيهم، ولا ما فُعل بهم. ا هـ.

والأَصل في كلمةِ الاستهتار: أنها موضوعة للإكثار من الشيء والولوع به، يقال: استهتر فلان بكذا إذا أُولِعَ به، قال ابن الأَثير في (جامعه): المفردون: فَرَد الرجل في رأْيه، وأَفْرد وفَرّد واستفرد كلُّه بمعنى، أي: استقلَّ به وتخلَّى بتدبيره.

قال: والمراد به ـ أي: من هذا الحديث الشريف ـ الذين تَفَرّدوا بذكر الله تعالى، وقيل: هم الذين هلك ـ أي: مات ـ أترابهم ـ أي: أقرانهم ـ من الناس، وذهب قَرنُهم الذي كانوا فيه، وبَقُوا بعدهم، فهم يذكرون الله تعالى. ا هـ.

وأَما وجه ذكره صلى الله عليه وآله وسلم لهذا الحديث حين قَرُب من جبل جُمْدان: فيدل عليه ما جاءَ في رواية جعفر الفِرْيابي، عن موسى بن عُبيدة، عن أبي عبد الله القَرّاظ، عن معاذ رضي الله عنه قال: بينما نحن مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نسير بالقرب من جُمْدان إذ اسْتَنْبَه، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «يا معاذُ أَين السابقون»؟

فقلت: قد مضوا وتخلَّف أُناس.

فقال: «يا معاذ إن السابقين الذين يُستَهْتَرون بذكر الله تعالى».

فلما سَبَق الركبُ وتخلَّف بعضهم نبَّه النبي صلى الله عليه وآله

وسلم على أَن السابقين على الحقيقة ؛ هم الذين يُدْمِنون ذِكر الله تعالى ويُولَعون به[1].

وهذا من المناهج التي انتهجها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في كلامه الشريف ، متأَسِّياً بكلام رب العالمين ، النازل عليه صلى الله عليه وآله وسلم ، وذلك بأَن ينتقل من مرئيات الدنيا إلى مُغَـيَّبات الآخرة ، ومن الأُمور المطلوبة في الدنيا إلى الأُمور المطلوبة للآخرة ، لأنها أهم وأَعظم ، والحاجة إليها أَشدُّ وأَقوى وأَبقى.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰۚ وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ فقد أمر سبحانه عباده أن يتزودوا لأسفارهم في الدنيا ، حسب ما تحتاج إليه أسفارهم قُرباً وبُعداً ، وحسب طول مدة السفر وقِصرها ، وإن كانت الآية الكريمة نزلت في سفر الحج ، ولكن خصوص السبب لا يمنع عموم اللفظ ، كما هو معلوم ، وإنما يكون سببُ النزول أوّلَ داخلٍ في المراد من الآية قطعاً.

فلما أمرهم بالزاد للسفر في الدنيا أَرشدهم إلى زاد الآخرة ، لينبّه العباد إلى أَن التزود لسفر الآخرة هو أَهمُّ ، والحاجة إليه أعظم ، لأنه طويل الأمد ولا رَجعة بعده ، وعليه تتوقف سعادة حياة الأَبد ، فإذا كانت أَسفار الدنيا تحتاج إلى زاد ، فالسفر للآخرة هو أَحوج إلى زادٍ أَعظمَ وأبقى عند العقلاءِ أُولي الألباب ، فلا ينبغي أن يكون زاد الدنيا أكبرَ همهم ومبلغَ عملهم ، بل ينبغي أن

---

(١) انظر كلام الحافظ ابن رجب الحنبلي في (جامع العلوم والحكم).

يكون زاد الآخرة هو أكبرَ همهم ومبلغَ علمهم في الحصول عليه ، وذلك الزاد هو تقوى الله تعالى ، فمن حَصَل عليها فهو صاحب الغنىٰ ، ومَنْ فَقَدها فهو الفقير المنقطع في سفره على الحقيقة.

وقد قالت زوجة داود لابنها سليمان على نبينا وعليهم الصلاة والسلام: يا بُنيّ لا تُكْثِرِ النومَ في الليل ، فمن كثر نومه في الليل جاءَ يوم القيامة فقيراً.

اللهم أكرمنا بالتقوى ، وجَمِّلنا بالعافية يا أرحم الراحمين.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴾ ، فإنه سبحانه لما ذكر لعباده اللباسَ الحسيَّ الجسماني ، الذي هم في شدة الحاجة إليه ، نبّه ـ مرشداً ـ إلى اللباس المعنوي الإيماني الذي هم إليه أحوج ، وهو أهم وأعظم ، وخير وأبقى ، ألا وهو لباس التقوى ، فمن حصل عليه كان كاسياً في الآخرة ، ومَن عَدِمه فهو كاسٍ في الدنيا عارٍ في الآخرة.

كما جاءَ عن أَبي بُجَير رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «ألا يا رُبّ نفسٍ طاعمةٍ ناعمة في الدنيا ؛ جائعة عارية يوم القيامة ، ألا يا رُبَّ مُكْرِمٍ لنفسه وهُو لها مُهِين ، ألا يا رُبّ مهينٍ لنفسه وهو لها مُكْرم»[1].

وروى البخاري ، عن أُم سلمة رضي الله عنها قالت: استيقظ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا كما في (ترغيب) المنذري ، ورواه السيوطي في (الجامع الصغير) بأطول من ذلك وعزاه إلى ابن سعد والبيهقي ، رامزاً لحسنه.

النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذاتَ ليلة فقال: «سبحان الله ماذا أُنزل الليلةَ من الفتن ، وماذا فُتح من الخزائن ، أيقظوا صَواحِباتِ الحُجَر ، فَرُبَّ كاسِيَةٍ في الدنيا عارِيةٍ في الآخرة».

وهكذا القرآن الكريم يَهدِي العباد لمصالح الدنيا والآخرة ، ويبيِّن لهم ما هو الأَعظم والأَهم حتى لا تَشغَلَهم مصالحُ دنياهم عن التزوُّد والاستعداد لآخرتهم ، فإنّ الدنيا فانية والآخرة باقية ، وإنَّ أهل التذكُّر وأُولي الألباب ـ العقول السليمة ـ يُدركون الفرق الكبير بين الزاد الذي ينبغي لدار الفناءِ ، وبين الزاد الذي ينبغي لدار البقاءِ ، وإلى هذا ينبه سبحانه بقوله: ﴿ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾.

فالأَحمق كلَّ الحماقة من أَضاع عمره كلَّه في زاد الدنيا، وجَمَع مالها؛ ولم يتزود لآخرته ، ثم راح وترك الدنيا وما فيها ؛ ولم يأْخذ معه منها خُفّاً ولا نعلاً.

ومَنْ يُنْفِق الساعاتِ في جَمْعِ ماله مخافـةَ فقـرٍ فالـذي فعَـل الفقرُ

فلا يجوز للمسلم أن تكون الدنيا أكبر همه ولا مبلغ علمه ، فإنَّ في ذلك خطراً على إيمانه ، بل الواجب عليه أن تكون الآخرة هي أكبرَ همِّه ، وغايةَ رغبته ومقصده ونيته.

وقد جاءَ في دعاءِ القيام من المجلس ، الذي رواه الترمذي ، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: ما كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقوم من مجلسٍ حتىٰ يَدعوَ بهؤلاءِ الدعوات لأَصحابه: «اللهم اقْسِمْ لنا من خشيتك ما تَحولُ به بيننا وبين معاصيك ، ومن طاعتك ما تُبَلِّغُنا به جنتك ، ومن اليقين ما تُهَوِّن به علينا مصائبَ الدنيا.

اللهم أَمْتِعْنا بَأسماعنا وأَبصارنا وقوَّتنا ما أَحييتَنا ؛ واجعلْه الوارثَ منا ، واجعلْ ثأْرنا على مَن ظَلَمنا ، وانصُرْنا على مَنْ عادانا ، ولا تَجْعل مصيبتَنا في ديننا ، ولا تَجعلِ الدنيا أكبرَ همنا ولا مبلغَ علمنا ، ولا تُسلِّط علينا مَن لا يرحمنا».

فالواجب على المسلم أن يكون أكبر همه الآخرة ، وتكون نيته ورغبته الآخرة.

روى الترمذي ، عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «مَن كانتِ الآخرةُ همّه: جعل الله غِناه في قلبه ، وجَمَع لَه شمله ، وأتتْه الدنيا وهي راغمة ، وَمَنْ كانت الدنيا همّه: جعلِ الله فقره بين عينيه ، وفَرّق عليه شمله ، ولم يأْتِه من الدنيا إلا ما قُدِّر له».

والمعنى: أنه يبقىٰ فقير النفس ولو ملك القناطير المقنطرة ، والمراد بذلك أنّ همّ الدنيا بالنسبة لِهَمِّ الآخرة هو لا شيء ، فينبغي أن يكون أكبر همِّ المسلم آخرته لا دنياه ، يوضِّح ذلك الرواية الثانية:

روى الطبراني ، عن أبي الدرداءِ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «تَفَرَّغوا من هموم الدنيا ما استطعتم ، فإنه من كانت الدنيا أكبرَ هَمِّه: أَفْشَى اللهُ ضَيْعَتَه[1] ، وجعل فقره بين عينيه ، ومن كانت الآخرة أكبرَ همِّه: جمع الله

---

(١) ضيعة الرجل: ما يكون منه معاشه ، كالصنعة ، والتجارة ، والزراعة ، وغيرها ، كما في (النهاية) والمعنى: كثر الله عليه معاشه ليشغله عن الآخرة.

عز وجل له أُموره، وجعل غِناه في قلبه» الحديث.

الثامنة: الإكثار من ذكر الله تعالى، به يَسْتديمُ الذاكرُ معيَّة الله تعالى الخاصة:

روى الشيخان، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يقول الله عز وجل: أنا عند ظنِّ عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني...» الحديث كما تقدم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن الله عز وجل يقول: أنا مَعَ عبدي إذا هو ذكرني وتحركتْ بي شَفَتاه».

قال المنذري: رواه ابن ماجه واللفظ له، وابن حبان في (صحيحه).

التاسعة: الإكثار من ذكر الله تعالى فيه استكثارٌ من ذكره عند ربه:

عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن مما تَذكرون من جلال الله: التسبيحَ والتهليلَ والتحميدَ يَنْعَطِفْنَ حول العرش، لهنَّ دويٌّ كدويِّ النحل تُذكِّر بصاحبها، أما يُحبُّ أَحدكم أن يكون له ـ أو لا يزال له ـ من يُذَكِّر به»[1].

---

(١) قال المنذري: رواه ابن أبي الدنيا، وابن ماجه واللفظ له، والحاكم وقال: على شرط مسلم. اهـ وعزاه العلامة ابن القيم في (الوابل الصيب) إلى الإمام أحمد في (المسند) بلفظ: «التكبير» بدلاً من «التسبيح»، و«يتعاطفن» بدلاً من: «ينعطفن».

العاشرة: المكثرون من ذكر الله تعالى يعلن الله تعالى إكرامهم في عالم الموقف:

روى الحاكم وصححه، وابن مَرْدُوْيَه، والبيهقي في (شُعَب الإيمان)، عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في سَفر فقال: «يُجْمَع الناسُ في صعيد واحد، يَنْفُذُهم البصر، ويُسمِعهم الداعي، فينادِي منادٍ: سيعلمُ أَهلُ الموقف لِمَن الكرمُ اليوم ـ ثلاث مرات ـ ثم يقول: أَين الذين كانت ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ ـ أي: قُوّام الليل ـ ثم يقول: أين الذين كانت ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ . . .﴾ ـ إلى آخر الآية ـ ثم يقول: أين الحمّادون الذين كانوا يَحمَدون ربّهم».

وروى البيهقي في (الشُّعَب) أيضاً، ومحمد بن نصر في كتاب (الصلاة)، عن أَسماءَ بنت يزيد رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يَجمع الله الناسَ يوم القيامة في صعيد واحد، يُسمعهم الداعي، ويَنْفُذهم البصر، فيقوم منادٍ فينادي: أين الذين كانوا يَحمَدون الله في السراءِ والضراءِ، فيقومون؛ وهم قليل، فيدخلون الجنة بغير حساب، ثم يعود فينادي: أين الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع، فيقومون؛ وهم قليل، فيدخلون الجنة بغير حساب، فيعود فينادي: أين الذين كانوا لا تُلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، فيقومون؛ وهم قليل، فيدخلون الجنة بغير حساب، ثم يقوم سائر الناس فيحاسَبون»[١].

---

(١) انظر ذلك في (الدر المنثور).

الحادية عشرة: الإكثار من ذكر الله تعالى حِصْنٌ حَصِينٌ من الشياطين:

جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد، والترمذي وصححه، من حديث الحارث الأشعري رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن الله سبحانه وتعالى أمر يحيى بن زكريا عليه السلام بخمسِ كلماتٍ، أن يعمل بهنَّ، وأن يأْمرَ بني إسرائيل أن يعملوا بهنَّ، وإنه كاد أَن يُبطىءَ بها ـ أي: بتبليغها لبني إسرائيل ـ فقال له عيسى عليه السلام: إن الله تعالى أمرك بخمس كلمات لتعملَ بها، وتأمرَ بني إسرائيل أن يعملوا بها، فإما أن تأْمرهم وإما أن آمرهم، فقال يحيى عليه السلام: أخشى إنْ سبقتَني بها أَن يُخسَفَ بي أَو أُعذَّب.

فجمَعَ يحيى الناسَ في بيت المقدس، فامتلأَ المسجد، وقعدوا على الشُّرَف.

فقال يحيى عليه السلام: إن الله تبارك وتعالى أَمرني بخمس كلمات أَن أَعمل بهنّ وآمركم أن تعملوا بهنَّ:

أوّلهن: أَن تعبدوا الله ولا تُشركُوا به شيئاً، وإنَّ مثل من أَشركَ بالله كمثل رجل اشترى عبداً من خالص ماله بذهب أو وَرِق، فقال له: هذه داري، وهذا عملي، فاعملْ وأدِّ إليّ، فكان العبد يعمل ويؤدِّي إلى غير سيده، فأيّكم يرضىٰ أن يكون عبده كذلك؟.

وإن الله تعالى أمركم بالصلاة، فإذا صليتم فلا تلتفتوا، فإن الله تعالى يَنصِب وجهه لوجه عبده ما دام في صلاته ما لم يكن يلتفت.

وأمركم بالصيام، فإن مَثَل ذلك كمثل رجل في عصابة معه

صرَّة فيها مسك ، فكلهم يعجبه ريحه ، وإن ريح فم الصائم أطيبُ عند الله تعالى من ريح المسك.

وأمركم بالصدقة ، فإنّ مَثَل ذلك مثلُ رجل أَسَره العدو ، فأَوثقوا يديه إلى عنقه وقدَّموه ليضربوا عنقه ، فقال: أَنا أَفتدي منكم بالقليل والكثير ، فَفَدَى نفسه منهم.

وأمركم أَن تذكروا الله تعالى ، فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدوُّ في أَثره سِراعاً ، حتى إذا أَتى على حصن حصين فأَحرز نفسه منهم ، كذلك العبد لا يُحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله تعالى».

وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «وأنا آمركم بخمسٍ الله أَمرني بهنَّ: السمع والطاعة ، والجهاد ، والهجرة ، والجماعة ، فإنه مَن فارق الجماعة قِيْدَ شِبرٍ فقد خَلَع رِبْقَةَ الإسلام من عنقه إلا أَن يراجع ، ومن ادّعى دعوى الجاهلية فإنّه من جُثِيِّ جهنم».

فقال رجل يا رسول الله: وإن صلى وصام؟.

قال: «وإن صام وصلى وزعم أَنه مسلم ، فادعوا بدعوى الله الذي سمّاكم المسلمين والمؤمنين عبادَ الله تعالى».

فلو لم يكن في الذكر إلا هذه الخاصة لكان حقيقاً بالمسلم أَن لا يَفْتُرَ لسانُه عن ذكر الله تعالى ، لأَنه لا يُحرز نفسَه من الشيطان الذي هو عدُّوه إلا بالذكر ، ولا يمكن أنْ يدخل عليه العدو إلا من باب الغفلة عن ذكر الله تعالى ، فالشيطان مترقِّب ومترصِّد للإنسان ، فإذا غفل عن ذكر الله تعالى وَثَب عليه ووسوس ، وإذا ذكر الله تعالى انقبض وخنس.

وإذا استحكمت الغفلة وتمادى فيها حتى عَشَى قلبُه عن ذكر الرحمن صار الشيطان له قريناً ملازماً، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾.

فليكن المسلم ملازماً لذكر الله تعالى، فإنه له حرز منيع من الشياطين مهما تكاثرت عليه، سواءٌ في ذلك شياطين الإنس والجن، قال تعالى: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾.

وقد بيّن سبحانه وتعالى في سورة ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ أنّ الذي يُوَسوس في صدور الناس هو من شياطين الجِنَّة، ومن شياطين الناس، فينبغي التعوذ والتحصُّن منهما، وذكرُ الله تعالى من أَقوى الحصون.

روى الإمام أَحمد بإسناده، عن أبي ذر رضي الله عنه قال: أتيتُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو في المسجد فجلستُ فقال: «يا أبا ذر هل صليتَ»؟.

قلت: لا.

قال: «فصلِّ».

قال: فقمت فصليت ثم جلست.

فقال: «يا أبا ذر تعوذْ بالله من شر شياطين الإنس والجن».

فقلت: يا رسول الله وللإنس شياطين؟

قال: «نعم» الحديث.

الثانية عشرة: إنّ الإكثار من ذكر الله تعالى: فيه الصلة بين العبد

وبين ربه ، كما نبّه لذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

فقد روى ابن ماجه ، عن جابر رضي الله عنه قال: خَطَبنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «يا أيها الناس توبوا إلى الله قبل أن تموتوا ، وبادروا بالأعمال الصالحة قبل أَن تُشغلوا ، وصِلُوا الذي بينكم وبين ربكم بكثرةِ ذِكْرِكم له ، وكثرة الصدقة في السر والعلانية؛ تُرْزَقُوا وتُنْصَروا وتُجْبَروا ، واعلموا أن الله تعالى قد افترض عليكم الجمعةَ في مقامي هذا ، في يومي هذا ، في شهري هذا ، من عامي هذا ، إلى يوم القيامة ، فمن تَركها في حياتي أو بعدي وله إمام عادل أَو جائر: استخفافاً بها ، وجُحوداً بها؛ فلا جَمَع الله له شمله ، ولا بارك له في أمره ، ألا ولا صلاة له ، ألا ولا زكاة له ، ألا ولا حج له ، ألا ولا صوم له ، ألا ولا بِرَّ له؛ حتى يتوب ، فمن تاب تاب الله عليه» قال المنذري في (الترغيب): رواه ابن ماجه ، ورواه الطبراني في (الأوسط) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أخصر منه. اهـ.

٨ ـ شرف قلوب المؤمنين أنها زجاجات لمصابيح الإيمان:

ومما أكرم الله تعالى عباده المؤمنين وشرَّفهم به: أنه سبحانه جعل قلوبهم زجاجاتٍ لمصابيح الإيمان ، وجَعَلَ صدورهم مَشَاكِيَ لتلك الزجاجات ، قال تعالى: ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

نقل الحافظ ابن كثير وغيره من أئمة التفسير عن أكثر السلف الصالح من الصحابة والتابعين أن المراد بقوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ هو نُور الإيمان الذي أَودعه الله تعالى في قلوب عباده المؤمنين.

روى ابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ﴾ قال: مَثَل نُورِ مَن آمنَ باللهِ كمشكاة.

ورواه الفِرْيابي عن ابن عباس رضي الله عنهما بلفظ: مَثَل نوره الذي أعطاه للمؤمن كمشكاة.

وروى ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مَرْدُوْيه، والحاكم وصححه، عن أُبيٍّ بن كعب رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ﴾ قال: هو المؤمن الذي جعل الإيمان والقرآن في صدره، فضرب الله مثلَه فقال: ﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ فبدأ بنور نفسه، ثم ذكر نور المؤمن فقال: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ أي: مَثَلُ نورِ مَن آمَن به.

قال أُبيٌّ بن كعب رضي الله عنه: فصدر المؤمن: المشكاةُ فيها مصباح، والمصباح هو النور، وهو القرآن والإيمان الذي جُعل في صدره، في زجاجة؛ والزجاجة قلبه، كأنها كوكبٌ دريٌّ، فقلبه مما استنار فيه القرآن والإيمان كأنه كوكبٌ دريٌّ ـ أي: كوكب مضيءٌ ـ.. إلخ[1].

---

(١) انظر (الدر المنثور) وتفسير ابن كثير وابن جرير، وغير ذلك.

فالله عز وجل ضرب لهذا النورِ الإيماني ، ومَحَلِّه ، وحامِله ، ومادتِه مثلاً بالمشكاة ـ وهي: الكَوّةُ في الحائط ـ فهي مِثْل الصدر ، وفي تلك المشكاة زجاجة هي من أصفى الزجاج ، حتى إنَّها شُبِّهت بالكوكب الدري في بياضه وصفائه ، وهذه الزجاجة هي مثل القلب.

ووجهُ تشبيهِ قلبِ المؤمن بهذه الزجاجة هو أَنها جَمَعت أوصافاً اتَّصف بها قلبُ المؤمن وهي: الصفاءُ ، والرِّقَّة ، والصَّلابة ، فيرى الهُدَى والحق بصفائه ، وتَحْصُل منه الرأْفة والرحمة والشفقة على خلق الله تعالى برقَّته ، ويُجاهد أعداءَ الله تعالى ويُغْلظ عليهم ، ويشتدُّ في الأَمر الحق بصلابته ، ولا تتعارض هذه الصفات مع بعضها البعض ، بل هي تتساعد وتتعاضد ، كما وصف الله تعالى أَصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ ، وكما وصف كُمّلَ أهل الإيمان بقوله سبحانه: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

وهذا القلب هو الوسط المحمود الذي جمع كمال الطرفين المتناقضين المذمومين:

أحدهما: قلبٌ حجري قاسٍ لا رحمةَ فيه ولا إحسان ، ولا بِرَّ ولا حنان ، وليس له صفاءٌ يَرى به الحقّ والهدى ، بل هو جبَّار جاهِل لا يَعلم الحقَّ ولا يرحم الخلق.

ثانيهما: نقيضه ، وهو قلبٌ ضعيف لا قوةَ فيه ولا استمساك ، بل يقبل كلَّ ما يَرِدُ عليه من خبيث وفاسد ، ليس فيه قوة مانعة من

ذلك ، ولا حجة دامغة لذلك ، فهذان قلبان مذمومان.

أما القلب الأول فهو مثل الزجاجة فيها مصباح ، وهو النور الذي في الفتيلة وهي حاملته ، ومادة هذا النور هي زيت عُصِر من زيتونة قد نبتت في أعدل الأَماكن ، تُصِيبها الشمس أولَ النهار وآخره ، فزيتُها أَصفى أَنواع الزيت وأَبعده من الكدر ، حتى إنه من شدة صفائه يكاد يُضيءُ بلا نار ، فهذا مادة المصباح الحسي.

أما مادة المصباح الإيماني الذي هو في قلب المؤمن: فهو من شجرة الوحي المحمدي صلى الله عليه وآله وسلم ، التي هي أَعظم الأشياء بركةً ، وأبعدُها عن الانحراف ، بل هي أَوسط الأُمور وأعدلها وأَفضلها ، جَمَعت جميع الكمالات والمحاسن ، وبَعُدت عن جميع المفاسد والمساوئ ، فالوحي المحمدي النازل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو مادة مصباح الإيمان المتلألئ في زجاجات قلوب المؤمنين[(١)].

فيجتمع نور الوحي إلى نور الفطرة التي فطر الله تعالى الناس عليها ، وهي الإيمان الفطري ، ويفصله ويقوِّيه ويثمِّره وينمِّيه ويزيده ، قال تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ﴾ أي: لا تُبَدِّلُوا فطرة خَلْق الله تعالى. ثم يبيِّن ما هي تلك الفطرة فقال: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ..﴾ الآية ، فالفطرة هي الدين القيّم ، وهي الإيمان بالله تعالى ، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: «كلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلى الفِطْرة ، فَأَبَوَاه يُهَوِّدانه أَو يُنَصِّرانه أَو يُمَجِّسانه» الحديث ، متفق عليه.

---

(١) انظر تفسير ابن كثير و(الوابل الصيب).

فالله تعالى فَطَرَ العباد على الدين الحنيف، كما جاءَ في (صحيح) مسلم، عن عياض بن حِمَار رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنَّ الله تعالى أَمرني أن أُعلِّمكم ما جَهِلتم مما علَّمني في يومي هذا، كلُّ مال نَحَلْتُه عبداً: حلالٌ، وإني خلقتُ عبادي حُنفاءَ كلَّهُم؛ وإنهم أَتتْهم الشياطينُ فاجْتالتْهم ـ ذَهبتْ بهم وصَرَفَتْهم ـ عن دينهم، وحرّمتْ عليهم ما أَحللْتُ لهم، وأَمَرَتْهم أَنْ يُشركوا بي ما لم أُنزِّل به سلطاناً....» الحديث.

وهذه الفطرة كان بدؤها منذ عالم الذرِّ يوم استخرجَهم الله تعالى من ظهور الآباءِ، وجمعهم وقال لهم: ألستُ بربكم؟ قالوا: بلى، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ...﴾ الآيات الكريمة، وهذا هو الميثاق الأول الذي أَخذه الله تعالى على عباده[1].

فإذا سَلِمَ نور الفطرة من التغيير والتبديل الذي حذَّر الله تعالى منه حيث قال: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ فهذا خبر أُريد به الإنشاءُ، أي: لا تُبَدِّلوا فطرة الله تعالى التي خلق الناس عليها، بالتهويد أَو التنصير أَو التمجيس؛ كما تقدم في الحديث، أَو ما وراءَ ذلك من أَنواع الكفر والشرك.

أقول: إذا سلم نور الفطرة من ذلك، وجاءَت مادّةُ الوحي المحمدي فباشَرَتِ القلبَ النقِيَّ، والْتَقَىٰ نور الوحي مع نور

---

(١) وليس هنا موضع تفصيل الكلام على ذلك، ومن أراد الاطلاع على لأحاديث الواردة في هذا البحث فليرجع إلى تفسير ابن كثير.

الفطرة: امتلأ القلب بالنور واستنار، ثم إنه يقوى ويزيد، حتى إنه يَفيض على الوجوه والجوارح والأبدان والحواسِّ، فإذا كان يوم القيامة بَرَز ذلك النور، وصار يَسعى بين أيديهم وبأَيمانهم، ويضيءُ لهم طريقَهم حين يمرُّون في ظلمة الجسر، حتى يقطعوه بأَمان وسلام وسكينة واطمئنان.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا..﴾ الآيات الكريمة.

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وإنما دعا المؤمنون بأَن يُتمّ الله تعالى لهم نورهم لَمَّا رأوا إطفاءَ نور المنافقين في أول الصراط، كما جاء ذلك عن ابن عباس ومجاهد والحسن البصري وغيرهم.

روى الحاكم والبيهقي، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾ قال: ليس أَحدٌ من الموحِّدين إلا يُعطى نوراً يوم القيامة، فأَما المنافق فَيُطْفأُ نوره(١)، والمؤمن يُشفِق ـ أي:

(١) فإن المنافق نطق بكلمة الإسلام ظاهراً بلسانه دون اعتقاد، فَأُعطِيَ نوراً بقدر ذلك، ولو أنه قالها صادقاً من قلبه لبقي معه نوره أبداً.

يخاف ـ مما يَرَى من إطفاءِ نور المنافق ، فهو يقول: ﴿ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا﴾.

وروى الطبراني نحو هذا عنِ ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً.

ولذلك جاءَت البشائر لأَهل البشائر بالنور التام يوم القيامة ، لتطمئنَّ قلوبهُم وتأْمن نفوسهم من تلك المخاوف ، حين يرون إطفاءَ نور المنافقين والمنافقات ، وتخبُّطَهم في الظلمات الموبقات:

فمن أهل البشائر فقراءُ المهاجرين:

روى أَبو داود ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: جلستُ في عصابة ـ أي: جماعة ـ من فقراءِ المهاجرين ، وإن بعضهم لَيستتر من بعضٍ من العُرْي ، وقارِئٌ يقرأُ علينا ، إذ جاءَ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فقام علينا ، فلما قام رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ أي: وقف مشرفاً علينا ـ سكت القارئُ ، فسلَّم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم قال: «ما كنتم تصنعون»؟ قلنا: نستمع إلى كتاب الله تعالى.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «الحمد لله الذي جَعَلَ مِن أُمتي مَن أُمرت أَن أَصبرَ نفسي معهم».

قال أَبو سعيد: فجلس صلى الله عليه وآله وسلم وَسَطنا ليعدِل نفسه فينا ، ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم بيده هكذا ـ أي: أشار إليهم أن يلتفُّوا حوله ـ فتحلَّقوا ، وبرزت وجوههم له.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «أَبْشِروا يا صَعاليك المهاجرين

ـ أي: يا فقراءَ المهاجرين ـ بالنور التّامِّ يوم القيامة ، تدخلون الجنة قبل الناس بنصفِ يومٍ؛ وذلك خمسُمائةِ سنة».

ومن أَهل البشائر بالنور التامِّ يوم القيامة المشَّاؤُون في الظُّلَم للمساجد:

عن بريدة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «بَشِّرِ المشَّائينَ في الظُّلَم إلى المساجد بالنور التامِّ يوم القيامة» رواه أبو داود والترمذي وقال: غريب[1].

وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لِيَبْشِرِ المشَّاؤُون في الظُّلَم إلى المساجد بالنور التامِّ يوم القيامة»[2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول لله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن الله لَيُضيءُ للذين يَتَخَلَّلون إلى المساجد في الظُّلم بنور ساطع يوم القيامة» رواه الطبراني بإسناد حسن.

فلولا أَن حال العباد حين يمرون على الصراط مُخِيفة ما جاءت البشائر لأَهل البشائر.

---

(١) قال المنذري: ورجال إسناده ثقات ، ورواه ابن ماجه من حديث أنس رضي الله عنه. ا هـ.

(٢) قال الحافظ المنذري: رواه ابن ماجه ، وابن خزيمة في (صحيحه) واللفظ له ، والحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين ، وقال: وقد رُوِيَ هذا الحديث عن ابن عباس وابن عمر وأبي سعيد وزيد بن حارثة وعائشة وغيرهم رضي الله عنهم.

وهنـاك البشائر العـامة للمؤمنين والمؤمنـات ، تَـرِدُ عليهـم يوم القيامة ، ليأمنوا وتطمئن قلوبهم :

قال الله تعالى : ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ اللهم اجعلنا منهم .

روى الطبراني ، والبيهقي في (الشُّعَب) والحكيم الترمذي ، وابن مَرْدُوْيَه والخطيب ، عن يعلى بن أُمية رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : «تقول النار للمؤمن يوم القيامة : جُزْ يا مؤمن فقد أطفأ نورك لَهَبي» .

فنار جهنم تُنادي المؤمن حين يمرُّ على الصراط الذي نُصِبَ جسراً فوقها ، تقول له : جُزْ ، أي : امضِ بسرعة حتى تجتاز الصراط ، لأن نورك ـ أي : نور إيمانك ـ أطفأَ لهبي ، فيمضي المؤمنون الكُمّل سالمين ، كما جاء في الحديث :

روى الإمام أحمد بإسناده ، عن أَبي سُمَيّة قال : اختلفنا في الورود ـ أي : المراد بقوله تعالى : ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَاۚ﴾ ـ قال بعضنا : لا يدخلها مؤمن ، وقال بعضهم : يدخلونها جميعاً ثم يُنجِّي الله الذين اتَّقَوْا ، قال : فلقيت جابر بن عبد الله رضي الله عنهما فذكرتُ ذلك له فقال ـ وأهوى بأُصبعيه إلى أُذنيه ـ : صُمّتَا إنْ لم أَكنْ سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : «لَا يَبْقَى بَرٌّ ولا فاجر إلا دخلها ، فتكون على المؤمن برداً وسلاماً ، كما كانت على إبراهيم ، حتى إن للنار ضجيجاً من بردهم ، ثم ينجِّي الله الذين اتَّقَوْا ، وَيَذَرُ الظالمين فيها جِثِيّاً» .

قلب المؤمن فيه مصباح الإيمان

لقد عُلم مما تقدم أَن قوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾ هو مَثَل لنور الإيمان في القلب، والدُّرِّيُّ: بضم الدال وشدِّ الياءِ: نسبة إلى الدرِّ، لبياضه وصفائه، ويجوز أن يكون أَصله: دُرِّيء، على وزن فُعِّيل، من: الدَّرْءِ وهو الدَّفْع، لكن خففت الهمزة، وإن العرب تسمي النجوم العظام: الدراري، بغير همز، وقد قرأَه بعض السبعة بالهمز[1]، وإنما وُصِف الكوكب المنير بذلك لأن نوره يَدفع الظلام ويَطرده.

ووجه تشبيه زجاجة القلب الصافية المتلألئة بمصباح الإيمان فيها: بالكوكب الدريِّ، لصفاءِ القلب وبياضه وضيائه بنور الإيمان فيه، وبالكوكب الدُّرِّيِّ، لأَنه بنور الإيمان فيه يَدفع ظلماتِ الشك، ويدرأُ الشبهاتِ الضالة، ويطارد الشهوات الضارة المحرمة، وقوةُ الدفع تكون على حسب قوة نور الإيمان الذي فيه.

روى الإمام أحمد في (مسنده) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «القلوب أربعة: قلبٌ أجردُ فيه مِثْلُ السراج يُزْهِر ـ أي: يضيءُ ـ وقلبٌ أغلفُ مربوطٌ على غلافه، وقلبٌ منكوس ـ أي: المقلوب الجاحد للحق ـ، وقلب مُصْفَح» ـ أي: له وجهان يلقى أهل الكفر بوجه، وأهل الإيمان بوجه ـ.

---

(١) انظر تفسير القرطبي والنسفي وغيرهما.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «فأما القلب الأَجرد: فقلب المؤمن سراجُه فيه نوره.

وأَما القلب الأَغلف: فقلب الكافر.

وأما القلب المنكوس: فقلب المنافق، عَرَف الحقَّ ثم أَنكر.

وأما القلب المُصْفَح: فقلب فيه إيمان ونفاق، ومَثَلُ الإيمان فيه كمثل البَقْلة يمدُّها الماءُ الطيب، ومثل النفاق فيه كمثل القُرْحة يمدُّها الدم والقيح، فأَيُّ المادتَيْنِ غلبتْ على الأُخرى غلبتْ عليه»[1].

وفي حديث حارثة المشهور ـ كما قال الحافظ ابن رجب قال: وقد رُوِي من وجوه مرسلة ورُوِي متصلا، والمرسل أصح[2] ـ أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال له: «يا حارثةُ كيف أصبحتَ»؟. قال: أصبحتُ مؤمناً حقاً.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «انظُرْ ما تقول، فإن لكل قول حقيقة».

قال: يا رسول الله عَزَفَتْ نفسي عن الدنيا ـ أي: زهدت فيها ـ فأَسهرتُ ليلي، وأَظمأْتُ نهاري، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً، وكأني أنظر إلى أهل الجنة كيف يَتَزاورون فيها، وكأني أنظر إلى أهل النار كيف يَتَعاوَوْنَ فيها ـ وفي رواية: يتضاغَوْنَ فيها ـ.

---

(١) قال الحافظ ابن كثير: إسناده جيد ولم يخرجوه. ا هـ.

(٢) انظر (جامع الغلوم والحكم) للحافظ ابن رجب الحنبلي.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم له: «أبصرتَ فالزمْ ، عبدٌ نوَّر الله الإيمانَ في قلبه» فكلما قوي الإيمان في القلب قوي فيه النور ، وبذلك يُبصر حقائق الأُمور.

وتقدم في حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه ، سمعَ النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «إن الله يحبُّ الأَبرار الأتقياءَ الأخفياءَ ، الذين إذا غابوا لم يُفْتَقدوا ، وإن حضروا لم يُعرفوا ، قلوبهم مصابيحُ الهدى ، يَخرجون من كلِّ غَبْراءَ مظلمةٍ».

وروى الطبراني ، والبيهقي ، عن عمر رضي الله عنه قال: نَظَرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مصعب بن عمير رضي الله عنه مقبلاً ، عليه إهابُ كبشٍ قد تَنَطَّق به[1] ، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم «انظروا إلى هذا الذي نوّر الله قلبه ، لقد رأيتُه بين أَبوين يَغْذُوانه بأَطيب الطعام والشراب ، ولقد رأيتُ عليه حُلَّة شَرَاها أَو شُرِيت بمئتي درهم ، فدعاه حبُّ الله وحبُّ رسوله صلى الله عليه وآله وسلم إلى ما تَرَوْن» أي: من الزهد والتقلل من الدنيا[2].

قلب المؤمن
مصبوغ بصبغة الله تعالى الإيمانية النورانية

قال الله تعالى: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ﴾.

جاءَ عن بعض السلف أنه فسّر الصبغة بالدِّين ، وعن بعضهم:

---

(١) أي: جعله حزاماً يشد به وسطه.
(٢) انظر (ترغيب) المنذري: ٣: ١١٢.

هي الفطرة ، نظيرُ قوله تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾.

ولا تَنَافِيَ بين القولين ، لأن الفطرة هي الدين ، كما فسرها القرآن الكريم.

وعن بعضهم: أن الصبغة هي الإيمان الذي نَوّر الله تعالى به القلوب ، فانْصَبَغَتْ به ، وهذا لا يتنافى مع القولين ، لأن الإيمان هو أَساس الدين وأصل الفطرة.

فقد أمر الله تعالى المسلمين بأن يقولوا لمخالفيهم من اليهود والنصارى: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ . . .﴾ إلى تمام الآية السابقة ، ثم يقولوا لهم: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ أي: صبغنا الله بالإيمان صبغته[1] ولا صِبغةَ أحسنُ من صبغته.

والصِّبْغة ـ بكسر الصاد ـ فِعْلة ، من: صَبَغَ ، كالجِلْسة من: جَلَسَ ، وهي الحالة التي يقع عليها الصبغ ، والمراد بالصِّبغة هنا: الإيمان الذي صَبَغَ الله تعالى به قلوب المؤمنين ، وإنما سميٰ ذلك صِبغةً باعتبار أن الصَّبغ يستلزم أَمرين:

أحدهما: التصاق الصِّبغ بالمصبوغ وتمكُّنُه فيه ، على وجه التخلُّل في جميع أجزائه ، والاستغراق لجميع ذراته الظاهرة والباطنة ، كما هو الحال في الثوب المصبوغ كاملاً ، ومن هنا يفترق الصَّبغ عن الطِّلاء والدَّهن ، فإنَّ هذين يأْتيان على ظاهر المطلي والمدهون ، أما الصَّبغ فإنه يتخلَّل في ذرات المصبوغ.

---

(١) انظر تفسير القرطبي والنسفي وغيرهما.

وهكذا الإيمان في قلب المؤمن، فإنه متخلل في جميع أجزائه، ومتمكِّن فيه، وثابت بتثبيت الله تعالى الذي له القوة جميعاً، قال تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ ﴾.

حتى إنَّ الإيمان بلغ من تمكُّنه ورسوخه في قلوب المؤمنين وثبوته، بلغ درجةً أقوى وأثبت من رسوخ الجبال الرواسي، كما في الحديث:

روى ابن أبي حاتم، عن الحسن قال: لما نزلتْ هذه الآية ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ... ﴾ الآية، قال أُناس من الصحابة: لو فَعَل ربُّنا ـ أي: لو أمرنا ـ لفعلنا.

فبلغ النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم ذلك فقال: «الإيمان أثبت في قلوب أَهله من الجبال الرواسي»[(١)].

وأخرج ابن جرير بإسناده، عن أبي إسحاق السَّبِيعيِّ قال: لما نزلتْ: ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ.. ﴾ الآية، قال رجل: لو أَمَرَنا لفعلْنا، والحمد لله الذي عافانا.

فبلغ ذلك النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «إنَّ مِنْ أُمتي لرجالاً الإيمانُ أَثبتُ في قلوبهم من الجبال الرواسي»[(١)].

وأخرج ابن المنذر، عن زيد بن الحسن قال: لما نزلتْ هذه

---

(١) انظر تفسير ابن كثير و(الدر المنثور).

الآية: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ . . .﴾ الآية ، قال ناس من الأنصار: والله لو كتبه الله علينا لَقَبِلْنَا ، والحمد لله الذي عافانا.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «الإيمان أَثبتُ في قلوب رجالٍ من الأَنصار من الجبال الرواسي»[1] .

فانظر أيها المؤمن في قوة تمكُّن الإيمان في قلوب المؤمنين ، والتصاقهِ وصِبْغةِ القلبِ به ، ولذلك أعلمَنَا الله تعالى بهذه النعمة الكبرى في قوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ ونَبّهَنَا لذكرها وشكره عليها.

ثانيهما: أن للصِّبغ أثراً في حِلْية المصبوغ وزينته وحسنه وجماله ، كما هو الحال في الثوب المصبوغ بالصبغة الجميلة الحسنة ، وكذلك القلب إذا صُبغ بالإيمان فإنّ له زينةً وحسناً وجمالاً ، ويكسو القلبَ نوراً وبهاءً ، وإن الذي صبغه بذلك هو الله تعالى ، ومَنْ أحسن مِنَ الله صبغة.

قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ . .﴾ الآية ، ولذلك عشقته القلوبُ وذاقتْ حلاوته.

روى الشيخان ، عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ثلاثٌ من كُنّ فيه وَجَدَ بهنّ حلاوةَ الإيمان: أَنْ يكونَ الله ورسولُه أَحبّ إليه مما سواهما ، وأن يحبَّ المرءَ لا يُحبُّه إلا لله ، وأَنْ يكرهَ أن يَعود إلى الكفر بعد أَنْ أَنقذه الله منه كما يَكرهُ أَنْ يُلقَى في النار».

وفي (صحيح) البخاري ، من حديث هِرقلَ وسؤاله

---

(١) انظر (الدر المنثور).

أبا سفيان بن حرب قال له: هل يَرتدُّ أحدٌ منهم ـ من المؤمنين بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ـ سَخْطةً لدينه بعد أَنْ يَدْخل فيه؟

فقال له أبو سفيان: لا.

فقال هِرقلُ: وكذلك الإيمان إذا خالطتْ بشاشتُه القلوبَ لا يَسخَطُه أحد.

قال الحافظ ابن حجر: وزاد ابن السكن في روايته في (معجم الصحابة): يزداد به عَجَباً وفرحاً.

وفي رواية ابن إسحاق: وكذلك حلاوةُ الإيمان لا تَدخلُ قلباً فتخرجُ منه.

الإيمانُ في القَلْبِ هُوَ نُورٌ مِنَ اللهِ تعالى

قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

وقال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ أي: يوسِّعْهُ ويفسحْه للنور النازل من عنده.

وقد بيّن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذلك في الأحاديث عنه:

جاء في الحديث الذي رواه ابن أبي شيبة، وابن أبي الدنيا، والبيهقي[1]، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله

---

(١) ورواه ابن جرير وأبو الشيخ وابن مَرْدُوْيَه والحاكم، كما في (الدر المنثور).

صلى الله عليه وآله وسلم حين نزلتْ هذه الآية: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾، قال: «إذا أدخلَ الله النورَ القلبَ انشرحَ وانفسحَ».

قالوا: فهل لذلك من آيةٍ يُعْرَفُ بها؟.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزول الموت».

وروى عبد الرزاق وابن أبي شيبة، وابن المبارك، والبيهقي في (الأسماء والصفات) عن أبي جعفر المدائني قال: سئل النبي صلى الله عليه وآله وسلم أيُّ المؤمنين أكيسُ ـ أي: أعقل ـ؟.

قال: «أكثرهم ذكراً للموت، وأحسنُهم لما بعده استعداداً».

قال: وسئل النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن هذه الآية: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ قالوا: كيف يشرح صدره يا رسول الله؟

قال: «نورٌ يُقذَفُ فيه، فينشرحُ له وينفسح له».

قالوا: فهل لذلك من أمارة يُعرف بها؟.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «الإنابة إلى دار الخلود، والتّجافي عن دار الغُرور، والاستعداد للموت قبل لقاءِ الموت»[1].

وروى ابن مَرْدُوْيَه، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال

---

(١) ورواه الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، كما في تفسير ابن كثير و(الدر المنثور).

رجل: يا رسول الله أيُّ المؤمنين أكيسُ؟.

قال: «أكثرهم للموت ذكراً، وأحسنهم له استعداداً» ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ﴾.

قلت: وكيف يَشرحُ صدره للإسلام؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «هو نور يُقذَفُ فيه، إن النور إذا وُضِعَ في القلب انشرح له الصدر وانفسح».

قالوا: يا رسول الله هل لذلك مِنْ علامةٍ يُعرف بها؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «نعم، الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل الموت».

ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم: «بئس القومُ قومٌ لا يقومون لله بالقسط، بئس القومُ قومٌ يَقتلُون الذين يأمرون بالقِسْطِ»[1].

وقال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَا﴾ أي: هما لا يتساويان لدىٰ كلِّ ذي عقل، كما لا يتساوى الظلمات والنور.

فالمؤمن استنار بالإيمان بالله تعالى ومحبته ومعرفته، والكافر هو غافل جاهل يتخبّط في الظلمات، فلا يفرِّق بين الحق والباطل، ولا بين ما ينفعه وما يضره، لأنه يمشي على غير نور وهدى، فالفلاح كل الفلاح، والنجاح كل النجاح، والخير كل

---

(١) انظر (الدر المنثور)، وقد ذكر لهذا الحديث روايات متعددة.

الخير ـ حالاً ومآلاً وعاجلاً وآجلاً ـ هو في هذا النور الإيماني.

ولهذا كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يكثر في دعائه ربَّه تبارك وتعالى وسؤالِه أن يجعل هذا النورَ في لحمه صلى الله عليه وآله وسلم وعظامه وعَصَبِه، وشعره وبشره، وسمعه وبصره، ومحيطٍ به من كل جهاته، وأن يجعل ذاتَه وجُمْلَته نوراً، فكان يقول: «واجعلني نوراً» وأن يجعل النورَ في ذراته كلِّها: الظاهرة والباطنة، اللحم والعظم والحواس، وفي دعائه تعليمُه لأُمته صلى الله عليه وآله وسلم قولاً وعملاً.

فمن ذلك دعاؤه بذلك إذا قام يتهجد:

روى الشيخان وغيرهما، عن ابن عباس رضي الله عنهما، أنه بات عند مَيمونَةَ أُمِّ المؤمنين ـ وهي: خالتُه ـ قال: فقلت: لأَنظُرَنَّ إلى صلاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فطُرِحَتْ لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسادةٌ، قال: فاضطجعتُ في عَرْض الوسادة، واضطجع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأهله في طولها، فنام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى انتصف الليل، أو قبلَه بقليل، أو بعده بقليل، ثم استيقظ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فجلس يمسح النوم عن وجهه بيده، ثم قرَأ العشرَ الآيات الخواتمَ من سورة آل عمران، ثم قام إلى شَنٍّ معلَّقةٍ فتوضأ منها، وأحسن وضوءَه، ثم قام يصلي.

قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: فقمتُ فصنعتُ مثلَ ما صنع، ثم ذهبتُ فقمتُ إلى جنبه، فوضع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يده اليمنى على رأسي، وأخذ بأُذني اليمنى

ففتلها ، فصلى ركعتين ، ثم ركعتين ، ثم ركعتين ، ثم ركعتين ، ثم ركعتين ، ثم ركعتين ، ثم أوتر ، ثم اضطجع حتى جاءَه المؤذن.

وفي رواية: فتتامّتْ صلاته ثلاثَ عَشْرَة ركعةً ، ثم اضطجع ، فنام حتى نفخ ، فأَتاه بلال فآذَنَه بالصلاة ، فقام يصلي ولم يتوضأْ - يعني: لأن عينيه تنامان وقلبه يقظان صلى الله عليه وآله وسلم -.

قال: وكان في دعائه: «اللَّهم اجعلْ في قلبي نوراً ، وفي بصري نوراً ، وفي سمعي نوراً ، وعن يميني نوراً ، وعن يساري نوراً ، وفوقي نوراً ، وتحتي نوراً ، وأمامي نوراً ، وخلفي نوراً ، واجعل لي نوراً».

قال كُرَيْبٌ - الراوي عن ابن عباس رضي الله عنهما -: وسبعاً في التابوت[1]، فلقيت رجلاً من ولد العباس فحدّثني بهنّ ، فذكر: عصبي ، ولحمي ، ودمي ، وشعري ، وبشري ، وذكر خصلتين: - وهما: مخِّي وعظامي ، كما في رواية الترمذي - وزاد في رواية: «وأعظمْ لي نوراً».

وفي رواية: رَقَبْتُ كيف يصلي النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، إلى أن قال: ثم خرج إلى الصلاة فصلَّى ، فجعل يقول في صلاته - أَو في سجوده - «اللهم اجعلْ في قلبي نوراً ، وفي بصري نوراً ، وعن يميني نوراً ، وعن شمالي نوراً ، وخلفي نوراً ، وفوقي نوراً ، وتحتي نوراً ، واجعلْ لي نوراً» أو قال: «واجعلني نوراً».

---

(١) أي: وسبعاً في قلبي.

وفي رواية: فدعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليلتئذ بتسعَ عَشْرَة كلمة ، قال سلمة الراوي عن كُرَيْب: حدثنيها كريب ـ الراوي عن ابن عباس رضي الله عنهما ـ فحفظتُ منها ثنتيْ عَشْرَة ، ونسيت ما بقي ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اللهم اجعلْ لي في قلبي نوراً ، وفي لساني نوراً ، وفي سمعي نوراً ، وفي بصري نوراً ، ومِنْ فوقي نوراً ، ومن تحتي نوراً ، وعن يميني نوراً ، وعن شمالي نوراً ، ومن بين يديَّ نوراً ، ومن خلفي نوراً ، واجعل لي في نفسي نوراً ، وأعظِمْ لي نوراً».

وفي رواية لمسلم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: فأَذَّن المؤذن فخرج إلى الصلاة وهو يقول: «اللهم اجعل في قلبي نوراً» إلى آخر الدعاء كما تقدم.

قال العلامة الزرقاني رحمه الله تعالى: ولا خُلْفَ ـ أي: لا اختلاف ـ بين رواية دعائه بذلك في صلاته أو سجوده صلى الله عليه وآله وسلم ، وفي حال خروجه إلى الصلاة ، فقال ذلك في الصلاة الليلية ، وفي حال خروجه إلى صلاة الصبح. اهـ. يعني: أنه صلى الله عليه وآله وسلم فعل جميع ذلك.

ومن ذلك: دعاؤه بزيادة النور بعد فراغه من صلاته في الليل:

روى الترمذي ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول ليلَةً حين فرغ من صلاته: «اللهم إني أَسأَلك رحمةً من عندك تَهدي بها قلبي ، وتجمع بها أمري ، وتَلُمُّ بها شَعَثي ، وتردُّ بها غائبي ، وتَرفعُ بها شاهدي ،

وتزكّي بها عملي ، وتُلهمني بها رشدي ، وتردُّ بها أُلفتي ، وتَعصِمني بها من كل سوءٍ.

اللهم أعطِني إيماناً ويقيناً ليس بعده كفر ، ورحمةً أنالُ بها شرفَ كرامتك في الدنيا والآخرة.

اللهم إني أَسأَلك الفوزَ في القضاءِ ، ونُزُلَ الشهداءِ ، وعيشَ السعداءِ ، والنصرَ على الأعداءِ.

اللهم إني أُنزِلُ بك حاجتي؛ وإنْ قَصُرَ رأْيي وضَعُفَ عملي ، وافْتَقَرْتُ إلى رحمتك ، فإني أَسأَلك يا قاضيَ الأُمور ، ويا شافيَ الصدور ، كما تُجيرُ بين البحور ، أن تُجيرني من عذاب السعير ، ومن دعوة الثُّبور ، ومن فتنة القبور.

اللهم وما قَصُر عنه رأيي ، ولم تَبلُغْه مسأَلتي ، ولم تَبلُغْه نِيَّتي من خيرٍ وَعَدْتَه أحداً من خلقك ، أو خيرٍ أنت معطيه أحداً من عبادك ، فإني أرغب إليك فيه ، وأسأَلكه برحمتك يا رب العالمين.

اللهم يا ذا الحَبْلِ الشديد ، والأَمرِ الرشيد ، أَسأَلك الأمنَ يوم الوعيد ، والجنةَ يوم الخلود ، مع المقرَّبين الشهود ، الرُّكَّع السجود ، الموفين بالعهود ، إنك رحيم ودود ، وإنك تفعل ما تريد.

اللهم اجعْلنا هادين مُهتدين ، غير ضالِّين ولا مُضِلِّين ، سِلْماً لأوليائك ، حَرْباً لأَعدائك ، نحبُّ بحبِّك مَن أَحبك ، ونعادي بعداوتك من خالفك.

اللهم هذا الدعاءُ وعليك الإجابة ، اللهم هذا الجُهد وعليك التُّكلان.

اللهمّ اجعلْ لي نوراً في قلبي ، ونوراً في قبري ، ونوراً من بين يديَّ ، ونوراً من خلفي ، ونوراً عن يميني ، ونوراً عن شمالي ، ونوراً من فوقي ، ونوراً من تحتي ، ونوراً في سمعي ، ونوراً في بصري ، ونوراً في شَعَري ، ونوراً في بَشري ، ونوراً في لحمي ، ونوراً في دمي ، ونوراً في مخِّي ، ونوراً في عظامي ، اللهم أَعظِمْ لي نوراً ، وأعطني نوراً ، واجعلْ لي نوراً. . . » الحديث.

وهذه الأنوار كلها هي أنوار إيمانية ، لأن الإيمان اعتقاد بالجَنان ، وإقرارٌ باللسان ، وعمل بالأركان ـ أي: عمل بالجوارح ـ فالإيمان الاعتقادي القلبي له أَنوار ، والإيمان القولي الصادر عن الإيمان القلبي له أَنوار ، والإيمان العملي له أنوار.

والدليل على ذلك ما جاءَ في حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «الطُّهور شَطْرُ الإيمان ، والحمد لله تملأُ الميزان ، وسبحان الله والحمد لله: تملآن ـ أَو «تَملأُ» ـ ما بين السماءِ والأَرض ، والصلاة نور ، والصدقة برهان ، والصبر ضياءٌ ، والقرآن حجةٌ لك أو عليك» الحديث.

والصلاة هي نور المؤمن ، كما جاءَ عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً: «الصَّلاةُ نُور المؤمن»[1].

وروى الطبراني ، عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه ، عن

---

(١) رواه ابن عساكر والقضاعي ، كما في (الجامع الصغير) وغيره ، وانظر (جامع العلوم والحكم).

النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إذا حافظ العبدُ على صلاته فأَقام وضوءَها، وركوعها وسجودها، والقراءَة فيها، قالت له: حفظك الله كما حفظتَني، وصُعِد بها إلى السماءِ ولها نور تنتهي إلى الله عز وجل، فتشفع لصاحبها»[1].

فهي نور للمصلي في حياته، وبعد مماته في قبره وحشره، وعلى الصراط، وفي الجنة.

وروى الإمام أحمد بإسناد جيد، وابن حبان في (صحيحه) عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه ذكر الصلاة يوماً فقال: «مَنْ حافَظَ عليها كانت له نوراً وبرهاناً ونجاة يوم القيامة، ومَنْ لم يحافظْ عليها لم تكنْ له نور ولا برهان ولا نجاة، وكان يوم القيامة مع قارونَ وفرعونَ وهامانَ وأبيٍّ بن خَلَف».

وأما الصدقة: فهي برهان، قال الحافظ ابن رجب الحنبلي: والبرهان هو الشعاع الذي يلي وجه الشمس[2]، ومنه حديث أبي موسى رضي الله عنه: «إن روح المؤمن تَخرج من جسده لها برهان كبرهان الشمس».

قال: ومنه سميت الحجة القاطعة برهاناً لوضوح دلالتها على ما دلت عليه، فكذلك الصدقة برهانٌ على صحة الإيمان وطيب

(١) انظر (جامع العلوم والحكم).
(٢) قال الراغب في مفرداته: وقال بعضهم: هو ـ أي: البرهان ـ مصدر بَرَه يَبْـرَهُ إذا ابيض، ورجل أَبْـرَه، وامرأة برهاء، وقوم بُـرْهٌ، وَبَرَهْـرَهَـةٌ: شابة بيضاء. ا هـ.

النفس بها ، وعلامةُ وجودِ حلاوةِ الإيمان وطعمه. ا هـ.

وأما الصبر: فهو ضياءٌ ، وأَول ما يَدخل تحته الصوم ، قال الحافظ ابن رجب: وفي بعض نسخ (صحيح) مسلم: «والصيام ضياءٌ». ا هـ.

فالأعمال الإيمانية كلها أَنوار تُرى مشاهدةً في عالم البرزخ فما بعده لكلٍّ من يرى.

روى البزار ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «قال الله عز وجل: إنما أتقبّل الصلاةَ ممن تَوَاضع بها لعظمتي ، ولم يَسْتَطِلْ على خلقي ، ولم يَبِتْ مُصِرّاً على معصيتي ، وقَطَعَ النهار في ذكري ، ورَحِمَ المسكينَ ، وابنَ السبيل ، والأرملةَ ، ورَحِم المصابَ ؛ ذلك نوره كنور الشمس ، أَكْلَؤُه بعزتي ، وأستحفظه ملائكتي ، وأجعلُ له في الظلمة نوراً ، وفي الجهالة حِلْماً ، ومَثَلهُ في خَلْقِي كمثل الفردوس في الجنة»(١).

جَمِيعُ مَا جَاءَ بِهِ الدِّيْنُ فَهُوَ نُوْرٌ

ومما تقدم يعلم العاقل أنَّ جميع ما جاءَ به دين الإسلام من عقائد وأقوال وأعمال: فهو نور ظاهر في ثبوت حقه وحقيقته ، وهو نور يُشْهَدُ ويُرى على صاحبه الذي طبّقه وتحقَّق به ، كما تقدم الدليل عليه ، لأن هذا الدين جاءَ من عند الله تعالى.

---

(١) قال الحافظ المنذري: رواه البزار من رواية عبد الله بن واقد الحراني ، وبقية رواته ثقات. ا هـ.

كما أن كتاب الله تعالى نور:

قال تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ . . .﴾ الآية.

وقال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إنّ هذا القرآن مأْدُبةُ الله؛ فاقْبَلوا مأْدُبَتَه ما استطعتم، إنّ هذا القرآنَ حبلُ الله، والنورُ المبين، والشفاءُ النافع، عصمةٌ لمن تمسّك به، ونجاةٌ لمن اتَّبَعه» الحديث كما رواه الحاكم.

وحجابه سبحانه وتعالى نور:

روى مسلم، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قام فينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بخمس كلماتٍ فقال: «إن الله تعالى لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يَخفِضُ القِسْط ويرفعُه، يُرفع إليه عملُ الليل قَبْلَ عملِ النهار، وعملُ النهارِ قبلَ عملِ الليل، حجابُه النورُ، لو كشَفَه لأَحرقتْ سُبُحاتُ وجهه ما انتهى إليه بصرُه من خلقه» سبحانه وتعالى أنْ يُشبهَ شيئاً أَو يُشْبِهُهُ شيءٌ، بل هو كما وصف نفسه بقوله: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾.

وروى ابن أبي حاتم، عن عكرمة أنه قال: لو جَعَل الله تعالى نورَ جميعِ أَبصارِ الإنسِ والجنِّ والدوابِّ والطير في عيني عبدٍ، ثم كشف حجاباً واحداً من سبعين حجاباً دون الشمس، لَمَا استطاع أَن يَنظر إليها، ونورُ الشمسِ جزءٌ من سبعين جزءاً من نور الكرسي، ونورُ الكرسي جزءٌ من سبعين جزءاً من نور العرش،

ونورُ العرش جزءٌ من سبعين جزءاً من نور السِّتر ـ أي: الحجاب ـ.

قال عكرمة: فانظر ـ أيها المؤمن ـ ماذا أعطى الله تعالى عبدَه من النور في عينيه وقتَ النظر إلى وجه ربه الكريم عياناً[1]. ا هـ.

نعم، إنّ في ذلك إكراماً عظيماً من الله تعالى لعباده المؤمنين، فاعرف أيها المؤمن كرامة منزلتك عند الله تعالى، وعظيمَ فضله عليك، وافرحْ بذلك وَقَرّ عيناً، قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

وعرشه سبحانه يتلألأُ بالنور:

روى ابن أبي الدنيا، عن أبي المُخَارِقِ رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «مررتُ ليلةَ أُسري بي برجل مُغَيّبٍ في نور العرش.

قلت: من هذا؟ أهذا مَلَك؟، قيل: لا، قلت: نبيٌّ؟ قيل: لا، قلت: من هو؟

قال: هذا رجلٌ كان في الدنيا لسانُه رَطْبٌ من ذكرِ الله تعالى، وقلبه معلَّقٌ بالمساجد، ولم يسْتَسِبَّ لوالديه».

وروى عبد بن حميد، وابن المنذر، عن ميسرةَ في قوله تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ قال: أرجلُهم في التُّخوم، ورؤوسُهم عند العرش، لا يستطيعون أن يرفعوا أبصارهم من شعاع النور.

وتقدم قول عكرمة: ونور الشمس جزءٌ من سبعين جزءاً من نور

---

(١) انظر تفسير ابن كثير: ورواه أبو الشيخ مختصراً، كما في (الدر المنثور).

الكرسي ، ونور الكرسي جزءٌ من سبعين جزءاً من نور العرش. . . . إلخ ، ومثل هذا لا مجال للرأي فيه.

كما أن دار كرامته وضيافته لعباده المؤمنين هي تَلألأُ بالنور:

فعن كُريب ، أنه سمع أُسامةَ بن زيد رضي الله عنهما يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أَلا هَلْ مُشَمِّرٌ للجنة ، فإن الجنة لا حظرَ لها ، هي ـ ورب الكعبة ـ نور يتلأْلأُ ، وريحانةٌ تهتزُّ ، وقصرٌ مَشِيدٌ ، ونهرٌ مطَّردٌ ، وثمرةٌ نضيجة ، وزوجة حسناءُ جميلة ، وحُلَلٌ كثيرة ، ومقام في أَبد في دار سليمة ، وفاكهة وخضرة ، وحَبْرةٌ ونعمة ، في محلة عالية بهيَّة».

قالوا: نعم يا رسول الله نحن المشمِّرون لها.

قال: «قولوا: إن شاءَ الله».

فقال القوم: إن شاءَ الله[1].

وإن أَهلها الذين يدخلونها ـ جعلنا الله تعالى منهم ـ لهم أَنوارٌ ساطعة ، وإشراقات لامعة:

روى الشيخان ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّ أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، ثم الذين يلونهم على أشدِّ كوكب درِّيٍّ في السماء إضاءَةً ، لا يبولون ولا يتغوّطون ، ولا يَمْتَخِطُون ، ولا يَتْفُلون، أمشاطُهم الذهب، ورَشْحُهم ـ أي: عرقهم ـ المسك ،

---

(١) قال الحافظ المنذري: رواه ابن ماجه ، وابن أبي الدنيا ، والبزار ، وابن حبان في (صحيحه) والبيهقي.

ومَجَامِرُهم الألُوّة[1] ، أَزواجهم الحور العين ، أخلاقهم على خُلُق رجل واحد ، على صورة أبيهم آدم ستون ذراعاً في السماءِ».

وعن أَنس رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «غَدْوَةٌ في سبيل الله أَو رَوْحة: خيرٌ من الدنيا وما فيها ، ولَقَابُ قوسِ أحدكم أَو موضع قِدِّه في الجنة: خيرٌ من الدنيا وما فيها ، ولو أنَّ امرأَة من نساءِ أهل الجنة اطَّلعت إلى أَهل الأرض لأضاءَت الدنيا وما فيها ، ولَمَلأَتْ ما بينهما ريحاً ـ أي: رائحة عطرية طيبة ـ ولَنَصيْفُها ـ يعني: خمارها ـ خير من الدنيا وما فيها» رواه الشيخان والترمذي واللفظ له[2].

قال الحافظ المنذري: القِدُّ: بكسر القاف وتشديد الدال هو السَّوْط ، قال: ومعنى الحديث: ولقدرُ قوسِ أحدكم ، أو قدر الموضع الذي يوضع فيه سوطه خير من الدنيا وما فيها. ا هـ.

فالدنيا وما فيها من ذهب وفضة ومعادن ثمينة: لا تعادل ذلك القدرَ ، بل ذلك القدر الصغير الحجم هو خير من الدنيا وما فيها .

فاعرف أيها المؤمن كرامتك عند الله تعالى ، ولا تغرَّنَّك الدنيا وما فيها.

وعن سعد بن أَبي وقاص رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لو أنَّ ما يُقِلُّ[3] ظُفُرٌ مما في الجنة بَدَا:

---

(١) الألوة: بفتح الهمزة وضمها ، وبضم اللام وتشديد الواو وفتحها؛ من أسماء العود الذي يتبخر به.
(٢) كما في (ترغيب) المنذري.
(٣) أي: ما يحمل.

لتزخرفتْ له ما بين خوافقِ[1] السموات والأرض ، ولو أنّ رجلاً من أَهل الجنة اطّلَع فبدا سِواره لَطَمَس ضوءَ الشمس كما تطمسُ الشمسُ ضوءَ النجوم».

قال المنذري: رواه ابن أبي الدنيا ، والترمذي وقال: حديث حسن غريب.

هذا ، وإن التجلِّيات الإلّهية النورانية تتوارد على أهل الجنة ، فيزدادون نوراً على نور ، وجمالاً وحسناً وكمالاً.

روى ابن ماجه ، عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «بينا أَهلُ الجنة في نعيمهم إذ سَطَع عليهم نور ، فرفعوا رؤوسهم ، فإذا الربُّ جل جلاله قد أشرف عليهم من فوقهم ، فقال: السلام عليكم يا أَهل الجنة ، وهو قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ فلا يلتفتون إلى شيءٍ مما هم فيه من النعيم ما داموا ينظرون إليه ، حتى يحتجبَ عنهم وتبقى فيهم بركته ونوره»[2].

قَلْبُ المؤمنِ وِعَاءٌ لِمَعْرِفَةِ اللهِ تعالى والإِيْمَانِ بِهِ

روى الطبراني ، عن أبي عِنَبة الخولاني رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال[3]: «إن لله تعالى آنيةً من أَهل

---

(١) قال ابن الأثير: خوافق السماء: الجهات التي تخرج منها الرياح الأربع. اهـ.

(٢) ورواه أبو نعيم والبيهقي برواية أطول من ذلك.

(٣) انظر (الوابل الصيب) للعلامة ابن القيم.

الأَرض ، وآنيةُ ربِّكم قلوبُ عباده الصالحين ؛ وأحبُّها إليه أَلينُها وأرقُّها»[١] .

قال العلامة المناوي : آنية : جمع إناءٍ وهو وعاءُ الشيء . ا هـ .

وقال في الصحاح : الإناءُ : معروف ، وجمعه آنية ، وجمع الآنية : أوانٍ ، مثل : سِقاءٍ وأَسقية وأَساقٍ . ا هـ .

والمعنى : أنَّ قلوب الصالحين هي آنية لأنوار الإيمان بالله تعالى ، وأَنوارِ معرفته ومحبته ، وهو سبحانه هو الذي يفرغ فيها من تلك الأَنوار والأَسرار ما يشاءُ ، كما هو مقتضى حكمته وعلمه ، فإنه سبحانه العليم الحكيم الذي يضع الأشياءَ في مواضعها اللائقة بها ، حسب استعدادها وقابليّتها ، ولذلك جاءَ في الحديث : «إن القلوب أَوعيةٌ ، وبعضها أَوعى من بعض» .

روى الإمام أحمد بإسناد حسن ، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : «القلوبُ أوعيةٌ ، وبعضها أوعى من بعض ، فإذا سأَلتم الله عز وجل ـ يا أيُّها الناس ـ فاسأَلوه وأنتم مُوقنون بالإجابة ، فإن الله تعالى لا يَستجيبُ لعبدٍ دعاءً عن ظهرِ قلبٍ غافل»[٢] .

---

(١) قال الحافظ الهيثمي : إسناده حسن ، وقال شيخه العراقي : فيه بقية بن الوليد وهو مدلس ، لكنه صرح بالتحديث فيه ، انتهى من (فيض القدير) للمناوي .

(٢) انظر (ترغيب) المنذري ٢ : ٤٩١ .

قَلْبُ المؤْمِنِ كِتَابٌ شَرِيْفٌ لأنَّ الله تَعالى كَتَبَ فِيْهِ الإيْمَانَ

قال الله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

ومن هنا يتبيّن لك أَيها المسلم شرف قلوب المؤمنين ؛ فإن فيها كتابَةَ الله تعالى الإيمانَ ، وما أَفضلها من كتَابة ، وما أَعزَّها وأشرفها من كتابة ، إنها ليست كتابةَ كاتبٍ من العباد ، إنها كتابة الله تعالى ربِّ العباد ، وإن موضوعها هو الإيمان بالله تعالى الذي بدأَ الخلقَ ، وإليه المعاد ، فأَكْرِمْ بهذا القلبِ الذي صار لوحاً لكتابة الله تعالى ، تَلُوح عليه أَنوار الإيمان بالله تعالى.

وقد بيّن الله تعالى في هذه الآية الكريمة أُموراً هامة ينبغي التنبه إليها:

أولاً: إن الإيمان يُوجب على المؤمن مُوادّة مَن آمن بالله واليوم الآخر ، كما يُوجب عليه مُحادّة من حادّ الله ورسوله ، فقد نَفَى سبحانه عن المؤمنين بالله واليوم الآخر وجودَ موادّة منهم لمن حادّ الله ورسوله ، أي: لأَنهما نقيضان لا يجتمعان ، بل الموجود في المؤمنين بالله واليوم الآخِر هو موادَّتهم لمن أَطاع الله ورسوله ، وأَحب الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

والموادة هي: الموالاة والمحبة.

قال العلامة القرطبي رحمه الله تعالى: والمُحَادّة: المعاداة والمخالفة في الحدود، وهو مِثْل قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ والمعنى: أنهم في حَدٍّ وجانبٍ غيرِ الحدِّ الذي دعا إليه الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم، ثم قال: وقال الزَّجّاج: المحادّة: أن تكون في حدٍّ يُخالف حدّ صاحبك، وأَصلها الممانعة، ومنه الحديد، ومنه: الحَدّاد للبواب. ا هـ.

فالإيمان يقتضي ويُوجب الحبّ في الله تعالى، والبغض في الله تعالى، ولا يَكمل إلا بذلك.

روى أبو داود، عن أبي أُمامة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «مَن أحبّ لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله: فقد استكملَ الإيمان».

وروى الإمام أحمد، عن معاذ بن أنس رضي الله عنه، أنه سأَل رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم عن أَفضل الإيمان قال: «أَنْ تحبّ لله، وتبغض لله، وتُعْمِلَ لسانَك في ذكر الله».

قال: وماذا يا رسول الله؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «وأَن تحبّ للناس ما تُحبُّ لنفسك، وتَكرهَ لهم ما تكرهُ لنفسك».

وعن أنس رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه وجد بهنّ حلاوةَ الإيمان: مَن كان الله ورسولُه أحبّ إليه مما سواهما، ومن أحبّ عبداً لا يحبه إلا لله،

ومن يكره أن يعودَ في الكفر بعد أَنْ أَنقذه الله منه كما يكره أن يُقذفَ في النار».

وفي رواية: «ثلاثٌ مَن كنّ فيه وجد حلاوةَ الإيمان وطعمه: أن يكون الله ورسولُه أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يحبَّ في الله ويبغض في الله، وأن تُوقدَ نارٌ عظيمة فيقعَ فيها أحبُّ إليه من أَن يشرك بالله شيئاً».

قال المنذري في (الترغيب): رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي.

ولا تَعَارض بين هذه الآية الكريمة وبين قوله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾.

فإن الله تعالى لا يَنْهى عبادَه المسلمين عن الإحسان إلى الكَفَرة الذين لم يُقاتلوهم في الدين ولم يُظَاهروا ـ أي: ولم يعاونوا على إخراجهم من ديارهم ـ أن يُحسنوا إليهم، وأَن يَعْدِلوا في معاملاتهم، ويُوصلوا إليهم حقوقَهم كاملةً، بل ذلك أَمر مشروع، ولذلك قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ﴾ أي: إنما ينهاكم عن موالاة هؤلاءِ الذين ناصبوكم بالعداوة، وأخرجوكم وأعانوا على إخراجكم، يَنهاكم الله عن مُوالاتِهم، ويأْمُركمْ بمعاداتهم، ثم أكدّ الوعيد على موالاتهم فقال: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

روى الإمام أحمد وغيره، عن أَسماءَ بنت أبي بكر الصديق

رضي الله عنه وعنها قالت: قَدِمَتْ أُمي وهي مُشركةٌ في عهد قريش إذْ عاهدوا، فأَتيتُ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فقلت: يا رسول الله إنّ أُمي قدمتْ وهي راغبةٌ أَفأَصِلُها؟.

قال: «نعم صِلي أُمَّكِ».

وروى البيهقي، والطبراني، والحاكم وغيرهم، عن عبد الله ابن شَوْذَب قال: جعل والدُ أبي عبيدة بن الجراح يتصدى لأبي عبيدة يوم بدر ـ أي: وكان أبو عبيدة رضي الله عنه في صفوف المسلمين وأَبوه مع المشركين ـ فجعل أبو عبيدة يَحِيدُ عنه ـ أي: يَتَوارى من أَبيه ـ فلما أكثر ـ أبوه التصدِّي ليقتلَه ـ قصده أَبو عبيدة فقتله، فنزلت: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ...﴾ الآية.

ثانياً: إنَّ مَنْ تحقَّق فيه وصفُ المحبة في الله تعالى والبغض في الله تعالى، فصار يُوالي أحبابَ الله تعالى، ويُعادي أعداءَ الله تعالى، فإنّ له الضمانةَ من الله تعالى أن يُثَبِّتَه على الإيمان ويمكِّنه في قلبه، وإلى هذا يشير قوله سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾، والمعنى: أن ما كتبه الله تعالى فلا يُمْحَىٰ، ولا يَستطيع أحدٌ تبديلَه وتحويلَه، وقد قال سبحانه في الآية قبل هذه الآية: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ يُبَيِّن الله سبحانه حقيّةَ كتابته وثبوتَها.

ثالثاً: إنهم الذين ضَمِنَ الله تعالى لهم نصرتهم وتأْييدَهم بروح منه، قال تعالى: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾.

وإنما نالوا هذه المرتبةَ لأَنهم نصروا الله تعالى على نفوسهم ؛ فأَوقفوها عند حدود الله تعالى ، ولم يَدَعوها تُجاوز حدود الله تعالى وتَتَعَدّاها: بأهواءٍ فاسدة ، وشهوات باطلة ، ونصروا الله تعالى على الكفار؛ ولو كانوا آباءَهم أَو أَبناءَهم أو إخوانهم ، أَو عشيرتهم ، ونصروا دين الله تعالى ، ونصروا كتابه وشرعه ، ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، والمؤمنين به سبحانه ، فكان جزاؤهم أَن تكفَّل سبحانه بنصرهم ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُۖ﴾ .

واختلفتْ أقوال السلف الصالح[1] في المراد بهذا الروح الذي أيدهم الله تعالى به ونصرهم، وثبّتهم به ، وكُلُّها صحيحة ومتلازمة:

فقال بعضهم: هو روح الإيمان ونوره ، فإن للإيمان روحاً يَحْيا به القلب ويَقْوَى ، وله نور ، فيعطَىٰ صاحبُه الحجة والبرهان ، ويدلُّ على هذا ما جاء في الحديث:

روى أبو داود ، عن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّ من عباد الله لأُناساً ما هم بأَنبياء ولا شهداءَ ، يَغْبِطُهم[2] الأَنبياءُ والشهداءُ يوم القيامة بمكانتهم من الله» .

قالوا: يا رسول الله فَخَبِّرْنا مَن هم!

قال: «هم قومٌ تحَابُّوا بروح الله؛ على غير أرحام بينهم ، ولا أَموالٍ يَتَعاطَوْنها ، فو الله إنَّ وجوههم لنور ، وإنهم لعلى نور ،

---

(١) كما نقلها القرطبي وغيره.

(٢) غبطة سرور وفرح بما أكرمهم الله تعالى به.

ولا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس» وقرأَ هذه الآية: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ .

فهذا الروح هو الروح الإيماني الذي يَحيا به القلب ، وهو النور الذي جاءَ في رواية النسائي وابن حبان في (صحيحه) ـ واللفظ له ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن مِنْ عبادِ الله عباداً ليسوا بأَنبياءٍ يَغْبطُهم الأَنبياءُ والشهداءُ» .

قيل: من هم لعلَّنا نُحبُّهم؟

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «هم قومٌ تَحَابُّوا بنور الله ـ أي: بنور الإيمان بالله تعالى ـ من غير أرحام ولا أنساب ، وجوههم نور ، على منابرَ من نور ، لا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يَحزنون إذا حزن الناس» ثم قرأ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾[1] .

وهذا الروح الإيماني والنور الإيماني أشار الله تعالى إليهما في قوله: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ﴾ أي: بروح الإيمان ﴿وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَا . . .﴾ الآية.

والمعنى: أنه لا يتساوىٰ المؤمن الذي أحيا الله تعالى قلبه بروح الإيمان ، ونوَّره بنور الإيمان ، لا يتساوىٰ مع الكافر ميت القلب ، يتخبّط في الظلمات.

وقال بعضهم: المراد في قوله تعالى: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ﴾

---

(١) كما في (ترغيب) المنذري.

قال: بالقرآن وحُجَجه ، وذلك لأن القرآن جاءَ بروح من أمر الله تعالى ، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ .

وبهذا الروح القرآني حياةُ الروح الإنساني ، وحياة قلب الإنسان ، والحياة السعيدة الطيبة للأشباح والأَرواح ، والفرد والمجتمع ، وسعادة الدنيا والآخرة ، وفيه الحجج القاطعة التي لا تُنقض ولا تردُّ ، لأنها حجة الله تعالى ، ولله الحجة البالغة الدامغة لكل باطل ، ولذلك قال تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ .

فقد أَمر الله تعالى رسوله الكريم صلى الله عليه وآله وسلم أن يُجاهد الكافرين على اختلاف مِلَلهم ونِحَلهم ومبادئهم الباطلة . يُجاهدُهُم بحجج القرآن الكريم ، ووَصَفَ ذلك بأَنه جهادٌ كبير ، فلولا أنَّ سيفَ القرآن الكريم قاطعٌ في حجته ، ساطع في برهانه ، لما قلَّده الله تعالى رسوله الكريم صلى الله عليه وآله وسلم ، ولما أمره أن يجاهدَ به الكفرة على اختلاف كفرهم وضلالتهم .

أَتظنُّ أن الله تعالى يُعطي رسوله صلى الله عليه وآله وسلم سيفاً ضعيفاً مَثْلُوماً ، ثم يأْمره أن يجاهد به أعداءَه الكفار؟ الله أَكبر وأَجل وأَعز !! .

ومن هنا تعلم أَيها المسلم علم اليقين أن حجج القرآن قاطعة لكلِّ مبطل ، وداحضةٌ لكل باطل ، لأن القرآن الكريم جاءَ بِهَدْي العباد إلى سبيل الرشاد ، ببيِّنات من الهدى والفرقان ، على مدى العصور والأزمان .

وقال بعض السلف: المراد بالروح في قوله تعالى: ﴿وَأَيَّدَهُم

﴿بِرُوحٍ مِّنۡهُۖ﴾ : جبريلُ عليه السلام ، فإن الله تعالى وصفه بالروح الأمين ، قال تعالى : ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ﴾ ووصفه بروح القُدُس ، قال تعالى : ﴿قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ. . .﴾ الآية ، فهو المراد في قوله تعالى : ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنۡهُۖ﴾ .

ويدلُّ على ذلك ما جاءَ في الحديث ، عنه صلى الله عليه وآله وسلم من تأْييد الله تعالى لحسانَ بنِ ثابت رضي الله عنه بروح القدس في هجاءِ المشركين ، والردِّ على المنافقين ، منافِحاً عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

روى البخاري ، عن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يَضَعُ لحسانَ منبراً في المسجد يقوم عليه قائماً ، يُفاخرُ عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ أَو يُنافِحُ ـ ويقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «إن الله يؤيِّد حسَّانَ بروحِ القُدُسِ ، ما نافح أَو فاخر عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم» .

وفي رواية أبي داود : فيقوم عليه ـ أي : المنبر ـ يهجو من قال في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «رُوحُ القدسِ مَعَ حَسَّانَ ؛ ما نافح عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم» .

وفي (الصحيحين) عن البراء بن عازب رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال يوم قُريظةَ لحسان : «اهْجُ المشركينَ فإن جبريلَ معك» .

وفي رواية: «اهْجُهُم أَو هاجِهم وجبريلُ معك»[1].

وروى الشيخان، عن أَبي هريرة رضي الله عنه قال: مَرَّ عمرُ بحسان رضي الله عنهما وهو يُنشد الشعر في المسجد، فَلَحَظَ إليه شَزْراً.

فقال حسان لعمر رضي الله عنهما: قد كُنْتُ أُنشِد فيه ـ أي: المسجد ـ وفيه مَنْ هو خير منك، ثم التفتَ إلى أَبي هريرة رضي الله عنه فقال: أَنْشُدُك الله أسمعتَ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «أَجِبْ عني، اللهم أيِّدْه بروح القُدس»؟.

فقال: اللهم نعم.

ففي هذا دليل على أن الله تعالى قد يؤيد مَن شاءَ من عباده المؤمنين بجبريل عليه السلام في نصرة دين الله تعالى، والدفاع عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وجميع هذه الأقوال الواردة عن السلف الصالح في بيان المراد من ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ كلُّها متلازمة وليست متنافية، فإنَّ هذا الاختلاف من باب اختلاف التنوع، بمعنى أنَّ الآية الكريمة تَشمَل ذلك كلَّه، وليس ذلك من باب اختلاف التضاد بحيث إذا أخذنا بقولٍ من تلك الأقوال أدّىٰ ذلك إلى نقض بقية الأقوال، وهذا له نظائرُ وأشباهٌ في أقوال المفسرين من السلف الصالح ليس هنا موضع تفصيلها.

رابعاً: إنَّ الله تعالى وعد أُولئك المؤمنين الصادقين في محبتهم

---

(١) انظر (جامع الأصول).

لله تعالى، ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم بالجنان والرضوان، قال تعالى: ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ﴾.

فجمع لهم أنواع النعيم: نعيم الأشباح، ونعيم الأرواح، النعيم الجسماني بالجنات وما فيها من المآكل والمشارب والملاذّ، والنعيم القلبي الروحاني، وهو إحلال رضوانه سبحانه عليهم، وهذا أكبر وأعظم، قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

قال الحافظ ابن كثير: رضاءُ الله تعالى عنهم أكبرُ وأجلُّ وأعظمُ مما هم فيه من النعيم، ثم نقل عن أبي عبد الله الحسين بن إسماعيل المحامِلي، بإسناده عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا دخلَ أهلُ الجنةِ الجنةَ قال الله عز وجل: هل تَشْتَهُونَ شيئاً فأَزِيدَكم؟

قالوا: يا ربنا ما خَيْرٌ مما أعطيتَنا؟

قال: رضواني أكبر»[1].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن الله عز وجل يقول لأَهلِ الجنة: يا أَهلَ الجنة.

---

(١) قال ابن كثير: ورواه البزار في (مسنده) من حديث الثوري، وقال الحافظ الضياء المقدسي في كتابه (صفة أهل الجنة): هذا عندي على شرط الصحيح والله أعلم. اهـ.

فيقولون: لبيك ربّنا وسعديك، والخيرُ في يديك.

فيقول: هل رضيتم؟.

فيقولون: وما لنا لاَ نَرْضَى يا ربنا وقد أَعطيتَنا ما لم تعطِ أحداً من خَلْقك؟!

فيقول: ألا أُعطيكم أفضلَ من ذلك؟

فيقولون: وأيُّ شيءٍ أفضلُ من ذلك؟.

فيقول: أُحِلُّ عليكم رضواني فلا أسخطُ عليكم بعده أبداً» رواه الشيخان والترمذي.

خامساً: إن الله تعالى قد نَظَم أُولئك المؤمنين الذين آثروا حبّ الله ورسوله على الآباءِ والأَبناءِ والإخوة والعشيرة، قدْ نظمهم في سلك حزبه، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ﴾ وأضافهم إليه تشريفاً وتكريماً، ولا أشرف ولا أكرم من هذه النسبة، ولا أقوى منها ولا أسعدَ وأنجحَ منها، ولذلك سجّل سبحانه وتعالى الغَلَبَةَ لحزبه، فقال في سورة المائدة: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾.

وأعلن لهم الفلاح فقال في هذه الآية: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ والفلاح: هو الظفر بالمطلوب، والحصول على المرغوب. فكلمة الفلاح تعبر عن كل خير، وتشمل كلّ بِرٍّ في الدنيا والآخرة، وقد علّق الله تعالى حصول الفلاح على عظائم الأعمال ومهام الأُمور، قال سبحانه: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ﴾ أي: برسول الله سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ . . .﴾ إلى قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الآيات مِنْ فواتح سورة البقرة.

وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ الآيات من أول سورة المؤمنين. وغير ذلك من الآيات الكريمة التي يسجِّل الله تعالى فيها الفلاح لعباده المؤمنين.

وفي ذلك ينبّه الله تعالى عبادَه لشرفِ هذا الدين الإسلامي ومَجْده وفَخره، وأنه دينُ الفلاح والصلاح والنجاح، جاءَ يدعو العالَم إلى الفلاح، وقد شرع الله تعالى أن يؤذَّن بذلك وتُرفع الأَصواتُ عاليةً معلنةً هذا المبدأَ الإسلامي في كل يوم مرات متعددة، في أَزمنة متعددة، وأمكنة متعددة، قائلةً: حَيَّ على الصلاة، حيَّ على الفلاح.

صدُورُ مُؤْمِني هذِهِ الأُمَّةِ مَحافِظُ قُرآنِيَّة

قال الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ . . .﴾ الآية.

وفي حديث عياض بن حمار رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «يقول الله تعالى: وإنَّما بَعَثْتُكَ لأَبْتَلِيَكَ، وأَبْتَلِيَ بِكَ، وأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتاباً لا يَغسِلُه المَاء، تَقْرأُهُ نَائِماً ويَقْظَانَ. . .» الحديث كما في (صحيح) مسلم.

فَمِنْ أَعظم المنن الإلَهية التي خصّ الله تعالى بها هذه الأُمةَ

المحمديةَ على رسولنا أَفضل الصلاة والسلام ، ولَم يُعْطِها غيرَها من الأُمم السابقة: أن الله تعالى جَعلَ قلوب هذه الأُمة أَوعيةً لكلامه ، وجعل صدورها مصاحف لحفظ آياته ، لا يغسله من قلوبهم تيارُ الماءِ ، ولا يمحوه من صدورهم كيد الأَعداءِ.

وقد أعلن الله تعالى هذه المنقبة العظيمة لهذه الأُمة الخيِّرة الكريمة ، فيما أَوحاه إلى الأَنبياءِ السابقين ، وأَعلم بذلك الأُمم الماضية تكرمةً لهذه الأُمة على سائر الأُمم ، ورفعةً لشأْنهم ، وإعلاماً بأَفضلية القرآن العظيم ، الذي أَنزله على رسولهم صلى الله عليه وآله وسلم.

روى الطبراني ، عن ابن مسعود رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «صِفَتي: أَحمدُ المتوكِّل ، ليس بِفظٍّ ولا غليظٍ ، يَجزي بالحسنة الحسنةَ ، ولا يكافىءُ بالسيئة ، مولدُه بمكة ، ومهاجَرُه طيبة ، وأُمتُه الحمادون ، يأْتَزِرون على أَنصافهم ، ويوضِّئون أَطرافَهُم ، أَناجيلُهم في صدورهم ، يُصَفُّون للصلاة كما يُصَفُّون للقتال ، قُربانُهم الذي يتقرّبون به إليَّ دماؤهم ، رهبانٌ بالليل ليوثٌ بالنهار»[١].

وفي هذا يبيِّن النبي صلى الله عليه وآله وسلم صفتَه في الكتب السابقة السماوية ، ومن ذلك: صفةُ أُمته صلى الله عليه وآله وسلم ، «أَناجيلُهم في صدورهم» ، قال العلامة المناوي: الأَناجيل: جمع إنجيل ، وهو الكتاب الذي يُتلى ، وقوله صلى الله

---

(١) ورواه الحافظ البغوي في (شرح السنة) ، ورمز الحافظ السيوطي في (الجامع الصغير) لحسنه.

عليه وآله وسلم: «أناجليهم في صدورهم» يعني: كتبهم ـ أي: مصاحف قرآنهم ـ محفوظة في قلوبهم، ويقال: الإِنجيلُ: كلُّ كتاب مكتوب وافر السطور. ا هـ.

يعني: أنّ كلمة إنجيل هي عند الإطلاق يراد بها الكتاب المنزل على عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام، ولكنْ قد يراد به كل كتاب وافر السطور.

قال في (النهاية) في تفسيره لهذه الجملة من الحديث: يريد أَنهم يقرؤون كتابَ الله عن ظهر قلوبهم، ويجمعونه في صدورهم حفظاً، وكان أَهل الكتاب إنما يقرؤون كتبهم من الصحف، ولا يكاد أَحدهم يجمعها حفظاً إلا القليل.

وعن أَنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لما فرغتُ مما أَمرني الله به من أَمر السموات والأَرض قلت ـ أي: ليلة المعراج ـ: يا ربِّ إنه لم يكنْ نبيٌّ مثلي إلا وقد كرمتَه، جعلتَ إبراهيم خليلاً، وموسى كليماً، وسخَّرتَ لداود الجبال، ولسليمان الريحَ والشياطين، وأَحييتَ لعيسى الموتى، فما جعلتَ لي؟

قال: أَوَلَيس قد أعطيتُكَ أفضلَ من ذلك كلِّه؟ إني لا أُذْكَرُ إلا ذُكرتَ معي، وجعلتُ صدورَ أُمتك أَناجيلَ يقرؤون القرآن ظاهراً؛ ولم أَعطِها أُمةً، وأَعطيتُك كنزاً من كنوز عرشي: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»(١).

---

(١) رواه أبو نعيم وغيره، كما في تفسير ابن كثير.

وقد شرّف الله تعالى قلوبَ هذه الأُمة فجعلها أَوعيةً للقرآن الكريم.

عن أبي أُمامة رضي الله عنه، أَن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «اقرأوا القرآن، فإن الله تعالى لا يُعَذِّب قلباً وَعَىٰ القرآن»[1].

وُجُوبُ المُحافَظَةِ على سَلاَمَةِ القَلْبِ مِنَ السَّقَمِ

إذا علمتَ أيُّها المؤمن فضلَ الله تعالى عليك، وما أَلقى على قلبك من أَنوار الإيمان، وما أَودع فيه من آيات القرآن ومعانيه، وما في ذلك من كرامتك وشرفك وعزتك ـ كما تقدم بيانه ـ: فيجب عليك أَن تحرِص على ذلك كلّ الحرص، وأن تحافظ على سلامة قلبك من أَمراض الكفر والشبهات والشهوات. فإنه لا ينجو يوم القيامة ويَسلَم من المتالف؛ ولا يأْمنَ من المخاوف إلا مَنْ أتى الله تعالى بقلب سليم.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾.

قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾: القلبُ السليم: أن يَشْهَد أَن لا إِلَه إلا الله.

وقال مجاهد والحسن وغيرهما: ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ يعني: من الشرك.

(١) عزاه في (الجامع الصغير) إلى تَمّام في (فوائده) رامزاً لحسنه.

وقال أَبو عثمان النيسابوري: هو القلب السالم من البدعة، المطمئن إلى السنة[1].

ولا تنافِيَ بين هذه الأقوال فإنها متلازمة، فإن الاعتقاد الصحيح بـ: لا إلّه إلا الله يقتضي التوقِّيَ من الشرك كله، والبعد عن البدعة، والتحقُّق بالسنة.

فمثلُ هذا الاختلاف في الأَقوال حولَ الآية الواحدة ليس هو اختلافَ تضاد بل هو اختلاف تنوُّع، فإنّ كل واحد من تلك الأقوال يشير إلى جانب من معاني الآية الكريمة، ولكن الآية تشمل ذلك كله، لأَنها جاءَت بمعنى عامٍّ وهو سلامة القلب، أي: سلامتُه منَ دَنَسِ الشرك والشكِّ والبدعة، وسائر الشبهات، وأَمراض الشهوات المحرمة، فإنّ لها تأْثيراً على القلوب، لأَنها تدفع صاحبها إلى الوقوع في الذنوب.

وقد تقدم في الحديث أَن الذنوب تُجْعل ظلمة وسواداً في القلوب، قال صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا أَذنب العبدُ ذنباً نُكتَ في قلبه نكتةٌ سوداءٌ..» الحديث كما تقدم.

وقد قال الإمام مالك للإمام الشافعي لما جلس بين يديه وقرأ عليه، فأَعجبه ما رأى من وفور فطنته، وتوقُّد ذكائه، وكمال فهمه، فقال له مالك: إنِّي أرىٰ الله تعالى قد أَلقى على قلبك نوراً فلا تُطفئه بظلمة المعصية. ا هـ[2].

---

(١) انظر ذلك كله في تفسير ابن كثير.

(٢) انظر (الجواب الكافي) وغيره.

قال تعالى: ﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ ﴾ أي: مرض الشهوات المفرطة.

كما أَن سلامة القلب تقتضي السلامةَ من الأَوصاف الذميمة، كالغِلِّ والحقدِ والحسدِ والبغضاءِ.

روى الترمذي، عن أَنس رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يا بنيَّ إنْ قَدَرْتَ أَنْ تُصبح وتمسيَ ليس في قلبك غِشٌّ لأَحد فافعل يا بنيَّ، وذلك من سنتي»[1].

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قيل: يا رسول الله أيُّ الناس أفضلُ؟

قال: «كلُّ مَخْمُومِ القلبِ، صَدُوقِ اللِّسان».

قالوا: صدوق اللسان نعرفه، فما مخمومُ القلب؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «هو التقيُّ النقيُّ، لا إثم فيه، ولا بغيَ، ولا غِلَّ ولا حسد» رواه ابن ماجه بإسناد صحيح والبيهقي وغيره[2].

فالخير كل الخير، والفلاح والنجاح في الدنيا والآخرة في سلامة القلب من الشرك، والشك، والنفاق، وسوءِ الأَخلاق.

عن أَبي ذر رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «قد أَفْلَح من أَخلصَ قلبَه للإيمان، وجعل قلبه سليماً، ولسانه صادقاً، ونفسَه مطمئنة، وخَلِيقَتَه ـ أي: طريقته ـ

(١) كما في (الترغيب) و(الفتح الكبير).
(٢) كما في (ترغيب) المنذري.

مستقيمة ، وجعل أُذُنَه مستمعة ، وعينَه ناظرة . فأمَّا الأُذُنُ فَقِمَعٌ ، والعينُ مقرَّة بما يُوعِي القلب ، وقد أَفلح من جعل قلبه واعياً»[1] .

وفي قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ تنبيهٌ للاهتمام الشديد بسلامة القلب ، ولذلك كان صلى الله عليه وآله وسلم يدعو في آخر الصلوات ويسأل الله تعالى قلباً سليماً:

روى النسائي ، عن شداد بن أَوس رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يقول في صلاته: «اللهم إني أَسأَلك الثباتَ في الأمر ، والعزيمةَ على الرُّشْد ، وأَسأَلك شكرَ نعمتك ، وحسنَ عبادتك ، وأَسأَلك قلباً سليماً ، ولساناً صادقاً ، وأسأَلك من خير ما تعلم ، وأَعوذ بك من شرِّ ما تَعْلَم ، وأَستغفرك لما تَعْلَم»[2] .

وكان صلى الله عليه وآله وسلم يُعلم أَصحابه هذا الدعاءَ ، اهتماماً بما اشتمل عليه من المطالب التي يجب على المؤمن أن يكون شديدَ الحرص عليها.

روى الترمذي ، عن رجل من بني حنظلة قال: صَحِبتُ شَدَّاد بن أوس رضي الله عنه ، فقال لي: أَلا أُعلِّمك ما كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعلِّمنا أن نقول؟

«اللهم إني أَسأَلك الثباتَ في الأَمر ، وأَسأَلك عزيمةَ الرشد ،

---

(١) قال المنذري: رواه أحمد والبيهقي وفي إسناد أحمد احتمال للتحسين. ا هـ.

(٢) انظر (جامع الأصول).

وأسأَلك شكرَ نعمتك ، وأَسأَلك لساناً صادقاً ، وقلباً سليماً ، وأعوذ بك من شرِّ ما تَعْلَم ، وأَسأَلكَ من خيرِ ما تعلم ، وأَستغفركَ مما تَعلَم ، إِنك أَنت علام الغيوب».

قال: وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «مامن مسلم يأْخذُ مضجعه فيقرأُ سورةً من كتاب الله تعالى إلا وكَّل الله به ملكاً ، فلا يَقْرَبُه شيءٌ يؤذيه حتى يَهُبَّ متى هَبَّ»[1] أي: متى قام من نومه.

ومن الواجب على المسلم أن يكون سليمَ القلبِ من الحقد والحسدِ ، والضَّغينة والغلِّ ، فإِن ذلك يمنع من كمال الإِيمان ، ويحجب رفعَ الأَعمال ويُضِرُّ بها.

روى ابن حبان في (صحيحه) عن أَبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لا يجتمعُ في جوفِ عبدٍ مؤمنٍ غبارٌ في سبيل الله تعالى وفَيحُ جهنم ، ولا يَجتمع في جوفِ عبدِ الإِيمانُ والحسد»[2].

وروى أَبو داود ، عن أَبي هريرة رضي الله عنه ، أَن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إِياكم والحسدَ ، فإِنّ الحسدَ يأْكلُ الحسناتِ كما تأْكلُ النار الحطبَ» ـ أو قال: « العُشْب» ـ وروى ابن ماجه والبيهقي وغيرهما عن أَنس رضي الله عنه نحوه.

وعن جابر رضي الله عنه ، أَن رسول الله صلى الله عليه وآله

---

(١) انظر (جامع الأصول) والحديث مروي في (مسند) أحمد و(مستدرك الحاكم وصححه ، ورواه ابن حبان في (صحيحه).

(٢) قال المنذري: ورواه البيهقي من طريق ابن حبان.

وسلم قال: «تُعرضُ الأعمالُ يومَ الاثنينِ والخميس: فمِن مستغفرٍ فيغفرُ له، ومِن تائب فيتابُ عليه، ويردُّ أهلُ الضغائنِ[1] بضغائنهم حتى يتوبوا» رواه الطبراني في (الأوسط) ورواته ثقات.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «ثلاثةٌ لا تُرفع صلاتهم فوق رؤوسهم شِبراً...» وذكر منهم: «وأَخوانِ مُتَصَارمان» ـ الحديث كما تقدم ـ أي: مسلمان متباغضان ومتقاطعان.

وقد نبّهنا رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى أَن الشيطان هو جاهدٌ كلّ جهده في التحريش بين المسلمين المصلِّين، والإغراءِ بينهم والتقاطع.

روى مسلم، عن جابر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «إن الشيطان قد يئس أَن يعبُدَهُ المصلُّون في جزيرة العرب، ولكنْ في التحريش بينهم».

الأَدْعِيَةُ الواردَةُ في حِفْظِ القَلْبِ مِنَ الزَّيغ والتَّعوُّذُ مِنَ الضَّلالِ بَعْدَ الهُدَى

قال الله تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٧ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾.

روى ابن أبي حاتم بإسناده، عن عبيد الله بن يزيد ـ وكان قد

(١) أي: الأحقاد.

أدرك أصحابَ النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم: أَنساً وأَبا أُمامة وأَبا الدرداء رضي الله عنهم ـ أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سئل عن الراسخين في العلم فقال: «مَنْ بَرّتْ يمينُه، وَصَدَقَ لسانُه، واستقام قَلْبُه، ومَنْ عَفّ بَطْنُه وفَرْجُه: فذلك من الراسِخين في العلم».

قال الحافظ ابن كثير بعدما أَورد هذا الحديث: ثم قال الله تعالى مخبراً عنهم أَنهم دَعَوْا ربّهم قائلين: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ أي: لا تُمِلْها عن الهدى بعد إذْ أَقمتَها عليه، ولا تجعلنا كالذين في قلوبهم زيغٌ، الذين يتّبعون ما تشابه من القرآن، ولكن ثَبِّتْنَا على صراطك المستقيم ودينك القويم. ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ تثبِّتُ بها قلوبنا، وتجمعُ بها شملَنا، وتزيدنا بها إيماناً وإيقاناً ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾[1]. اهـ.

وهو يُشير بهذه الكلمات حول تفسير الآية الكريمة، يشير إلى ما جاءَ في (سنن) الترمذي، عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يدعو فيقول: «اللهم إني أَسأَلك رحمةً من عندك تَهدي بها قلبي، وتَجمع بها أَمري، وتَلُمُّ بها شَعَثي، وتردُّ بها غائبي، وترفعُ بها شاهدي، وتزكّي بها عملي، وَتَردُّ بها أُلْفتِي، وتُلْهِمُني بها رُشْدِي، وتعصمني بها من كُلِّ سوءٍ.

اللهم أعطني إيماناً ويقيناً ليس بعده كفر، ورحمةً أنال بها شرفَ كرامتك في الدنيا والآخرة...» الحديث كما تقدم.

وروى الترمذي وغيره، عن أَنس رضي الله عنه قال: كان النبي

---

(١) انظر تفسير ابن كثير.

صلى الله عليه وآله وسلم يُكثر من أَن يقول: «يا مقلِّبَ القلوب ثَبِّتْ قلبي على دينك».

قالوا: يا رسول الله آمنّا بك وبما جئت به، فهل تخافُ علينا؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «نعم إن القلوبَ بين إِصْبَعَيْنِ من أَصابع الرحمن يقلِّبُها كيف يشاءُ»[١].

روى الإمام أحمد، عن أُم سلمة رضي الله عنها، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يكثر في دعائه أَن يقول: «اللهم مُقلِّبَ القلوب ثبِّتْ قلبي على دينك».

فقلت: يا رسول الله أَوَ إِنَّ القلوب لتتقلَّبُ؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «نعم ما منْ خلق الله من بني آدم من بشرٍ إلا وقلبُه بين إصبَعَين من أصابع الله، فإِنْ شاءَ الله عز وجل أقامه، وإن شاءَ أزاغه».

ـ فنسأَل الله ربنا أَن لا يُزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، ونسأَله أن يَهَبَ لنا من لدنه رحمة إنه هو الوهاب ـ.

قلت: يا رسول الله ألا تُعلمني دعوةً أدعو بها لنفسي؟

قال: «بلى، قولي: اللهم ربَّ النبيِّ محمدٍ صلى الله عليه وآله وسلم اغفرْ لي ذنبي، وأَذهبْ غيظَ قلبي، وأَجِرْني من مُضِلاَّت الفتنِ ما أَحييتَني»[٢].

---

(١) انظر (جامع الأصول) وغيره، وقد حسنه الترمذي، كما قال في (الدر المنثور)، ورواه الإمام أحمد، والبخاري في (الأدب المفرد).

(٢) وعزا في (الدر المنثور) إلى ابن أبي شيبة، والترمذي، والطبراني، وغيرهم.

وعن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كثيراً ما يدعو: «يا مقلِّبَ القلوب ثَبِّتْ قلبي على دينك».

قلت: يا رسول الله ما أكثرَ ما تَدْعو بهذا الدعاءِ؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ليس مِنْ قلبٍ إلا وهو بين إصبَعين من أصابع الرحمن، إذَا شاءَ أَن يقيمه أَقامه، وإذا شاءَ أَن يُزيغَهُ أَزاغه، أَما تَسمَعينَ قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾[1]».

وكان صلى الله عليه وآله وسلم يدعو بذلك في جوف الليل حين يستيقظ، وفي هذا إرشاد لأُمته صلى الله عليه وآله وسلم إلى الاهتمام بهذا الدعاءِ، وإلى المواظبة عليه، والإكثار منه، لأنَّ المؤمن هو أَحوجُ ما يكون إليه.

روى أَبو داود وغيره، عن السيدة عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا استيقظ من الليل قال: «لا إلَه إلا أنت، سبحانك اللهم، أَستغفرك لذنبي، وأَسأَلك رحمتك، اللهم زدني علماً، ولا تُزِغ قلبي بعد إذ هديتني، وهبْ لي من لدنك رحمة إنك أَنت الوهاب».

وكما ينبغي للمؤمن أن يُكثر من الدعاءِ بتثبيت الله تعالى قلبَه على الإيمان والهدى، وأَنْ لا يزيغه ويميله إلى الضلال، ينبغي أَن يدعو الله تعالى بأن يصرفَ قلبه إلى طاعته، ويُقبلَ بقلبه على

---

(١) رواه الإمام أحمد وابن أبي شيبة وابن مردويه، كما في (الدر المنثور).

عبادته سبحانه ، كما أَرشدنا إلى ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

روى مسلم ، والنسائي والبيهقي ، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ، أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «إن قلوبَ بني آدم كلَّها بين إصبعينِ من أَصابع الرحمن كقلب واحد ، يُصَرِّفه كيف يشاءُ».

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «اللهم يا مُصرِّف القلوب صَرِّفْ قلوبَنا على طاعتك».

وفي هذه الأَحاديث الشريفة إرشادات وتنبيهات للأُمة إلى الاهتمام بدعاءِ التثبيت على الإيمان ، وحفظ القلب من الزيغ ، وإلى الاعتصام بالله تعالى ، وعدم اعتماد الإنسان على نفسه ، فإنَّه من يعتصِمْ بالله فقد هُدِي إلى صراط مستقيم ، ومَنِ اسْتَحْفَظ الله تعالى إيمانه حفظه الله تعالى عليه ، ومَنِ استودعَ الله تعالى دينَه لم تَخِبْ وديعتُه ، ولم تَضِعْ منه ، بل حَفِظَهَا الله تعالى عليه.

ولما كانت الأَحاديث المتقدمة تحثُّ المؤمن على الدعاءِ بحفظ القلب من الزيغ والضلال ، لذلك فإنَّنا نرى أَن الصحابة كانوا يُكثرون من الدعاءِ بتثبيت الإيمان ، وحفظ القلب من الزَّيْغِ ، ومن الفساد والضلال بعد الصلاح والهدى.

روى الإمام مالك في (الموطأ) عن أَبي عبد الله الصُّنَابحي قال: قدمتُ المدينةَ في خلافة أَبي بكر الصديق رضي الله عنه ، فصليتُ وراءَه المغربَ ، فقرأ في الركعتين الأُوليين بأُم القرآن وسورةٍ من قصار المفصّل ، ثم قام في الثالثة فدنوتُ منه حتى إن ثيابي لَتَمَسُّ

ثيابه ، فسمعته قرأ بأُم القرآن ـ أي : سورة الفاتحة ـ وبهذه الآية : ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾[1] .

وأخرج ابن سعد في (طبقاته) عن أَبي عطاف ، أَن أَبا هريرة رضي الله عنه كان يقول: أَيْ ربِّ لا أَزْنِيَنَّ ، أيْ ربِّ لا أَسرقنّ ، أيْ ربِّ لا أَكفرنَّ .

قيل له: أَوَ تخاف؟ .

قال: آمنتُ بمحرِّفِ القلوب ـ ثلاثاً ـ[2] .

وروى ابن سعد أَنه قيل لنافع: ما كان يَصنع عبد الله بن عمر رضي الله عنهما في منزله؟ .

فقال: لا تُطيقونه: الوضوءُ لكل صلاة ، والمصحف فيما بينهما ـ أي: قراءَة القرآن الكريم في المصحف ـ .

وقال نافع: كان ابن عمر رضي الله عنهما إذا افتتح المصحفَ ليقرأَ بدأَ فقال: اللهم أَنت هديتَني ولو شئتَ لم أَهتدِ ، لا تُزِغْ قلبي بعد إذ هديتَني ، وهبْ لي من لدنك رحمةً إنك أنت الوهاب .

* * *

هذا وقد تمّ جمعُ هذا الكتاب من فضل الله تعالى عليّ في العشرين مِنْ شهر ربيع الثاني سنة ١٤٠٣ هـ في المدينة المنوَّرة ،

---

(١) ورواه ابن أبي شيبة والشافعي وغيرهم .

(٢) كما في (الدر المنثور) وقال ابن الأثير في (النهاية): وحديث أبي هريرة رضي الله عنه: آمنت «بمحرف القلوب» أي : مزيغها ومميلها ، وهو الله تعالى ، وَرُوِيَ (بمحرك القلوب). ا هـ .

وإني لأَرجو من الله تعالى أن يُتمّ نعمته عليّ ، ويديمَ فضله وتوفيقه ، حتى أُكمل هذه الرسائل الإيمانية المتسلسلة ، وأَسأَل الله العظيم ربّ العرش العظيم أن ينفعني بها ، وأَن ينفع بها عباده .

وصلى الله العظيم على سيدنا محمد النبي الأُمي ، وعلى آله وأَصحابه وأَتباعه ، وعلينا معهم أجمعين ، وسلَّم تسليماً أبد الآبدين .

و﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

❊ ❊ ❊

المحتوى

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم
كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون
صلاةً وسلاماً دائمين إلى أن يقوم الناس لرب العالمين
والحمد لله رب العالمين

❊ ❊ ❊ ❊
❊ ❊ ❊
❊ ❊
❊

كتب المؤلف

- حول تفسير سورة الفاتحة ـ أم القرآن الكريم.
- حول تفسير سورة الحجرات.
- حول تفسير سورة ق.
- حول تفسير سورة الملك.
- حول تفسير سورة الإنسان.
- حول تفسير سورة الكوثر.
- حول تفسير سورة ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾.
- حول تفسير سورة الإخلاص والمعوذتين بعدها.
- هدي القرآن الكريم إلى الحجة والبرهان.
- هدي القرآن الكريم إلى معرفة العوالم والتفكر في الأكوان.
- تلاوة القرآن المجيد ـ فضائلها ـ آدابها ـ خصائصها.
- شهادة لا إله إلا الله سيدنا محمد رسول الله ﷺ ـ فضلها ـ معانيها ـ مطالبها.
- سيدنا محمد رسول الله ﷺ ـ خصاله الحميدة ـ شمائله المجيدة.
- الهدي النبوي والإرشادات المحمدية ﷺ إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب السنية.
- التقرب إلى الله تعالى: فضله ـ طريقه ـ مراتبه.
- الصلاة في الإسلام: منزلتها في الدّين ـ فضائلها ـ آثارها ـ آدابها.
- الصلاة على النّبي ﷺ: أحكامها ـ فضائلها ـ فوائدها.
- صعود الأقوال ورفع الأعمال إلى الكبير المتعال ذي العزة والجلال.
- الدعاء: فضائله ـ آدابه ـ ما ورد في المناسبات ومختلف الأوقات.
- الإيمان بعوالم الآخرة ومواقفها.
- الإيمان بالملائكة عليهم السلام ومعه بحث حول عالم الجن.
- حول ترجمة الإمام العلامة المرحوم محمد نجيب سراج الدين رحمه الله تعالى.
- شرح المنظومة البيقونية في مصطلح الحديث.
- أدعية الصباح والمساء ومعها استغاثات.
- مناسك الحج ويليها زيارة النبي ﷺ وآدابها.

وكلها تطلب من مكتبة دار الفلاح حلب: أقيول
أمام جامع أسامة بن زيد هاتف ٣٦٣٩٣٠٠ ـ ٣٦٢٣٧٥٧.